سيوران



رسالة في التحلُّل



ترجمة

آدم فتحي

منشورات الجمل

إهداء إلى ...

#وـو



آدم فتحي: شاعر تونسي (١٩٥٧). له إسهامات في المقالة الصحفية والدراسة النقدية والقصة. أشرف على عدّة صفحات ثقافية. له العديد من المؤلفات الشعرية، منها: **أناشيد لزهرة الغبار**، (١٩٩٢)؛ **نافخ الزجاج الأعمى**، (٢٠١١). ومن ترجماته: شارل بودلير: **اليوميات**، (١٩٩٩)؛ جيلبرت سينويه: **ابن سينا أو الطريق إلى اصفهان**، رواية (١٩٩٩)؛ نعيم قطّان: **وداعاً بابل**، رواية (٢٠٠٠)؛ نعيم قطّان: **فريدة**، رواية (٢٠٠٦)؛ جيلبرت سينويه: **اللوح الأزرق**، رواية (٢٠٠٨)؛ إميل سيوران: **المياه كلها بلون الغرق** (٢٠٠٣)؛ إميل سيوران: **تاريخ ويوتوبيا** (٢٠١٠)؛ إميل سيوران: **مثالب الولادة** (٢٠١٥)؛ إميل سيوران: **اعترافات ولعنات** (٢٠١٨)؛ **تمارين في الإعجاب** (٢٠٢١).

سيوران: **رسالة في التحلُّل**، الطبعة الأولى
ترجمة: آدم فتحي

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

E. Cioran: *Précis de décomposition*, 1949

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

سيوران

رسالة في التحلُّل

ترجمة

آدم فتحي

منشورات الجمل

رسالة في التحلّل

(النبيُّ المُضادّ)

«سألتحق باليأس الأسود في مواجَهَةِ رُوحي،
وأصبح لنفسي عدوًّا .»

ريتشارد الثالث

جينيالوجيا التعصُّب[1]

------------------- ليس مِنْ فِكْرَةٍ إلاّ وهي مُحايِدةٌ أصْلاً أو ينبغي لها أن تكون. إلاّ أنّ الإنسان ينفخ فيها الروح ويبثُّها نزواته ولوثاته، فإذا هي، وقد تدنّست وتحوّلت إلى عقيدة، تتغلغلُ في الزمن وتتّخذ هيئة الحدَث: يكتمل العبور من المنطق إلى الصَّرَع. هكذا تُولَدُ الإيديولوجيّات والمذاهب والمهازل الدمويّة.

عُبّاد أوثانٍ بالغريزة نحن، نُحَوِّلُ كُلّ ما نحلم به أو نرى فيه مصلحةً لنا إلى مُطلَق. ليس التاريخ سوى مَوْكِبِ مُطلقاتٍ زائفة. سلسلةِ معابد منصوبةٍ من أجل ذرائع. امتهانٍ للفكر أمام ما هو بعيد الاحتمال.

يظلّ الإنسانُ عَبْدًا للدين حتى حين يبتعد عنه. يُنهِكُ نفسَهُ في نَحْتِ صُوَرٍ زائفة عن الآلهة ويتبنّاها بعد ذلك بحماسة. حاجتُه إلى

(١) كلّ الهوامش المثبتة في هذا الكتاب من اقتراح المترجم.

الوهم والميثولوجيا تنتصر على البداهة والسخف. قُدْرَتُه على العبادة مسؤولةٌ عن كلّ جرائمه: كُلُّ من يُحِبُّ إلَهًا حُبًّا أعمى يُرغم الآخرين على حبِّه في انتظار أن يُبيدهم إذا رفَضُوا. ليس من تعصُّبٍ أو تبشير أو تعنُّتٍ إيديولوجيّ إلاّ وهو ينمُّ عن قاعٍ بهيميٍّ للحماسة. ما إن يفقد الإنسان **قُدْرَتَهُ على اللاّمُبالاة** حتى يصبح قاتلاً افتراضيًّا. ما إن يحوّل فكرته إلى إله حتى تَفُوقَ التبعاتُ الحصر.

لا نَقْتُلُ إلاّ باسم إلهٍ أو باسم نُسَخِه المُزوَّرة. وما الإفراطاتُ التي يتسبّب فيها الإلهُ **العقلُ** أو فكرةُ الأمّةِ أو الطبقةِ أو العِرْقِ إلاّ فروعٌ من تجاوزات محاكم التفتيش أو الإصلاح الدينيّ.

تُبدِعُ مراحلُ الحماسة في إتيانِ المآثر الدمويّة: لم يكن للقدّيسة تيريزا[١] بُدٌّ من أن تعاصر المحارق ولم يكن للوثر بُدٌّ من أن يعايش مذبحة الفلاّحين.[٢] خلالَ النوبات الصوفيّة تكون آهاتُ الضحايا موازيةً لآهات النشوة.

---

(١) القديسة تيريزا الأفيليّة Thérèse d'Ávila (١٥١٥-١٥٨٢): الراهبة الكرمليّة الإسبانيّة. ضايقتها محاكم التفتيش بسبب مواقفها وخاصّة بسبب «كتاب الحياة»، لكنّ عملها الأشهر يظلّ «القصر الباطنيّ».

(٢) مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣-١٥٤٦): اللاهوتيّ الألمانيّ رائد عصر الإصلاح الدينيّ في أوروبّا. ثار الفلاّحون في ألمانيا بتأثير من عِظاته واغتنم بعضهم الفرصة لسرقة البيوت وقتل رجال الدين، فغضب لوثر وكتب داعيًا إلى معاملة المتمرّدين كما تُعامَلُ «الكلاب المسعورة»، وهو ما تمّ في معركة فرانكن هوسن سنة ١٥٢٥.

لا تزدهر المشانق والزنزانات والسجون إلاّ في ظلّ عقيدة. في ظلّ تلك الحاجة إلى الإيمان التي لوَّثَت الفكر إلى الأبد.

كم يبدو الشيطان باهِتًا بالقياس إلى الشخص الذي يمتلك الحقيقة، حقيقَته.

نحن نظلم أمثال نيرون وتيبريوس[1] فهُمْ لم يخترعوا البتّة مفهومَ الهرطوقيّ: إنّهم لم يكونوا سوى حالِمِينَ مُنْحَطِّينَ يتسلّون بالمجازر. المجرمون الحقيقيّون هم أولئك الذين ينشئون أورتودكسيّات على الصعيد الدينيّ أو السياسيّ، ويميّزون بين المؤمن والمنشقّ.

تُراقُ الدماء ما إن نرفض الإقرار بأنّ من طبيعة الأفكار أن يَحُلَّ بعضُها مَحَلَّ بعض. تحت كلّ قرارٍ حازمٍ يُشْهَرُ خنجر. العيونُ الملتهبة تُنذِر بالقتل. لم يَحْدُث قَطُّ للعقلِ المتردّد المُصاب بالهمليتيّة[2] أن يكون خبيثًا: يَكْمُنُ مبدأ الشرّ في ضغط الإرادة، في عدم القدرة على الهدوئيّة[3]، في جنون العظمة البروميثيوسيّ

(١) تيبيريوس Tibère ou Tiberius (٤٢ ق م - ٣٧ ب م): الإمبراطور الرومانيّ الثاني (سيكون نيرون الإمبراطور الخامس والأخير).
(٢) نسبةً إلى هاملت: بطل مسرحيّة شكسبير. رمز التردّد والرغبات المتناقضة والتمزّق بين العزم والإحجام تحت وطأة تأنيب الضمير.
(٣) الهدوئيّة Quiétisme: حركة روحانيّة تُنسب أساسًا إلى الراهب الإسبانيّ ميغال دو مولينوس (١٦٢٨-١٦٩٦)، وتهدف إلى نوع من السكينة السالبة.

الذي يصيب عِرْقًا يَموتُ طلبًا لمَثَلٍ أَعْلَى، وينفجر تحت وطأة قناعاته. ولأنّه يستطيب العبَثَ بالشكّ والكسل وهُمَا رذيلتان أنْبَلُ من كُلِّ فضائِله، فإنّه يختارُ السيرَ في طريق الهلاك، في التاريخ، في هذا الخليط البذيء من التفاهة والقيامة... حيث تتكاثرُ الأفكارُ اليقينيّة: تخلّصوا منها، تخلّصوا من نتائجها خاصّةً، تُعِيدُوا بِناءَ الفردوس.

هل السقوطُ إلاّ الركض خلفَ حقيقةٍ والجَزْمُ بالعثور عليها؟ هل السقوطُ إلاّ الشّغَفُ بعقيدةٍ والإقامةُ فيها؟ عَنْ ذلكَ ينْتجُ التعصُّبُ، تلك العاهةُ الرئيسيّةُ التي تجعلُ الإنسانَ ميّالاً إلى النجاعة والنّبوءة والرعب، ذاك الجذامُ الغنائيُّ الذي يُلوِّثُ الأرواحَ ويخضِعُها ويسحقها أو ينشّطها، فلا ينجو منه إلاّ الشكّاكون (أو الكسالَى والفنّانُون)، لأنّهم لا يقترحون شيئًا، لأنّهم كمحسنين حقيقيّن للإنسانيّة، يدمّرون ما فيها من تَحَيُّزٍ ويُفسِدونَ ما لديها من هذيان.

أشعر بالأمان قُرْبَ بِيرُّو[١] أكثر ممّا أشعر به قُرْب القدّيس بولس.[٢] والسببُ أنّ حِكمةً ممزوجةً بالدعابة ألْطَفُ من قداسةٍ لا

---

(١) بيرّو أو بيرون Pyrrhon (حوالي ٣٦٥-٢٧٥ ق م): الفيلسوف اليوناني الشكّاك مؤسّس المدرسة الريبيّة التي تحمل اسمه.

(٢) بولس الطرسوسي Saint Paul (بدايات القرن الأوّل للميلاد - حوالي ٦٨ م): من مواليد طرسوس. أحد بناة المسيحيّة الأساسيّين بما تركه من رسائل وما أقامه من كنائس.

كابِحَ لجماحِها. داخِلَ كلّ رُوحٍ مُضطرمة نعثر على الحيوان المفترس متنكّرًا. ولن نُبالِغَ في الاحتماء من مخالبِ نَبِيّ مهما فعَلْنَا. لذلك عليكم متى رفع صوتَه، وليكن باسم السماء أو المدينة أو أيّ تعلّة أخرى، أن تبتعدوا عنه: إنّه غولُ عُزْلتكم الذي لا يغفر لكم أن تعيشوا أدنَى من حقائقِهِ وغضَباتِه. هيستيرياهُ هي كلّ ما يملك، وهو يريد أن يقاسمكم إيّاها، أن يفرضها عليكم فيمسخكم. الشخصُ المسكون بعقيدةٍ والذي لا يسعى إلى تعميمها على الآخرين ظاهرةٌ غريبة عن هذه الأرض، حيث الهوسُ بالخلاص يجعل الحياةَ لا تُطاق.

تأمّلُوا فيما حولَكم: في كُلِّ مكانٍ يَرَقاتٌ تعظ، مؤسّسةٌ تتمخّضُ عن مهمّةٍ تبشيريّة، بلديّاتٌ لها مُطْلَقُها الخاصُّ شأنها في ذلك شأن المعابد، شأن الإدارة بقوانينها. ميتافيزِيقَا في مُتناوَلِ القِرَدة. الكُلُّ يسعى جاهِدًا لمُعالجةِ حياةِ الكُلّ، حتّى الشحّاذون والمرضى المزمنون. أرصفةُ العالم ومستشفياتُه تَفِيضُ بالمُصلِحين. رغبةُ الواحِدِ في أن يُصبح مصدرًا للأحداث تُصيبُه بما يُشبه الاختلالَ العقليّ أو اللعنةَ المرغوبَ فيها. هوذا المجتمع: جحيمٌ من المُخَلِّصين كان ديوجين يبحث فيها بفانوسه عن إنسان غير مُكترث. . .

يكفيني أن أسمع أحدهم يتحدّث بصدق عن المَثَل الأعلى والمستقبل والفلسفة، يكفيني أن أسمعه يقول «نحن» بنبرة الواثق

ويَذْكُرُ «الآخرين» باعتباره الناطقَ باسمهم، كي أعتبِرَهُ عدُوّي. إنّه في نظري طاغيةٌ لم يتحقّق وجلاَّدٌ لم يكتمل، يستحقّ الكراهيةَ بقدر ما يستحقُّها الطغاةُ والجلاَّدُون من الدرجة الأولى. وذلك لأنّ من طبيعةِ كُلِّ إيمانٍ أن يمارس شكلاً من الرعب، يزداد إرعابًا بقدر ما يتولّى أمرَهُ «الأنقياء». نحترزُ من الماكرين والأوغاد والمحتالين على الرغم من أنّنا لا نستطيع أن ننسب إليهم أيًّا من الهزّات التاريخيّة الكبرى. إنّهم لا يؤمنون بشيء ومن ثمّ فإنّهم لا يُفتّشون في قلوبكم ونواياكم، بل يتركونكم لِلاَمُبالاتِكم ويأسكم أو لاَجَدْواكُم. إنّ البشريّة مدينةٌ لهم بفترات الازدهار القليلة التي عرفتها. هؤلاء هم الذين يُنقِذُون الشعوب التي يعذّبها المتعصّبون ويخرّبها «المثاليّون». خلَوْا من العقيدة فإذا هم لا يملكون سوى نزواتٍ ومصالح، رذائل سهلة المراس يمكن تحمُّلُها ألفَ مرّة أكثر من الخراب الذي يُحْدِثُه الاستبدادُ باسم المبادئ، لأنّ أمراضَ الحياة كلّها ناجمةٌ عن «تصوُّرٍ للحياة».

يَحْسُنُ برجل السياسة الكامل أن يعمّق معرفته بالسفسطائيّين القُدامَى وأن يتلقّى دُروسًا في الغناء، وفي الفساد...

أمّا المتعصّبُ فإنّه غير قابل للإفساد: إذَا كان في وسعه أن يَقتُلَ من أجل فكرة فإنّ في وسعِهِ أيضًا أن يُعرِّض نفسَهُ للقتْلِ من أجلها. إنّه غُولٌ في الحالتين طاغيةً كانَ أم شهيدًا.

ليس أخطر من أولئك الذين عانوا من أجل عقيدة: لذلك يتمّ تجنيدُ أكبَر المُضْطَهِدين من بين الشهداء الذين لم تُقطَع رؤوسهم.

لا تُخفِّفُ المُعاناةُ من شهيّةِ القوّة بقدر ما تحفّزُها. من ثَمَّ يرتاحُ العقلُ في رفْقة مغرورٍ أكثر ممّا يرتاح في رفقة شهيد. ولا يُقرِفُه شيءٌ كما يُقرِفُه مشهدُ الموتِ من أجل فكرة. إنّه يَضِيقُ ذرعًا بالرائع والدمويّ، فيحلم بسأمٍ رِيفِيٍّ في **حجم الكون**، بتاريخٍ يَبْلُغُ من الرّكود حَدًّ أن يرتسم فيه الشكُّ كحَدَثٍ والأملُ كمصيبة...

النبيُّ المُضادّ

---------------- داخِلَ كلّ إنسانٍ يغفُو نبيٌّ متى استيقظَ انضافَ شيءٌ من االشرّ إلى العالم... تَرَسَّخَ جُنونُ التبشيرِ فينا حتّى بات ينبثق من أعماقٍ تَجْهَلُها غريزةُ البقاء.

كُلٌّ ينتظر **لحظتَهُ** لاقتراح شيءٍ، أيِّ شيء. لِكُلٍّ صوتٌ وهذا يكفي كي ندفع غاليًا ثمنَ كونِنا لسنا صُمًّا ولاَ بُكْمًا...

كُلٌّ يُنفِقُ سخاءَه الإجراميّ بدايةً من المُعدمِ وُصولاً إلى المُتكبّر. كلٌّ يُوزِّعُ وصفاتِ السعادة. كلٌّ يريد التحكّم في خُطَى الكلّ. فإذَا الحياةُ المشتركةُ لا تُحْتَملُ وإذا الحياةُ مع الذات أقلّ

قابليّةً للاحتمال: يزدادُ انشغالُنا بشؤوننا حين لا نتدخّل في شؤون الاخرين فنُحوِّلُ «الأنا» إلى دين، أو نُنْكِرُها كما يفعلُ حَوارِيٌّ متراجع: نحن ضحايا اللعبة الكونيّة...

ليس لِوَفْرَةِ الحُلول المُقتَرَحة على مسائل الكينونة ما يُضاهِيها سوى عُقْمِها. التاريخ: مَصْنَعٌ يدويّ للمُثُل العليا، ميثولوجيا متقلِّبةُ المزاج، هيَجانُ الحشود والأفراد، إحجامٌ عن تصَوُّرِ الواقع كما هو، ظَمأ قاتلٌ إلى الأوهام...

يكمنُ مصدرُ أفعالنا في نُزوعٍ لاَ واعٍ إلى اعتبار أنفسنا محْوَرَ الزمن وسببَه ونتيجتَه. كبرياؤُنا ورُدودُ أفعالنا تُحوِّلُ قطعةَ اللحم والوعي التي هي نحنُ إلى كوكب. لو أحْسَنّا تقديرَ موقعنا في العالم، لو تعذّر الفصلُ بين **أن نقارن وأن نعيش**، لسحَقَنا اكتشافُ ضآلةِ حُضورِنا. لكنْ أن نحيا يعني أن نعمَى عن أبعادنا الخاصّة.

وإذا صَحَّ أنّ أفعالَنا كُلَّها بدايةً من التنفّس وُصولاً إلى تأسيس الإمبراطوريّات أو إنشاء الأنظمة الميتافيزيقيّة، متفرّعةٌ عن وهْمٍ حول أهميّتنا، فإنّ ذلك يصحّ أكثر في شأن غريزتنا النبويّة.

مَنْ ذَا الذي تراه يحاول وهو على بيّنةٍ تَامّةٍ من تفاهته الخاصّة، أن يكون فعّالاً وأن ينتصب كمُخَلِّص؟

حنينٌ إلى عالمٍ بلا «مثَلٍ أعلى»، إلى احتضارٍ بلا عقيدة، إلى أبديّة بلا حياة، ذاك هو الفردوس. لكنّنا لن نستطيع أن نُوجَدَ لثانيةٍ واحدة دون أن نخدع أنفُسنا: النبيُّ الذي في كلٍّ منّا هو حقًّا بذرةُ الجنون التي تتيح لنا الازدهار في فراغنا.

يَجدُرُ بالإنسان الواعي بشكل مثاليٍّ ومن ثمّ **العاديّ** بشكلٍ مثاليّ، ألاّ يكون له أيُّ ملاذٍ خارجَ **اللاشيء** الذي يكمن فيه.

أتخيّل أنّي أسمعه يقول: «صُرِفتُ عن الغايةِ وعن كلّ غايةٍ فلم أعد أحتفظ من رغباتي وخيباتي إلاّ بمنطوقِها. صمدتُ في وجه غوايةِ الإتمام فهَزَمْتُ الفِكر، كما هَزَمْتُ الحياة عن طريق الاشمئزاز من البحث فيها عن حَلّ.

مشهدُ الإنسان: باعِثٌ على القيء. الحبُّ: لِقاءُ لُعابَيْن. المشاعرُ كلّها تستمدّ مُطْلَقَهَا من بؤس الغُدَد. (في السابق كانت لي «ذات». الآن لم أعد سوى موضوع. أُتْخِمُ نفسي بعقاقير العزلة. عقاقيرُ العالَم كانت أضعفَ من أن تَجْعلَني أنساه. لقد قتلتُ النبيَّ فِيَّ فكيف يَظَلُّ لي مكانٌ بين البشر؟)



------------------ هل يحقُّ لنَا أن نتَخَيَّلَ عَقْلاً يهتفُ: «كُلُّ شيءٍ الآن في نظري بلا موضوعٍ لأنِّي قدّمتُ تعريفًا لكلّ شيء»؟ وإذَا كان في وسعنا أن نتخيَّلَ ذلك فكيف يمكننا تعيينُ موقعهِ في الديمومة؟

نحن نتحمّلُ ما يحيطُ بنا بِقَدْرِ ما نَمْنَحُهُ اسمًا ثمّ نتجاوزُه. لكنْ أن نتبنَّى الشيءَ من خلال تعريفهِ الاعتباطيّ، الذي تزداد خطورَتُهُ بازدياد اعتباطيّتهِ (بما أنّ الروح تتقدّم فيه على المعرفة)، يعني أن ننبذَ ذلك الشيء، أن نجعله بلا طعمٍ ولا جدوى، وأن نقضِيَ عليه.

بماذا يمكن أن ينشغلَ عقلٌ عاطلٌ شاغرٌ لا يندمج في العالم إلاّ بفضل النّوم، إن لم يكن بتوسيعِ اسْمِ الأشياء، بإفراغها وإحلال الصِّيَغ مَحَلَّها؟ ثمّ إذَا هو يتقدّمُ على أنقاضِها. لا أحاسيسَ بعد. ليس إلاّ ذكريات. تحت كُلِّ صيغةٍ ترقُدُ جثّة. ولا يلبَثُ الكائِنُ أو الموضوعُ أن يَمُوتَ تحت وطأة الذريعة التي تمخّضت عنها تلك الصيغةُ وتلك الجثّة. هذه هي خلاعةُ الفكر الطائشةُ المُهلِكة.

تبَدَّدَ الفكرُ في كُلِّ ما سَمَّى وقَيّد. أحَبَّ الكلمات فكَرِه

غُموضَ الصمت الثقيل وعمل على تخفيفه وتنقيته: هكذا أصبح خفيفًا ونقيًّا بما أنّه تخفّفَ وتنقَّى من كلّ شيء.

لقد صنعَتْ منه رَذيلةُ التعريف قاتلاً ظريفًا وضَحِيّةً مُحتشمة. هكذا امَّحت اللطخةُ التي بَسَطَتْها الروح على العقل، والتي كانت وحدَها تُذَكِّرُه بأنّه حَيّ.

حضارةٌ وطَيْش

---------------- هل كنّا نتحمّلُ وطأةَ الأعمال والروائع الفنيّة وعُمقَها الفضَّ، لولا أنّ عقولاً وقحةً ظريفةً أضافت إلى نسيجها خصلاتٍ من الازدراء المرهف والسخرية العفويّة؟ وهل كُنّا نصبر على تلك القوانين والأعراف، والبُنود العاطفيّة التي أحَلَّتْها العَطالَةُ واللياقةُ مَحلَّ الرذائل الذكيّة واللامجدية، لولا وجودُ تلك الكائنات المرحة التي وَضَعَتْها رهافتُها في وقتٍ واحدٍ على قمّة المجتمع وعلى هامشه؟

علينا أن نكون مُمْتَنِّين للحضارات التي لم تُفْرِطْ في الجديّة، تلك التي لعبت بالقِيم واستمتعت بإنتاجِها وتدميرها. هل نعرف خارج الحضارتين الإغريقيّة والفرنسيّة مِثْلَ هذا الوعيِ اللَّعوب في البرهَنةِ على العَدَمِ الأنيق للأشياء؟

إنّ قرنَ أَلْكِيبيادِسْ[1] والقرنَ الفرنسيّ الثامن عشر مَصْدَرانِ للعزاء. لم تتمكّن الحضاراتُ الأُخرى من استساغة السلوك المرح الذي يمنح الحياةَ مذاق اللاجدوى، إلاّ في طورها الأخير عند انحلال نظامٍ كامل من المعتقدات والعادات. أمّا هذان القرنان فقد كانا في كامِلِ النّضج والسيطرةِ على قُوَاهُمَا وعلى المستقبل، حين عرفا السَّأَمَ المستخِفَّ بكلّ شيء والمتقبّل لكلّ شيء.

هل ثمّةَ رمزٌ أفضل من مَدامْ دي ديفّانْ[2]، العجوز العمياء بعيدة النظر التي كانت تمقتُ الحياة دون أن يمنعها ذلك من الاستمتاع فيها بمباهج المرارة؟ لا أحَدَ يبلغ الطَّيشَ على الفَوْر. إنّه امتيازٌ وفنّ. إنّه البحثُ عن السطحيِّ لدى أولئك الذي انتبهوا إلى استحالةِ كُلِّ يَقينٍ فابتكروا القَرَف من اليقين. إنّه الهرب بعيدًا عن الهُوِيّ التي لا تستطيع أن تُفضِيَ إلى مكان، بما أنّها أصْلاً بلاَ قَرار.

ومع ذلك تبقى المظاهر: لماذا لا نرتقي بها إلى مستوى **الأسلوب**؟ هنا نحنُ بصددِ تَعْرِيفِ كُلَّ عَصْرٍ ذَكِيّ. ينتهي بنا الأمرُ

---

(١) ألسيبيادس Alcibiade (٤٥٠-٤٠٤ ق.م): رجل السياسة والقائد العسكريّ الإغريقي. من تلاميذ سقراط المفضّلين وأحد أعلام حرب البيلوبونيز بين أثينا وأسبرطة.

(٢) مَدام دي ديفّان Marie de Deffand (١٦٩٦-١٧٨٠): كاتبةُ الرسائل الفرنسيّة وصاحبة أحد أشهر الصالونات في وقتِها. صديقة فولتير ودالمبير وغيرهما.

إلى أنْ نرَى الصياغةَ أرفعَ منزلةً من الروح التي تُسنِدُها، والسّلاسَةَ أرفَعَ منزلةً من البداهة. يُصبح الانفعالُ نفسُهُ مُؤَدَّبًا. الكائنُ المتروكُ لنفسهِ دُونَ تسليمٍ مُسبَق بأناقَتِه، هو غُولٌ لا يَعْثُرُ في نفسه إلاّ على مناطق مُعتمة يَطُوفُ فيها رُعبٌ وإنكارٌ وَشِيكان.

ليسَ مِنْ فعلٍ همَجيٍّ مثْلَ أن نَعْلَمَ عن طريق حيويّتِنا كُلِّها أنّنا مائتُون، دُونَ أن نستطيع إخفاء ذلك. إنّ من شأن كُلِّ فلسفةٍ **صادقة** أنْ تتبرّأَ من ألقابِ الحضارة، التي تتمثّل وظيفتُها في تَهْذيبِ أسرارنا وإلْباسِها زيَّ المظاهِر المرغوبِ فيها. الطيشُ أنْجَعُ ترياقٍ ضِدَّ ألَمِ أنْ نَكُونَ ما نَحنُ: عن طريقِهِ نخدع العالَم ونُوارِي سَوْءَةَ أعماقِنَا. كيف لا نستحِي من أنَّ لدينا رُوحًا لولا تلك الخِدَع؟ أيّ جحيم للآخرين تتجسّدُ في عزلاتنا المُرْهَفَة! وإن كنّا نبتكر مظاهِرَنا دائمًا من أجل الآخرين، وأحيانًا من أجلِنا.

الفَنَاءُ في الإله

-------------- الفكرُ الذي يَعْتَنِي بماهيّته المتميّزة عمّا حَوْلَها، مُهَدّدٌ في كلّ خطوة بالأشياء التي يتحاشاها. يتخلّى عنه الاحتراس، أكبر امتيازاته، فيقع في الغوايات التي أراد التهرُّبَ منها أو يصبح فريسة أسرار نجِسَة.

من منّا لم يجرّب ذلك الدوار، تلك المخاوف، تلك القشعريرات التي تدنو بنا من البهيمة ومن الأسئلة النهائيّة. تصطكّ رُكَبُنَا دون أن تنثني. تفتّش أيدينا بعضُها عن بعض دون أن تتلامس. تتطلّعُ عيوننا فلا تتبيّنُ شيئًا. نحافظ على تلك الكبرياء العموديّة التي تُثبّتُ شجاعتنا. نحافظُ على ذلك الاشمئزاز من الحركات الذي يَحْفَظُنَا من البرهنة على أيّ شيء. إضافةً إلى ما تُسْعِفُنا به الجُفونُ من وسائل لإخفاء نظراتٍ تثيرُ الضّحكَ من فَرْطِ كَوْنِها مستعصية على الوَصْف.

هوذا انزلاقُنا وشيكٌ لكنّه ليس حتْميًّا. حادثةٌ مثيرةٌ للفضول لكنّها ليست جديدة بالمَرّة. هي ذي ابتسامةٌ تَلُوحُ في أُفُقِ فزَعِنا. لكنّنا لن نُكِبَّ على الصلاة، لأنّ علينا في النهاية ألاّ نسمح لهذا الفزع بأن ينتصر. على سخريتنا أن تَحُطَّ من علويّته. على قلوبنا أن تُذَوِّبَ القشعريرات التي ما انفكّ يوزّعها.

لو قُيِّض لمثل هذا الكائن أن يوجَد حقًّا، ولو انتصرَ ضُعفُنا على عزْمِنا وانتصرت أعماقُنَا على اختباراتنا، إذَنْ فما الداعِي للاستمرار في التفكير، بما أنّ صعوباتِنا ستُذلّل وأسئلتَنا ستُرجَأ ومخاوفَنا ستسكُن؟ سيكون ذلك أسهلَ من أن يُصَدَّق. ليس من مُطلَقٍ، شخصيًّا كان أم مُجرَّدًا، إلاّ وهو طريقةٌ لإخفاء المشاكل، ولن يخفي المشاكل وحدَها بل جذورها أيضًا، التي لا تعدُو أن تكون شيئًا غيرَ هَلَعِ الحَواسّ.

الإله: سُقوطٌ مُتَعَامِدٌ على هَلَعِنا. خَلاصٌ يهْوِي كالصاعقة على مَساعِينا التي لا رجاءَ يخدعُها. إبطال صريحٌ لكبريائنا التي لا عزاءَ لها ولا رغبةَ لها في العزاء. تدَرُّجٌ بالفرد إلى سِكَّةِ تَخْزِين. عطالةٌ للروح بسببِ الافتقار إلى القلق...

هل ثمّةَ زُهْدٌ أكبر من الإيمان؟ الحقّ أنّنا في غياب الإيمان لا نلبث أن ننخرط فيما لا نهايةَ لهُ من الطُّرُق المسدودة. لكنْ لماذا نُضَحِّي بِمُتعةِ أنْ نتعثّرَ وأن نُحطّمَ رؤوسنا على الأرض والسماء، إذا كنّا نَعْلَمُ بأنْ لا شيء يفضي إلى أيّ شيء، وبأنّ الكون ليس سوى مُنْتَجٍ متفرّع عن حُزنِنا؟

إنّ الحُلولَ التي يقترحها علينا جُبْنُنا الموروث عن الأجداد هي أسوأ أنواع التهرُّب من واجب اللِّياقة الفكريّة. ينخدعُ البشر. يعيشون ويموتون مخدوعين، ذاك ما يقومون به حقًّا. إلاّ أنّ ثمّة كرامةً تحفظُنا من أن نفنى في الله، وتُحوّلُ كلَّ لحظاتنا إلى صلوات لن نقوم بها أبدًا.

تنويعات على الموت

---------------- ١ - نحنُ لا نُثابِرُ على الحياة إلاّ لأنّها لا تتأسّس على شيء، وتفتقر إلى أدنى حُجّة. الموتُ دَقِيقٌ

أكثر ممّا يجب. تقف الأسبابُ كُلُّها إلى جانبه. يصعُبُ على غرائزنا فهمُهُ لكنّه يرتسم أمام تفكُّرِنا جليًّا، دُونَ هالَةٍ، ودُونَ إغراءاتِ المجهول الكاذبة.

تُثيرُ فينا الحياةُ من الفزع أكثر ممّا يُثيرُه الموت، من فرط مُراكمتِها الأسرارَ الباطلة واحتكارِها اللاَّ معْنَى. إنّها هي المجهول الكبير.

إلى أين يمكن أن يُؤدّي كلُّ هذا الخواء وكلُّ هذا اللامفْهوم؟ نحن نتشبّث بالأيّام لأنّ الرغبةَ في الموت منطقيّةٌ أكثر من اللزوم، ومن ثمّ هي غير ناجعة. لو امتلكَت الحياةُ حُجّةً واحدةً لصالِحها، متميّزةً ولا جدالَ فيها، إذنْ لتبدّدت.

إنّ الغرائز والأحكام المسبقة تتلاشَى عند الاحتكاك بدقّة التحليل. كُلُّ ما يتنفّسُ يتغذّى بما لا يمكن التحقّقُ منه. أيُّ مَزِيدٍ من المنطق ستكون عاقبتُه وخيمةً على الكينونة، - جهدٌ في اتّجاهِ ما لا معنى له...

ما إن نمنحِ الحياةَ هدفًا مضبوطًا حتى تفقِدَ كلّ جاذبيّة. افتِقارُ غاياتِ الحياةِ إلى الدقّة يجعلها أرفع منزلةً من الموت. ذرّةٌ واحدةٌ من الدقّة تنحطّ بها إلى سُوقيّةِ القُبور. لأنّ من شأن أيّ معرفة إيجابيّة بمعنى الحياة أن تُخلي الأرض من سكّانها في يوم واحد،

ولن يكون في وسع أيّ مَسْعُور أن يُنعِشَ فيها ما تتضمّنُهُ الشهوَةُ من لا احتماليّةٍ وَلُود.

٢ - نستطيع تصنيف البشر وفقًا للمعايير الأكثرَ تَقَلُّبًا، حسب أمزجتهم وميولهم وأحلامهم أو غُدَدِهم. نحن نُغيّر أفكارَنَا كما نُغيّر ربطات العنق، لأنّنا نستقبلُ كُلَّ فكرةٍ وكُلَّ معيارٍ من الخارج، من تشَكُّلاتِ الزمن وأعراضِه.

لكنْ ثمّة شيءٌ يأتي من داخلنا. شيءٌ **يَكُونُ** نحن. حقيقةٌ غيرُ مرئيّةٍ لكِنْ يمكن التحقّقُ منها جوّانيًّا. حضورٌ غريبٌ ومألوف، نستطيع أن نتصوّرَهُ في كلّ لحظةٍ لكنّنا لا نجرؤُ على الاعتراف به البتّة. شيءٌ لاَ حَالِيَّةَ له إلاّ قَبْل استهلاكِه: إنّه الموت، المعيارُ الحقيقيّ...

هذا البُعْدُ الأعْمقُ لدى جميعِ الأحياء هو الذي يقسم البشريّة إلى فريقين، يتباينان ويتباعدان إلى أن تُصبح المسافةُ الفاصلةُ بينهما أكبر ممّا يفصلُ بين عُقابٍ وخُلْدٍ أو بين نَجْمٍ وبصقة.

تنفتحُ هُوَّةُ عالَمَيْن مُنْفَصِلينِ بين الإنسان الذي يشعر بالموت والإنسان الذي لا يشعر به. كِلاهُما إلى موتٍ، لكنّ أحدَهُما يجهل موتَه والآخَرُ يعرفُه. أحدُهما لا يموت إلاّ لِلَحظةٍ والآخَرُ لا ينفكُّ يَمُوت... شَرْطُهُما المشتَرَك يضعهما تحديدًا على طرفي

نقيض، على حَدَّيْ نفس التعريف وداخِلَهُ في آن، حيث لا يمكن التوفيقُ بينهما لكنّهما يخضعان لنفس القَدَر.

أحَدُهُمَا يعيش كأنّهُ أبَدِيٌّ، والآخَرُ يُفكّر في أبديّتِه باستمرار ويُنكرها في كلّ فكرة.

لا شيء يستطيع أن يُغيّر حياتَنا باستثناء ما يتغلغل فينا تدريجيًّا من قُوًى مُلْغِيةٍ لها. ليس من مبدأ جديدٍ يصِلُها، لاَ مِنْ ناحيَةِ مفاجآتِ نُمُوِّنا ولا من ناحيَةِ إِزْهارِ مواهبِنا. كُلُّ ذلك طبيعيٌّ بالنسبة إليها. وليس في وسع ما هو طبيعيٌّ أن يصنع منّا شيئًا مغايِرًا لأنفُسنا.

كلُّ ما يُنذِرُ بالموت يُضيفُ نوعًا من الجِدّةِ إلى حياتنا. يُحَوِّرُها وينفُخُ في صورَتِها. الصحّةُ تحافظ عليها كما هي، في هويّةٍ عقيمٍ. أمّا المرضُ فهو نشاطٌ. إنّه النشاطُ الأكثر حِدّةً الذي يستطيع الإنسانُ إظهارَه. حركةٌ جامِحَة ومُستقرّة. أكبرُ إهدارٍ للطاقة دُونَ فعل. انتظارٌ عِدائيٌّ ومتحمّسٌ لإشراقةٍ يتعذّرُ تدارُكُها.

٣ - سرعان ما يتّضِحُ أنْ لا نجاعةَ لحِيَلِ الأمل وحُججِ العقل ضدّ هاجسِ الموت.

لا عَمَلَ لتفاهة هذه الحِيَل والحُجَج إلاّ تهييج شَهِيَّتِنا إلى

الموت. ولا يوجد إلاّ «منهج» واحد للانتصار على هذه الشهيّة: أن نعيشها إلى آخر المطاف. أن نكابد كلّ مَلاَذِّها وغمراتِها. ألاّ نقوم بأيّ شيء للتهرّب منها. الهاجسُ الذي يُعاش حدَّ الإشباع يُلغي نفسَهُ في إفراطاته الخاصّة. إنّ الفكر الذي يطيل النظر في لاَتَناهِي الموت ينتهي إلى **إنهاكه**، وإقرافِنا منه. فيض سلبيّ لا يُبقي على شيء، ويكشف لنا عن بُطْلان الحياة قبل أن يُشوِّه سُمعةَ الموت ويحطّ من قَدْرِه.

إنّ من لم يُدْمِنْ مَلذّات القَلَق، ولم يستمتع فكريًّا بمخاطر انقراضِه الخاصّ، ولم يتذوّق إبادات قاسية ولذيذة، لن يشفَى أبدًا من هاجس الموت. سيظلّ فريسةً لتباريحه بما أنّه اختار مُقاوَمَتَه.

أمّا ذلك الذي تمرّس بمادّة الرعب وتحوَّلَ تلقائيًّا إلى رمادٍ، فيما هو يتأمّل في عُفونَتِهِ، فإنّه سينظر إلى **ماضي** الموت، - ولن يصبح هو نفسُه سوى **مبعوثٍ من بين الأموات لم يعد قادرًا على الحياة**. هكذا يكون «منهجه» قد شفاه من الحياة والموت على حدٍّ سواء.

ليس من تجربةٍ جوهريّة إلاّ وهي وخيمة العواقب. إنّ طبقات الكينونة تفتقر إلى السّماكة. ولا يلبث أركيولوجِيُّ القلب والكينونة أن يجد نفسه في نهاية حفريّاته أمام أعماقٍ خاوية. سيتحسّر عندئذٍ عبثًا على زينة المظاهر. هكذا نكتشف أنّ الأسرار القديمة، تلك

الكشوفات المزعومة عن معارفَ نهائيّة، لم تورثنا شيئًا يُنسب إلى المعرفة.

ليس من شكّ في أنّ العارفين بالأسرار[1] كانوا مُلزَمِينَ بألاّ ينقلوا لنا شيئًا منها. إلاّ أنّ من غير المعقول ألاَّ يظهر فيهم ثرثارٌ واحد. هل ثمّة ما هو مناقضٌ للطبيعة البشريّة أكثر من مثل هذا التعنُّت في الكتمان؟ هذا يعني أنّ **الأسرار** لم تُوجَدْ أصلاً. لم يكن ثمّة إلاّ شعائر ومخاوف. وما الذي كان في وسعهم أن يكتشفوا حين تُزاحُ الحُجُب سوى هُوِيٍّ بلا أهميّة؟ **ليس من تدريبٍ روحيٍّ إلاّ على العدم، وعلى سخافة أن يكون المرء حيًّا.**

وأحلُمُ بإلِفْسِينا[2] مخصّصة للقلوب العائدة من الضلال، وبسرٍّ خالص، من دون آلهة ومن دون سورات الوهم.

على هامش اللحظات

--------------- استحالةُ البكاء هي التي تُحافِظُ داخِلَنَا على شغفنا بالأشياء وتتيح لهذه الأشياء أن تظلّ موجودة.

---

(١) هكذا اخترنا ترجمة عبارة les initiés.

(٢) إلِفْسِينَا Eleusis: مدينة قرب أثينا، يُرَجَّح أنّها مسقط رأس أخيل. أقيم فيها «معبد الأسرار» المرتبط بأسطورة الانبعاث بعد الموت.

هي التي تمنعُنا من استنفادِ مَذاقِ الأشياء والعُزوفِ عنها. إذا كانت عيونُنا ترفض أن تَغْرَقَ في نفسها وهي تجوبُ كلّ تلك الطرق والضِفاف، فلأنّها تَصونُ بِجَفافِها موضوعَ إعجابِها. تُبذِّرُ دموعُنا الطبيعةَ كما تُبَذِّرُ انخطافاتُنا الإله. لكنّها في نهايةِ المطاف تُبَذِّرُنا نحن. لأنّنا لا نكون إلاّ بفضل رَفْضِنا إطلاقَ العنَانِ لشهواتنا القصوى. الأشياء التي تدخل دائرةَ إعجابِنا أو حزنِنا لا تمكث هناك إلاّ لأنّنا لم نُضَحِّ بها ولم نباركها بوَداعاتِنا السائلة.

... وهكذا نقف بعد كلّ ليلةٍ في مُواجهةِ نهارٍ جديد، وقد طوّح بنا الرعبُ من حتْميّةِ إشباعِهِ واستحالتِها، وخُيِّل إلينا أنّ العالَمَ قد تململ منذ قليلٍ وابتَكرَ كوكَبَهُ للتوّ، فإذا نحن وقد تغرَّبْنَا في النُّور، نهربُ من الدموع، التي تكفي واحدةٌ منها لإقصائنا من الزمن.

تفكيكُ الزمن

------------ تتوالى اللحظاتُ الواحدة تلو الأُخرَى، دون أن يَنسِبَ إليها شيءٌ وَهْمًا بمضمون أو مَظهَرًا لدلالة. تنساب... إلاّ أنّ مَجْرَاها ليس مَجْرَانا. نتأمّل في تدفّقها سجناءَ تصوُّرٍ غبيّ. إنّه خواء القلب أمام خواء الزمن: مرآتان وجهًا لوجه ينعكسُ فيهما غيابُهما. صورة البُطْلان نفسها... وكما

يحدث بتأثير غباوةٍ حالِمة، فإنّ الكلّ يتساوى. لا قِمَمَ بعدُ ولا هُوِيّ. . . أين يمكننا أن نعثر على أكاذيب شعريّة أو على لغزٍ مُحفِّز؟

إنّ من شأنِ مَنْ لاَ يعرفُ السأمَ أَلاَّ يغادرَ طُفولة العالَم، حيث تنتظرُ العُصورُ أن تُولَد. فهو يظلّ مُستعصيًا على هذا الزمن المُتعَب الذي يموتُ ليعيش بعدَ موته ساخرًا من أبعاده، منهارًا على عتبةِ مستقبله الخاصّ، جارًّا معه المادّة وقد رُفِعت فجأةً إلى مستوى غنائيّةِ الإنكار.

السأمُ هو صدى الزمن الذي يتمزَّق في داخلنا. إنّه افتضاحُ الفراغ ونُضوبُ الهذيان الذي يسند الحياة أو يبتكرها. . .

الإنسانُ خالقُ قِيَم، وهو من ثمّ الكائنُ الهاذي بامتياز، فريسة الاعتقادِ بوُجودِ شيءٍ مَا. في حين يكفيه أن يحبسَ أنفاسَه كي يتوقّف كلّ شيء، أن يُعَطِّلَ انفعالاتِه كي يكفّ كلّ شيء عن الارتعاش، أن يقمع أهواءه كي يُصبح كلّ شيءٍ باهِتًا.

إنّ الواقِعَ من خَلْقِ شَطَطِنا وطُموحنا المفرط واختلالاتنا. وإنّ من شأن كلِّ رادعٍ لاختِلاجَاتِنا أن يجعل إيقاع العالم يتباطأ. من دونِ فَوْراتِنا يصبح الفضاءُ من جليد. الزمنُ نفسُهُ لا ينساب إلاّ لأنّ شهواتنا تنجب هذا الكون الزخرفيّ الذي يمكن لأقلِّ قَدْرٍ من وضوح الرؤيةِ أن يُعرِّيه.

إنّ في وسع ذرّةٍ من البصيرة أن تعود بنا إلى شرْطنا الأصليّ: العُرْي. كما أنّ في وسع قليلٍ من السخرية أن يخلَعَ عنّا ذلك الزيّ الغريب من أنواع الرجاء التي تسمح لنا بأن نخطئ وأن نتخيّل الوهم. كُلّ مسارٍ معاكسٍ يُؤدّي إلى خارج الحياة. وليس السأم إلاّ بداية هذا المسار...

السأمُ يُشعرنا بأنّ الزمن أطول ممّا يجب وأعجزُ من أن يكشف لنا عن نهاية. ننفصل عن كلّ شيء ولا يتبقّى لدينا ما نتمثّلُه من الخارج، فندمّر أنفسنا ببطء، بما أنّ المستقبلَ كَفَّ عن مَنْحِنَا أيَّ مُبرّرٍ للوجود.

الأبديّةُ التي يكشف لنا عنها السأمُ ليست تجاوُزًا للزمن بل هي خرابه. السأمُ هو سَرْمَدُ الأرواح التي تعفّنت بسبب افتقارها للخرافات: مُطلَقٌ مُسَطّحٌ لا شيء فيه يمنع الأشياء من الدوران في حلقة مفرغة، بحثًا عن سقوطها الخاصّ. الحياةُ تُخلَقُ في الهذيان وتُنْقَضُ في السأم.

(ليس لمن يتألّم بسببِ مرضٍ موصوفٍ الحقُّ في الشكوى. إنّ لديه ما يشغله. المتألّمون الكبار لا يعرفون السأم أبدًا. يُشْبِعُهم المرض كما يغذّي وخزُ الضميرِ المُذنِبين. لأنّ من شأن كلّ ألمٍ حادٍّ أن يبعث في النفس سكينةً زائفة وأن يقترح على الوعي حقيقة رهيبة لا يمكنه دحضُها. أمّا الألم الذي لا مادّة له في هذا الحداد

الزمنيّ الذي يتمثّلُ في السأم، فإنّه لا يواجِهُ الوعيَ بأيّ شيء يضطرّه إلى مسعًى مُثْمِر.

كيف نشفى من مرضٍ شديد الغموض ولا يُعرَف موقعه، يُصيب الجسد دون أن يترك أثرًا ويتغلغل في الروح دون أن يُسجّل علامة؟ إنّه شبيهٌ بمرضٍ نَجَوْنَا منهُ لكنّهُ استنفدَ كلّ إمكاناتنا، كلّ مدّخراتنا من **التنبُّه**، وتركَنا عاجزِين عن مَلْءِ الفراغ الذي يَلِي اختفاءَ أوجاعِنا ويتْبع تبخُّرَ عذاباتنا.

الجحيمُ ملاذٌ بالقياس إلى هذه الغربة في الزمن، هذا الخَدَر الخاوي والخانع حيث لا يستوقفنا شيء إلاّ مشهد الكون وهو يتسوّس تحت نظراتنا. أيّ طريقة للعلاج يمكننا اتّباعها ضدّ مرضٍ لم نعد نتذكّره، بينما ظلّت تبعاته تتعدَّى على أيّامنا؟ كيف نخترع دواءً للكينونة؟ كيف نضع حدًّا لهذا التعافي الذي لا حدّ له؟ وكيف نُشفى من ولادته؟ السأم، هذه النقاهة التي **لا شفاء منها**...)

اللاجَدْوَى الرائعة

------------ تبدو العُقولُ كلُّها مُلْزَمَةً بأداءِ مهمَّةٍ بَلَدِيّة، باستثناء عُقول الشكوكيّين اليونان وأباطرةِ عصرِ الانحطاط الرومان. أولئك هم الوَحِيدُون الذين تحرّرُوا، بعضُهم عن طريق الشكّ والآخرون عن طريق الخَبَل، من ذلك الهوس التافه بأن يكونوا ذوِي جَدْوَى. لقد باتُوا غير مُبالين بشيءٍ بعد أن ارتقوا

بالاعتباطيّ إلى مستوى المِرَاس أو الدوار، وفْقًا لكونهم فلاسفةً أو خائبي أملٍ نَسَلُوا عن الفاتحين القدامى.

هم من هذه الناحية يذكّروننا بالقدّيسين. لكنّ القدّيسين لا ينهارُون أبدًا أمّا هؤلاء فكانوا تحت رحمةِ لُعبتِهم نفسِها، سادةَ نزواتهم وضحاياها. إنّهم مُنْعَزِلُونَ حقيقِيُّون بما أنَّ عُزْلَتَهُم كانت عقيمًا، لم يتّخذها أحدٌ قدوةً ولم يقترحُوها هم على أحدٍ. من ثمّ لم يتواصلوا مع «أشباههم» إلاّ عن طريق السخرية والرعب...

هل يُمكِنُ أن نتخيّلَ زَهْوًا أكثر حُزْنًا ومهابَةً من زَهْوِ أحدِنَا بأن يكون عامِلَ انحلالِ فلسفةٍ أو إمبراطوريّة؟

قتْلُ الحقيقةِ من جهةٍ وقتْلُ الأُبَّهَةِ من الجهة الأُخرَى، وهُما الهَوَسانِ اللذانِ يعيش بهما الفكرُ والمدينة. تقويضُ بنْيةِ الخِدَع التي تعتمد عليها كبرياءُ المفكّر والمواطن. تليينُ دوافع الابتهاج بالتصوُّرِ والإرادة حَدَّ تزييف تلك الدوافع. تشويهُ سمعةِ المُجَرَّدات التقليديّة والأعراف المُحترَمة عن طريقِ مَكْرِ التهكُّم والتعذيب. يَا لَهُ مِنْ غَلَيانٍ مُرهَفٍ ومُتوحِّش!

لا فتنةَ لأيِّ مكانٍ لا تَمُوتُ فيه الآلهةُ أمامَ أَعْيُنِنا. كم كان استحضارُ الأشباحِ مُمْتِعًا في روما حيث كانت الآلهة تُستَبْدَلُ

وتُستورد وتُشاهَدُ وهي تذْوِي، ولاَ خوفَ مع ذلك إلاّ من أن يستسلم هذا التقلّبُ الرائعُ أمام هجمةٍ بعض الألوهيّات الصارمة والدنسة. . . وذاكَ ما حدث.

ليس من اليسير تهديمُ صَنَم. هذا يتطلّب من الوقت ما يتطلّبه الترويج لذلك الصنم وعبادته. إذ لا يكفي أن نمحَقَ رمزَه الماديّ وهو أمرٌ سهل، بل لابدّ من مَحْقِ جذوره في الروح. كيف يستطيع المرءُ تحويل نظراته ناحيةَ العُصورِ الغَسَقِيّة، حيث يُصَفَّى الماضي على مرأى أعيُنٍ لا يبهرها إلاّ الخواء، دون أن يرقّ قلبُهُ لذلك الفنّ الكبير الذي يتمثّلُ في مَوْتِ حضارة؟

. . . وهكذا أحلم بأنّي كنتُ واحدًا من أولئك العبيد. جئتُ من بلاد مجهولةٍ حزينةٍ وهمجيّة لأبثَّ في رُوما وهي تحتضرُ، خرابًا غامضًا مُحَلًّى بسفسطاتٍ يونانيّة. فوجدتُ طريقي إلى نسيانِ أسلافي وقيودي وحسراتي في العيون الذاهلة للتماثيل النصفيّة، وفي الأصنام الخائرة بفعل خرافاتٍ مُثْبِطة. واستطعتُ وقد اعتنقتُ كآبةَ الرموز القديمة، أن أتحرّر، وأن أقاسم الآلهة المهجورةَ كرامتَها، مُدافعًا عنها ضدّ الصلبان الماكِرة وضدّ غزو الخدَمِ والشهداء، تاركًا لِلَيالِيَّ أن تبحث عن راحتها في خَبَل القياصرة واستهتارهم. ثمّ إذا أنا خبيرٌ في التحرُّر من الأوهام، أُطلِقُ على الحماسات الجديدة سِهامَ الحكمة المنحلّة، بالقرب من المحظيّات، في المواخير الشَكّاكة أو في حلبات السيرك ذات

الوحشيّة الباذخة، شاحنًا تفكيري بالرذيلة والدم، كي أمدّد المنطق إلى أبعاد لم يحلم بها قَطّ، إلى أبعاد العوالِم التي تموت.

تفسيرُ الانحطاط

--------------- وُلِدَ كُلٌّ مِنَّا ومعه جرعةٌ من الطّهارة، مُقَدَّرٌ لها أن تفسدَ بسبب التعامُل مع البشر، بسبب تلك الخطيئة ضدّ العزلة. لأنّ كلاًّ منّا يفعل المستحيل كي لا يظلّ مُكَرَّسًا لنفسِه. الشبيهُ ليس قدرًا بل هو غوايةٌ بالانحطاط.

نعجز عن المحافظة على نظافة أيدينا وطهارَة قلوبنا، فنتدنّسُ عن طريق الاحتكاك بالعَرَق الغريب، ونتمرّغ في الوَحْل الإجماعِيِّ، ظمآنين للقرف مولعين بالعفونة.

وحين نحلم بالبحارِ المُحَوَّلةِ إلى ماء مُقدَّس، يكون الوقتُ قد تأخّر أكثر ممّا يسمح لنا بخوض غمار تلك البحار، ويكون فسادُنا قد تعمّقَ حتى بات يمنعنا من الغرق فيها. لقد اجتاح العالَمُ عُزْلَتَنا، وأصبحت علاماتُ الآخرِين فينا غيرَ قابلةٍ للمحْو.

على صعيد المخلوقات، وحدَهُ الإنسانُ يبعثُ على تقزُّزٍ متواصلٍ. النفورُ الذي نشعرُ به تجاهَ بهيمةٍ إحساسٌ عابر لا ينضج

إطلاقًا داخل الفكرة. أمّا أشباهُنا فإنّهم يستحوذون على أفكارنا، مُتسلّلين إلى ميكانيزماتِ لاَ مُبالاتِنا بالعالَم، كي يؤيّدُونا في نظامِ رَفْضِنا وعدَمِ انخراطِنا. لماذا يستحيل علينا ألاّ نتحسّر على الصحراء، وألاّ نحسد النباتات أو نشتهي المونولوغات اللانهائيّةِ لعلم الحيوان، بعد كلّ مُحادثةٍ نجد في رهافتها ما يشير لوحدِه إلى الدَّرَكِ الذي بَلَغَتْهُ حضارةٌ مَا؟

إذا كنّا ننتصرُ على العدَم بِكُلّ كلمةٍ فما ذلك إلاّ لنخضعَ لهيمنةِ العدَم بشكلٍ أفضل. نحن نموتُ على قَدْرِ ما نُلقِي حولَنا من كلمات... لا أسرارَ لأولئك الذين يتكلّمون. ونحن نتكلّمُ جميعًا. نفْضَحُ أنفُسَنا. نُعَرِّي قُلوبَنا. يكبُّ كُلٌّ منّا، وكأنّه جَلاّدُ ما لا يُعَبّرُ عنه، على تدمير كلّ الألغاز بدايةً من ألغازه هو. وإذا التقينا الآخرينَ فلِنَنْحَطَّ معًا في سباقٍ ناحيةَ الفراغ، سواءٌ تعلّق الأمر بتبادل الأفكار والاعترافات أو الدسائس.

ليس الفضولُ سببَ السقطة الأولى فحسب بل هو سببُ ما لا يحصى من سقطاتِ كلّ الأيّام. ليست الحياةُ إلاّ تلك اللهفة على الانحطاط، تلك اللهفة على الفجور بالعزلات العُذْرِيّة للروح عن طريق الحوار، ذلك الإنكارُ الغابرُ واليوميُّ للفردوس. يحسن بالإنسان ألاّ ينصت إلاّ إلى نفسه في تلك النشوة اللانهائيّة للكلمة التي لا يمكن نقْلُها، وأن ينحت كلماتٍ لِصَمْتِه الخاصّ ومطابقاتٍ لا تسمعها إلاّ حسراتُه وحدَها. لكنّه ثرثارُ الكون. يتكلّم باسم

الآخرين. أناهُ تحبّ صيغة الجمع. وكلّ من يتكلّم باسم الآخرين هو دجّالٌ على الدوام. الساسةُ والمصلحون وكلّ من يتذرّع بذريعة جماعيّةٍ جميعُهم غشّاشون. الفنّانُ هو الوحيد المُستَثْنَى من الكذبِ الشامل لأنّه لا يخترع إلاَّ ذاتَه.

لولاَ الاستسلامُ لِمَا لا يمكن إبلاغُه ولولا تعليقُ كلّ حركةٍ وسط انفعالاتنا المكروبة والصامتة، لَما كانت الحياةُ سوى فرقعةٍ على مساحةٍ بلا إحداثيّات، ولَما كان الكونُ سوى هندسةٍ مُصابةٍ بالصَّرَع.

(إنّ الدالّ الضمنيّ على الجمع في قولنا «البعض»[1] والدالّ الصريح على الجمع في قولنا «نحنُ» يمثّلان الملاذَ المُرَفَّهَ للكينونة الزائفة. وحدَهُ الشاعر يتحمّل مسؤولية «الأنا». وحدَهُ يتكلّم باسمِه ووحدَهُ يملك الحقَّ في ذلك.

يفسدُ الشعر حين يسمح للنبوءةِ والعقيدةِ باختراقه: «الرسالةُ» تخنق الغناء والفكرةُ تعوق الطيران. كان الجانبُ «السخيّ» في شيلي[2] سببًا في إبطال الجزء الأكبر من نتاجه. شيكسبير من حسن الحظّ لم يكن «في خدمةِ» شيء.

---

(١) هكذا اخترنا ترجمة "on".

(٢) شيلي P.B. Shelley (١٧٩٢-١٨٢٢): الشاعر الإنكليزيّ الرومنطيقيّ المؤثّر. من أعماله: «أغنية للريح الغربيّة»، و«بروميثيوس طليقًا».

إنّ انتصار اللّا أصالة يتحقّق في النشاط الفلسفيّ باعتبارهِ رِضًا عن النفس في «البعض»، كما يتحقّق في النشاط الدّعَوِيّ (الدينيّ والأخلاقيّ أو السياسيّ) باعتبارِهِ ذروةَ «النحن». **التعريف** هو أكذوبةُ الفكر المُجرَّد. أمّا **الصيغةُ المُلْهَمَة** فهي أكذوبةُ الفكر المناضل: يُوجَدُ تعريفٌ في أساس كُلِّ مَعْبَدٍ، ولا مفرَّ من صِيغةٍ تجلبُ إليه المؤمنين. هكذا يبدأ كلُّ تعليم.

كيف لا نلتفتُ عندئذ ناحيةَ الشعر؟ عُذرُ الشعر، شأنُهُ في ذلك شأن الحياة، أنّه لا يُثبِتُ شيئًا.)

حِلْفٌ ضِدَّ الموت

----------------- كيف لأحدِنا أن يتخيّل حياةَ الآخرين إذا كانت حياتُه بالكادِ قابِلةً للتصوُّر؟ نلتقِي كائنًا فنراهُ منغمِسًا في عالَمٍ مستغلِقٍ لاَ مبرّرَ له، في كدْسٍ من القناعات والرغبات التي تتراكم على الواقع مثل مَبنًى متهالك. ثمّ نَراهُ وقد نَحَتَ لنفسِهِ منظومةً من الأخطاء، يتعذّبُ لأسباب يُرعِبُ بُطلانُها الفكرَ، ويُكرّسُ نفْسَهُ لقِيمٍ سُخفُها واضحٌ للعيان. هل يمكن لمساعيه أن تبدو إلاّ تُرّهاتٍ وهل يكون لتناظُرِ همُومِهِ المضطربِ أساسٌ أكثَر ممّا لعمارةٍ من الهُراء؟ يكتشفُ الملاحِظُ الخارجيُّ أنّ مُطلَقَ كلِّ حياةٍ قابلٌ للتبادُل، وأنّ مصيرَ كُلٍّ منّا اعتباطيٌّ على الرغم من

كونِهِ غيرَ قابلٍ للعَزْلِ في جوهرِه. تبدو لنا قَناعاتُنا ثِمارَ خبَلٍ أرعن، فكيف يسعنا تحمُّلُ شغَفِ الآخرينَ بأنفُسهم وبتكاثُرِهم في يوطوبيا كلّ يوم؟ ما الذي يضطرّ هذا إلى أن يحبس نفسَه في عالَمٍ خاصٍّ مُفضّل، وما الذي يضطرّ الآخرَ إلى أن يحبس نفسه في عالَمٍ آخر؟

نُبْتَلَى ببَوْحِ صديقٍ أو غريبٍ فيُذهِلُنا اكتشافُ أسرارِهِ. هل ننسبُ تبارِيحَهُ إلى المأساة أم إلى المسخرة؟ يتوقّف الأمرُ في كلّ الأحوال على حفاوةِ تعَبِنَا أو سُخْطِه. ليس من مصيرٍ إلاّ وهو النغمةُ ذاتُها تختلج حول بضع لطخات من الدم، لذلك فإنّ على أمزجتنا أن ترى في ترتيب آلامِهَا منظومةً كماليّةً ومسلّيَةً، أو تعلّةً للشفقة.

ولمّا كان من الصعب أن نوافق على الأسباب التي يتذرّع بها البشرُ كلّما افترقنا عن أحدهم، فإنّ السؤال الذي يخامرنا يظلّ واحدًا لا يتغيّر: لماذا لا يقتل ذلك البشرُ نفسَه؟ فليس من أمرٍ طبيعيٍّ أكثر من أن نتخيّل انتحارَ الآخرين. إذا كنّا نحنُ قد أدركْنا لاَ جَدْوَانَا الخاصّة، عن طريق حدسٍ مُؤثّرٍ وقابلٍ بيُسْرٍ للتجدّد، فإنّ من غير المفهوم ألاّ يفعلَ أيٌّ كانَ الشيءَ نفسه. هكذا يبدو قتْلُ النفس فعلاً فائِقَ الوُضوح والبساطة. فلماذا هو بهذه الندرة ولماذا يتهرّب منه الجميع؟

الحقُّ أنّه إذا كان العقلُ يُنكِرُ شَهْوةَ العيش، فإنّ **اللا شيء** الذي يمتدُّ بالأفعال يمتلك مع ذلك قوّةً تتفوّق على كلّ أنواع المُطلَق. إنّه يفسّر الحِلْفَ الضمنيّ الذي يعقده الفَانُونَ ضدَّ الموت. وهو ليس رمزَ الكينونة فحسب بل هو الكينونةُ نفسُها. إنّه **الكلّ**. وهذا اللا شيء، هذا الكلّ، لا يستطيع أن يمنح الحياة معنًى، لكنّه يجعلها تواظب على ما هي عليه: **حالة عدم انتحار**.

عُلْوِيَّةُ الصِّفة

---------------- لَمَّا كان عددُ المواقع محدودًا بالضرورة أمام الأسئلة القُصوى، فقد كَفَّ الفكرُ عن التوسُّع بسبب ذلك الحدّ الطبيعيّ المتمثّل في **الجوهريّ**، بسبب تلك الاستحالة التي تمنع مُضاعفةَ الصعوبات الأساسيّة إلى ما لا نهاية. يقتصرُ عمَلُ التاريخ على تغيير وجهِ عددٍ من المسائل والحلول. أمّا الفكر فهو يبتكر سلسلةً من الصفاتِ الجديدة. إنّه يعيد تسمية العناصر أو يبحث في معاجمه عن نعوتٍ للألم الدائم نفسِهِ، تكونُ أقلّ بِلًى. لقد تعذّبنا على الدوام. لكنّ عذابَنا كان إمّا «رائعًا» وإمّا «عادلاً» أو «عبثيًّا»، وفْق النظرة الإجماليّة التي كانت اللحظةُ الفلسفيّةُ تتعهّدُها. يُمَثِّلُ الشقاءُ قوامَ كُلِّ ما يتنفّسُ. لكنّ طرائقه تطوّرت، مُشَكِّلةً تلك السلسلةَ من المظاهر غير القابلة للاختزال التي تدفع كلّ كائن إلى الاعتقاد بأنّه أوّلُ من يتعذّب على ذلك النحو. يدفعه

الزّهْوُ بهذا التفرُّد إلى الولع بمُصابِهِ الخاصّ ويحثُّهُ على مُكابدته. إنّ من طبيعةِ كلِّ ألمٍ في عالمٍ من الآلام، أن يكون أنَاوِيًّا[1] بالنسبة إلى الآلام الأخرى كلّها. ليست أصالةُ الشقاء سوى نتاج الصفة اللفظيّة التي تعزله في مجموع الكلمات والأحاسيس. . .

تتغيّر الصفات. يُسَمَّى هذا التغييرُ تَقَدُّمَ الفكر. ألْغُوهَا كُلَّها: ما الذي يتبقّى من الحضارة؟ يكمن الفرق بين الذكاء والحماقة في استعمال النعت، الذي ينشأ ابتذالُه عن استخدامه دون تنوُّعٍ. الله نفسُه لا يعيش إلاّ بفضل الصفات التي نلحقها به. تلك علّةُ وُجود اللاهُوت. هكذا يستمرّ الإنسان في إطلاق صفاتٍ مختلفة على رتابة شقائه، فلا يجد مبرّرًا لهُ أمام الفكر إلاّ عن طريق السعي المحموم وراء نعت جديد.

(بَيْدَ أنّ هذا المسعى مُثيرٌ للشفقة. يتجلّى بْؤسُ **العبارة** الذي هو بُؤسُ الفكر في فقْرِ الكلمات، في إنهاكها وتَرَدِّيهَا. ها هي الصفات المميّزة التي نحدّد بها الأشياء والأحاسيس ترقدُ أخيرًا أمامنا مثل جِيَفٍ لفظيّة. بينما نحن نوجّه نظرات مترعة بالحسرة ناحية أزمنة لم تكن تنبعث فيها من تلك الكلمات إلاّ رائحة الهواء

---

(١) أناويٌّ: هكذا فضّلنا تعريب عبارة solipsiste، نسبة إلى solipsisme، المذهب الفسفيّ الذي يقول بوحدة الذات. وللعبارة أكثر من صيغة عربيّة (الأنانة، الذاتويّة، إلخ.)

الحبيس. ليس من نزوع إسكندرانيّ[١] إلاّ وهو ناجم في البداية عن رغبةٍ في تهوئة الكلمات وفي استبدالِ ذُبولِها برهافةٍ متيقّظة، إلاّ أنّه سرعان ما يَؤُولُ إلى قُنوطٍ يمتزج فيه الفكر باللفظ ويتفسّخان. [المرحلة النهائيّة المُثْلَى لكلّ أدبٍ وكُلِّ حضارة: لنتخيّل فاليري[٢] بروح نيرون[٣]. . .]

ما دامت حواسُّنا الغضّة وقلوبُنا الساذجة تجدُ نفسَها ومُتعتَها في عالم الصفات، فإنّها تزدهر على هوى النعت. النعت الذي ما إن يُشَرَّحَ حتّى يبدو قاصرًا وغيْرَ صالح. نتحدّث عن المكان والزمان والعذاب فنقول إنّها لاَ نِهائيّة. إلاّ أنّ عبارة **لا نهائيّ** لا تملك من الدلالة أكثر ممّا تملك عباراتٌ مثل: جميل، رائع، متناغم، قبيح. . . هل نرغبُ في إلزامِ أنفُسِنا بِسَبْرِ غَوْر الكلمات؟ لن نرى فيها شيئًا بما أنّ كلاًّ منها قد بات خاويًا لاغيًا، حتّى انفصل عن الروح المنفتحة الخصبة. يمارس الذكاء سُلطتَهُ من خلال تَلْميعِ الكلمات، من خلال صَقْلِها وجَعْلِها ساطعة. تُرفَعُ

---

(١) إسكندرانيّ، نسبةً إلى الإسكندرانيّة alexandrinisme: نزعة التجديد الأدبيّ التي شملت الحواضر الهلنستيّة بين موت الإسكندر الأكبر (حوالي القرن الثالث ق.م) والغزو الرومانيّ (القرن الثالث للميلاد).

(٢) بول فاليري Paul Valéry (١٨٧١-١٩٤٥): الكاتب والشاعر الفرنسيّ. صديق أندريه جيد ومالارميه.

(٣) نيرون: إمبراطور روما الخامس والأخير. إليه يُنسبُ حريقها الشهير. ويُقال إنّه كان يستمتع بمشهد النيران متغنّيًا بأشعار هوميروس

هذه السلطةُ إلى مرتبةِ المنظومة فتُسمّى **ثقافة**: ألعاب ناريّة على خلفيّةٍ من العدم.)

الشيطانُ مُطْمَئِنًّا

---------------- لماذا يبدو الإله بهذه الدرجة من الكمد والوهن والطرافة المتواضعة؟ لماذا يفتقر إلى الأهميّة والحيويّة والراهنيّة، ولا يشبهنا إلاّ قليلاً؟ هل ثمّة صورةٌ أقلّ تشبيهيّةً وأكثر مَجانِيّةً في بُعدِها عن الحقيقة من هذه؟ كيف أمكننا أن نبُثَّ فيهِ أشعّةً باهتةً إلى هذا الحدّ وقُوًى خائرةً إلى هذه الدرجة؟ أين تسرَّبَت طاقاتُنا؟ أين انصبّت شهواتنا؟ ومن الذي ابتلع إذنْ فائض وقاحتنا الحيويّة؟

هل نولي الوجه ناحيةَ الشيطان؟ لكنّنا لن نعرف كيف نوجّه إليه صلواتنا. أن نعبد الشيطان يعني أن نُصليّ استبطانيًّا. أن نُصلّيَ **إلينا**. لا يُصَلَّى إلى البداهَة. ليس **الصَّحِيحُ** موضوعَ عِبادة. لقد وضَعْنَا كُلَّ صِفاتِنا في قَرِينِنَا، ثمّ كسوناهُ بالأسود تعزيزًا له بما يشبه الجلال: هي ذي حَيَوَاتُنا وفضائلُنا في حِداد. كنّا نتفانى في سبيل جعلِهِ حيًّا قَدْرَ المستطاع حين زَوَّدناهُ بالشرّ والعناد وهُما صِفَتَانَا الغالِبَتَان. استَنْفَدْنَا كُلَّ قُوانَا في صِياغةِ صُورَتِه، وفي جعْلِهِ مرِنًا، قُلَّبًا، ذكيًّا، ساخرًا، ودَنِيئًا تحديدًا. نفدت مدّخراتُ الطاقة التي

كانت في حوزتنا لصياغة الإله. فلم نجد مناصًا من اللجوء إلى الخيال وإلى ما تبقّى لدينا من دَمٍ قليل. لم يكن في وسع الإله إلاّ أن يكون ثمرة فقر الدم لدينا: صورة مُهتَزَّة كسحاء. إنّه لَطِيفٌ خَيِّرٌ مُتسامٍ عادل. لكِنْ مَنْ تُراهُ يتعرّفُ على نفسِه في هذا المزيج العَبِق برائحة ماء الورد، المُنَزَّلِ في التّعالِي؟ كُلُّ كائنٍ بِلاَ نفاقٍ هو كائنٌ بلا عمق ولا خافِية. وحدَها الدناسة علامةٌ على الواقع. وإذَا كان القِدّيسُون لمْ يَخْلُوا تمامًا من كُلِّ أهميّة، فلأنّ تَسامِيَهُمْ يختلطُ بالرواية ولأنّ أبديّتَهم تسمحُ بالبيوغرافيا. إنّ في **حيواتهم** ما يدلّ على أنّهم غادروا العالم إلى **جنسٍ** قادرٍ على أسْرِنا بين الحين والآخر...

ليس للشيطان هيكل لأنّه مُتْرَعٌ بالحياة. يتعرّفُ الإنسان فيه على نفسه أكثر ممّا يسمح له بعبادته. يبْغَضُه عن دراية. يتخلّى عن نفسِه ويعتني بصفات الإله الهزيلة. لكنّ الشيطان لا يتذمّر من ذلك ولا يصبو بالمرّة إلى تأسيس ديانة: أَلَسْنَا هُنا لنُؤَمِّنَهُ من التجويعِ والنسيان؟

جولةٌ على مُحيط الدّائرة

-------------- داخِلَ الدائرة التي تحبسُ الكائنات في وحدةٍ من المصالح والآمال، يأخذُ الفكرُ، عَدُوُّ الأوهام، في

شقِّ طريقِه انطلاقًا من المركز متّجهًا إلى المحيط. يفقد القدرة على الاستماع عن كثَبٍ إلى عجيجِ البشر، ويرغب في النظر من أبعدِ مسافةٍ ممكنةٍ إلى التناسُبِ اللعين الذي يصلُ بينهم، فيرى شُهَداءَ في كلّ مكان: بعضُهم يُضحّي بنفسِه لحاجاتٍ مرئيّة، وبعضُهم لضروراتٍ خارج السيطَرة، وجميعُهم على استعداد لدفن أسمائهم في يقينٍ مَا. ولمّا لم يكن ذلك متاحًا للجميع، فإنّ أغلبهم لا يجد وسيلةً غير الابتذالِ للتكفير عن فائض الدم الذي حَلُمَ بهِ. لقد صُنِعت حيواتُهُم من حُريّةٍ هائلةٍ في الموت لم يُحسِنوا الإفادةَ منها، فابتلَعَهُم القبرُ الجماعيّ، محرقةُ التاريخ الباردة.

أمّا المولَعُ بالفصل بين الأشياء، الباحثُ عن دروبٍ لا تنتابُها الحشود، فإنّه ينسحبُ في اتّجاه الهامش الأقصى ويتحرّكُ على خطِّ الدائرة، الذي لا يمكنه اجتيازه ما دام خاضعًا للجسد. بَيْدَ أنّ الوعيَ يُحوّمُ عن بعْدٍ، نقيًّا تمامًا، في سأمٍ بلا كائنات ولا أشياء. لقد كفّ عن الإحساس بالعذاب، وتَفَوّقَ على الذرائع التي تدعو إلى الموت، فنسي **الإنسانَ** الذي يتحمّله. هو ذا وهميٌّ أكثر من نجم شُوهِدَ ذاتَ تهلُّسٍ، يوحي بشرْطِ دوَرانٍ نَجْمِيّ، - بينما على محيطِ دائرةِ الحياة، تتجوّلُ الروحُ دون أن تلتقِيَ أحدًا إلاّ ذاتَها، وعَجْزَها عن تلبية نداء الفراغ.

---------------- إلى أين كان ينتهي الأمرُ لو تمّ تمديد ظهائر أيّام الأحد لمدّة أشهر، وقد تحرّرت البشريّةُ من العَرَق وتخلّصت من عِبء اللعنة الأولى؟ تستحقُّ التجربةُ العناء. الأرجح أنّ الجريمة ستصبح التسلية الوحيدة. أنّ الفجور سيبدو طهارةً والعواء غناءً والاستهزاء حنانًا. الإحساسُ بشساعة الزمن سيجعل من كلّ ثانيةٍ عذابًا لا يُطاق وإطارًا مُناسبًا للإعدام. داخل القُلوب المشبعة بالشعر ستستقرّ كانيباليّةٌ غير مبالية وحزنُ ضِباع. سينقرض الجزّارون والجلاّدون بسبب الخمول. ستنفجر الكنائس والمواخير بفعل الزفرات. **الكون وقد حُوِّلَ إلى ظهيرةِ يومِ أحد**... ذاك هو تعريف السأم - ونهاية الكون... أزِيحُوا اللعنة المُخَيِّمةَ على التاريخ، يبطل التاريخ فورًا، شأنه في ذلك شأن الكينونة التي تكشف عن خرافتها في العطالة المطلقة. إنّ الجهْدَ المبنِيَّ على لا شيء لا ينحت ولا يدْعم إلاّ أساطِير. إنّه سُكْرٌ أوّليّ يبعث على الإيمان بـ «الواقع» ويغذّيه. لكنّ التأمّل في الكينونة المحض، ذاك التأمّل المستقلّ عن كلّ حركة وكلّ موضوع، لا يتمثّلُ إلاّ ما هو غير كائن...

إنّ العاطلين عن العمل يدركون من الأشياء أكثر ممّا يدرك العاملون، وهم أعمق منهم. لا شغْلَ يحدُّ من أُفُقِهم. وُلِدُوا في يوم أحدٍ أبديّ فإذا هم يَنْظُرُون، وإذا هم يَنْظُرُون إلى أنفسهم وهُمْ

يَنْظُرُون. الكسلُ شكوكيّةٌ فيزيولوجيّة. إنّه شَكُّ اللحم. في عالمٍ وَلْهانٍ بالبِطالة لن نرَى مَنْ ليسُوا بِقتَلةٍ غَيرَهُم. لكنّهم لا ينتمون إلى البشريّة. ولمّا لم يكن الكَدْحُ من قدراتهم، فإنّهم يعيشون في حِلٍّ من تبعاتِ الحياة والخطيئة. لا يأتون خيرًا ولا شرًّا، بل يتفرّجون على صَرَع البشريّة، مُستخِفّين بأسابيع الزمن، تلك الجهود التي تخنق الوعي. ما الذي يمكن أن يخيفهم من تمديدٍ لا نهائيٍّ لبعض الظهائر، غير الندم على كونهم ساندوا بعض البداهات الأوّليّة الفجّة؟ عندئذ قد يحملهم إيغالهم فيما هو حقيقيّ على مُحاكاة الآخرين وعلى الاستجابة إلى غواية العَمَل المُذِلّة.

ذاك هو الخطر الذي يتهدّد الكسَل - الأثر الباقي بأعجوبةٍ من الفردوس.

(وظيفة الحبّ الوحيدة أن يساعدنا على تحملّ ظهائر أيّامٍ الأحد، القاسية وذات الأبعاد اللانهائيّة، التي تجرحنا لبقيّة الأسبوع، وإلى الأبد.

لولا الدربةُ على الاختلاج الموروث عن الأسلاف، لَاحْتَجْنا إلى ألْفِ عينٍ من أجل دموعٍ خفيّة، أو إلى أظفار للقضم، أظفار كيلومتريّة. . . وإلاّ فكيف نقتل هذا الوقت الذي كفّ عن الجريان؟ في هذه الآحاد التي لا نهاية لها يتجلّى مرضُ الكينونة كُليًّا. ننجح أحيانًا في نسيان أنفسنا في بعض الأمور لكن كيف يمكننا نسيان أنفسنا في العالمِ بذاته؟ هذه الاستحالة هي تعريف هذا المرض. ليس في وسع المُصاب به أن يشفى منه أبدًا حتى لو تغيّر الكونُ

بشكل كامل. قلبُ المُصابِ بهِ هو الوحيد الذي يُفترض أن يتغيّر، لكنّه غير قابلٍ للتغيير. من ثمّ تكتسي **الكينونة** بالنسبة إليه معنًى واحدًا: الارتماء في العذاب، - إلى أن تتمكّن الممارسة اليوميّة لِطُقوس النيرفانا من الارتقاء به إلى إدراك اللا واقع...)

اسْتِقالَة

------------------ حدثَ ذلك في قاعة الانتظار بأحد المستشفيات: أخذَتْ عجوزٌ تشرح لي أمراضها... مُجادَلاتُ البشر وأعاصيرُ التاريخ ليست شيئًا في نظرها. لا سيِّدَ على الفضاء وفي الديمومة إلاّ مرضُها. «لم أعد أستطيع الأكل. لم أعد أعرف النوم. أنا خائفة. لابدّ أنّ هناك بعض القيح». هكذا كانت تهذي مُداعِبَةً فكَّهَا باهتمامٍ أشدَّ ممّا لو كان مصيرُ العالم يعتمد عليه. تردّدتُ في البداية بين الفزع والتقزّز أمام إفراطِ نمّامةٍ هرمة في الاهتمام بذاتها إلى هذا الحدّ، ثمّ غادرتُ المستشفى قبل أن يحين دورِي، مقرًّا العزم على **التخلّي** عن آلامي إلى الأبد...

«لقد نذرتُ تسعًا وخمسينَ ثانيةً من كلّ دقيقةٍ في حياتي للعذاب، أو لفكرة العذاب... هكذا ظللتُ أُجترُّ على امتداد الشوارع. لماذا لم يكن لي مصير الحجَر! «القلب»: مصدر كلّ الأوجاع. أصبو إلى أن أكون شيئًا. أصبو إلى نعمة المادّة

والإبهام. يبدو لي ذهابُ ذبابةٍ صغيرة وإيابُها مسعًى قِيامِيًّا. إنّها لخطيئةٌ أن نخرج من الذات. الريحُ جُنونُ الهواء! الموسيقَى جُنونُ الصمت! اِسْتَسْلَمَ هذا العالمُ إلى الحياة فخالفَ العدم. أستقيلُ من الحركة ومن أحلامي. أيّها الغياب! أنت مجدي الوحيد. لِتُشْطَبْ «الشهوة» إلى الأبد من المعاجم والأرواح! أتراجع أمام مَسْخَرَةِ الغدوات المدوّخة. وإذا كنتُ أحتفظُ حتى الآن ببعض الآمال، فإنّي قد خسرتُ إلى الأبد مَلَكةَ **الرجاء**.»



الحيوانُ الضِّمْنِيّ

----------------- يؤولُ بنا الأمر إلى هزيمة نكراء حين نعتقدُ باستمرار، بناءً على هوسٍ راديكاليّ، أنّ الإنسان موجود. أنّه هُوَ ما هُوَ ولا يمكنه أن يكون آخَر. إلاّ أنّ أَلِفَ التعريف ينقُضُ **ما هو به هو**، وليس مِنْ تعريفٍ يفرض نفسَه: كُلّما ازدادت تلك التعريفات اعتباطيّةً ازدادت مقبوليّةً. تناسبه العبثيّة الأكثر تجنيحًا والابتذالُ الأثقل وطأةً على حدٍّ سواء. من صفاتِه التي لا تُحصَى يتأَلّفُ الكائنُ الأقلّ دقّةً الذي يمكنُ تصوُّرُه.

تذهب الدوابُّ مباشرةً إلى هدفها في حين يضيعُ البشرُ في المنعطفات. إنّه الحيوان غيرُ المباشر بامتياز. رُدودُ فعلهِ المُستَبْعَدةُ التي يَنتُجُ عن ارتخائِها الوعيُ، تُحَوِّلُهُ إلى نَاقِهٍ يَتُوقُ إلى المرض.

لا شيء فيه سليمٌ عدَا واقعةِ أنّه كان كذلك. وسواءٌ كان ملاكًا فَقَدَ جناحيهِ أو قِرْدًا فقَدَ شَعرَه، فإنّه لم يَبْرُز من غُفْلِيّة المخلوقات إلاّ بفضل كبَواتِ صحّته. تركيبةُ دمِهِ غيرُ المُحكَمة أتاحت تَسَلُّلَ الحيرة والملامح الأولى للمسائل. حيويّتُهُ المضطَرِبة سمحت بتَطَفُّلِ علامات الاستفهام وعلامات التعجّب. كيف نحدّد الفيروس الذي ظلّ ينخر نعاسَهُ حتى حكم عليه بالسهاد وسط قَيلولة الكائنات؟ أيّ دودةٍ استولت على راحته، أي عاملٍ بدائيّ من عوامل المعرفة اضطرّه إلى إرجاء الأفعال، إلى إيقاف الرغبات؟ من أدخلَ أوّلَ فُتُورٍ على شراستِه؟ مبتعدًا عن تكاثُرِ الأحياء الآخرين، هو ذا يبتكرُ لنفسِه بلبلةً أكثر رهافة، هو ذا يستغلّ بدقّةٍ أمراضَ حياةٍ انتُزِعَتْ من نفسِها.

انطلاقًا من مساعيه للشفاء من نفسِه تَكَوّنَ مَرَضٌ أكثر غرابة: ليست «حضارة» البشر سوى الجهد المبذول بحثًا عن علاجٍ لحالةٍ لا شفاء منها ومرغوبٍ فيها. يذبل الفكر بالاقتراب من الصحّة. الإنسان عاجزٌ أو لا يكون. إنّه لا يفكّر في نفسه إلاّ بعد أن يكون قد فكّرَ في كلّ شيء، - لأنّه لا يفلح في ذلك إلاّ مرورًا بالكون وباعتبار حالته الشخصيّة آخر مسألة يطرحها - من ثَمَّ يظلّ مدهوشًا مرتبكًا. لكنّه يستمرّ في تفضيل فشَلِهِ الخاصّ على الطبيعة التي تفشل أبديًّا في الصحّة.

(اقتصر جهدُ البشر منذ آدم على تغيير **الإنسان**. إنّ مقاصد

الإصلاح والبيداغوجيا التي تُمارَسُ على حساب **المعطيات** الثابتة، تشوّه الفكر وتزيّف حركته. ليس للمعرفة عدوٌّ أشرس من الغريزة التربويّة المتفائلة والحادّة، التي لن يكون في وسعِ الفلاسفة تجنُّبُها: كيف لأنساقهم أن تسلم منها؟

كُلُّ شيء مُزَيَّفٌ خارج العُضال. مزيّفةٌ هذهِ الحضارة التي تريد محاربته، مزيّفةٌ كلّ الحقائق التي تتسلّح بها.

باستثناء بعض الشكوكيّين والأخلاقيّين الفرنسيّين يصعب أن نذكر مفكّرًا واحدًا لا تطمح نظريّاتُه، سرًّا أو علنًا، إلى قولبةِ الإنسان. لكنّ الإنسان قائم كما هو، حتى إن سايَرَ ذلك الموكب من التعاليم النبيلة المُقتَرحة على فُضوله، المعروضة على حماستِهِ وضَلالِه. لكلّ كائنٍ **موقعه** في الطبيعة، أمّا هو فما انفكّ مخلوقًا يهذي ميتافيزيقيًّا، تائهًا في الحياة، شاذًّا في الخليقة. لم يعثر أحد على هدفٍ صالحٍ للتاريخ لكنّ الجميع اقترحوا له هدفًا، وها هو عجيجٌ من الأهداف التي بلغت درجةً من التباين وغرابة الأطوار، جعلت فكرة الغاية تُلغَى منها وتتلاشى في مادّة فكريّة مثيرة للسخرية.

يُعانِي كُلٌّ في ذاته وِحدةَ **قِياس الكارثة** المتمثّلة في **الإنسان** كظاهرة. ولا معنى للزمن إلاّ مُضاعفة تلك **الوحدات**، والعمل إلى ما لا نهاية على تنمية هذا العذاب العموديّ القائم على لا شيء من المادّة، على كبرياءِ اسمٍ وعلى عزلةٍ نِهائيّة.)

مفتاح قُدرتنا على التحمُّل

------------------ إنَّ من ينجحُ عن طريق مخيّلة طافحةٍ بالشفقة، في تسجيل عذابِ أيّ لحظةٍ وفي مُعاصرةِ كلّ أساها وقلَقِها، لا يمكن أن يكون - هذا إذا أُتيح لكائنٍ مثْلِهِ أن يكون - إلاَّ غولاً من غيلان الحبّ وواحدًا من أكبر الضحايا في تاريخ القلب. لكنْ لا فائدة من تصوُّرِ استحالةٍ كهذه. ليس علينا إلاّ أن نشرع في فحص أنفُسنا، وأن نمارس أركيولوجيا أجهزة الإنذار لدينا. إذا كنّا نتوغّلُ في وَجَعِ الأيّام، فَلِأَنْ لا شيءَ يوقف هذه المسيرة باستثناء آلامنا. تبدو لنا آلامُ الآخرين مفهومةً وقابلةً للتجاوز. نعتقد أنّهم يتعذّبون لأنّهم لا يملكون ما يكفي من الإرادة والشجاعة أو وضوح الرؤية. يبدو لنا كلُّ عذاب، باستثناء عذابِنا، شرعيًّا أو قابلاً للإدراك إلى حدٍّ باعثٍ على السخرية. وإلاّ كان الحِدادُ الثابتَ الوحيد في أحاسيسنا المتقلّبة. لكنّنا لا نُمارِسُ الحِدادَ إلاّ على أنفسنا. لو كان في وسعنا أن نفهم وأن نحبّ حالاتِ الاحتضار اللامتناهية المنتشرة من حولنا، وكُلَّ الحَيَوات التي هي ميتَاتٌ مخفيّة، إذَنْ لاحتجنا إلى قُلوبٍ بعددِ الكائنات المتعذّبة. ولو حظينا بذاكرة آنيّةٍ خارقة تحتفظ بحضور كلّ أوجاعنا السابقة، إذنْ لهلكْنا تحت وطأة العبْء. **ليست الحياة ممكنة إلاّ بفضل قُصور مخيّلتنا وذاكرتنا.**

نحن نستمدُّ قوّتنا من لحظات نسياننا ومن عجزنا عن تصوُّرِ

تعدُّدِ المصائر المتزامنة. ليس في وسع أحدٍ أن يبقى حَيًّا إذا هو فهم فوريًّا الألَمَ الكونيّ، فقد جُبِلَ كُلُّ قلبٍ على تحمُّل قَدْرٍ معيّن من العذاب. ثمّة ما يشبه الحدود الماديّةَ لِقُدْرَتِنا على التحمّل، وعلى الرغم من ذلك فإنّ من شأن تَوَسُّعِ كلّ أسًى أن يبلغ تلك الحدود وأن يتجاوزها أحيانًا: ذاك في معظم الأحيان مصدرُ خرابنا.

من ثمّ ينحدر إحساسُنا بأنْ لا نهايةَ لكُلِّ ألمٍ ولكُلِّ أسًى. وهما لا نهائيّان حقًّا لكنْ بالنسبة إلينا فحسب، وبالنسبة إلى حدود قَلْبِنا. لو حظي هذا القلب بأبعاد الفضاء الشاسع، لكانت أمراضُنا أكثر شساعةً، بما أنّ من شأن كلّ ألمٍ أن يحلَّ مَحَلَّ العالَم ولا بدّ لكلّ أسًى من كونٍ آخر. يحرص العقل عبثًا على إقناعنا بأحجامِ إصَاباتِنا لا متناهية الصِّغر. لكنّه يفشل أمام ميلنا إلى التكاثُر الكوسموجونيّ[1]. لذلك فإنّ الجنون الحقيقيّ ليس بالمرّة وليد المصادفات أو كوارث الدماغ، بل هو وليد التصوّر الخاطئ للفضاء الذي يصوغه القلب...

---

(١) الكوسموجوني cosmogonique: خاصّ بعلم نشأة الكون.

---------------- لا معنى لأيّ عقيدةِ خَلاص إلاّ إذا انطلقنا من المعادلة «كينونة - عذاب». هذه المعادلة ليست وليدةَ ملاحظةٍ مفاجئة أو نتيجةَ سلسلة من الاستنتاجات، بل هي تدبيرٌ لا واعٍ تنهض به كلّ لحظةٍ من لحظاتنا، وتُسهم فيه تجاربُنا كلُّها، التافه منها والأساسيّ. حين نحمل بُذُورَ الخيبة وشيئًا يشبه التعطُّش إلى رؤيةِ تلك البُذُورَ تتفتّح، فإنّ رغبتنا في أن نرى العالم ينفي آمالَنا في كلّ خطوةٍ، لا تلبثُ أن تُضاعِفَ اختبارات الشرّ الممتعة. تأتي الحجج في المرحلة الموالية. تتشكّل العقيدة: ليسَ بَعْدَ الآن إلاّ خَطَرُ «الحكمة». لكن ماذا إذا كنّا لا نريد التحرّر من العذاب ولا نرغب في الانتصار على التناقضات والنزاعات؟ ماذا إذا كنّا نفضّل فويرقات ما هو غير مُكتَمِل، والجدليّات الوجدانيّة، على أحاديّة مأزقٍ رائع؟ الخلاصُ يُنهِي كُلَّ شيءٍ ويُنهِينا. من يجرؤُ وقد خُلِّصَ على ادّعاء أنّه حيٌّ بعد؟ نحن لا نحيا حقًّا إلاّ برفْضِ التخلُّص من العذاب، وبضربٍ من الغواية الدينيّة بعَدَمِ التديُّن. لا تتسلّط فكرةُ الخلاص إلاّ على القتَلَةِ والقدّيسين، أولئك الذين قتلوا المخلوق أو تجاوزوه، أمّا الآخرون فإنّهم يتمرّغُون سكرانِينَ في اللاّ كمَال...

يتمثّل خطأُ كلِّ عقيدةِ خَلاصٍ في إلغاء الشعر، الذي هو مناخ اللا مُكتَمل. يخون الشاعر نفسَه حين يطمح إلى إنقاذ نفسه.

الخلاص هو موتُ النشيد وإنكارُ الفنّ والفكر. كيف يمكنُ الإحساس بالتضامن مع النهاية؟ في وسْعِنا إِرْهافُ آلامِنا وتَنْمِيَتُها، لكن بأيّ وسيلة يمكننا التحرّر منها دون أن نصبح مؤجّلين؟ نحن لا نُوجَدُ إلاّ بقدر ما نتعذّب. الروح لا تكبر ولا تهلك إلاّ بمقدارِ ما تضطلع به ممّا **لا يُطاق**.

السمُّ المُجَرّد

---------------- حين تتدنّى أشياؤنا كلُّها إلى فيزيولوجيَا، حتّى أدواؤُنَا الغامضة وهُمومُنا المنتشرة، فإنّ من المُهمّ أن نعمدَ إلى إجراءٍ مُعاكس كي نعود بها إلى مناورات العقل. ماذا لو ارتقينا بالسأم - هذا الإدراك الحشْويّ للعالم، هذا التموّج الكئيب للديمومة - إلى وجاهةِ مَرْثِيةٍ استنتاجيّةٍ، وماذا لو وهبناهُ غوايةَ عُقْمٍ لامع؟ إذا لم نلجأ إلى مستوًى أرقَى من الروح فإنّ هذه الأخيرة تغرقُ في اللحم - هكذا تصبح الفيزيولوجيا الكلمةَ الأخيرة لِبَلاَدَاتِنا الفلسفيّة. إنّ تحويل السموم الفوريّة إلى قِيَم تبادُلٍ فكريٍّ، والارتقاء بالفساد المحسوس إلى وظيفة الأداة، أو إسدالَ المعايير على دناسةِ كلّ شعور وكلّ إحساس، هو بحثٌ عن الأناقة ضرُوريٌّ للفكر، الذي لا تكون الروح - هذا الضبْع المثير للشفقة - بالقياس إليه، إلاّ دامِسَةً مُخِيفة. لا يكون الفكرُ في ذاته إلاّ **سطحيًا**، لاقتصارِ طبيعتِه على الانشغال بترتيب

الأحداث المفهوميّة، مشيحًا عن تبعات تلك الأحداث على الدوائر التي **تدلُّ عليها**. الفكرُ لا تهمّه أحوالنا إلاّ بقدْرِ قابليّتها لتغيير مواضعها. هكذا تنبثق كآبتنا عن أحشائنا وتلتحق بالفراغ الكونيّ. لكنّ الفكر لا يتبنّاها إلاّ إذا طُهِّرت من كلّ ما يَشُدُّها إلى هشاشة الحواسّ. إنّه يؤوّلها. وما إن تُرْهَفَ حتّي تتحوّل إلى وجهة نظر: كآبة تَجْرِيديّة. تتربّص النظريّةُ بسُمومنا وتلتقطها. وتجعلها أقلّ ضررًا. إنّهُ تَدَهْوُرٌ **مِنْ فَوْق**، بما أنّ الفكرَ المُغرَمَ بالدُّوار النقِيِّ عَدُوُّ الحِدّة.

الوعيُ بالشقاء

----------------- يُساهِمُ كلُّ شيءٍ في جرْحكَ حتى العناصرُ والأفعال. هل تتدرّع بالازدِراء، وتنعزل في قلعةٍ من الاشمئزاز، وتحلم بِلاَمُبالاةٍ فوق طاقةِ البشر؟ لن تكُفَّ أصداءُ الزمن عن اضطهادك حتّى وأنت في آخر مَعاقِلِ غيابِك... حين لا يمنعك شيءٌ من أن تنزف فإنّ الأفكار نفسَها تصطبغ بالأحمر، أو تتعدّى كالأورام بعضُها على بعض. ليس في الصيدليّات أيّ دواء مُخصّصٍ ضدّ الكينونة. - لا شيء إلاّ أدوية بسيطة للمتبجّحين. لكن أين التِرياقُ المضادُّ لليأس الساطع، المُبين كلّ الإبانة، الفخور والواثق؟ الكائنات شقيّةٌ كُلُّها، لكن كم منها يعرف ذلك؟ إنّ الوعيَ بالشقاء مرضٌ أخطرُ من أن يُدرَجَ في حِسابات الاحتضار

أو في دفاتر العُضال. إنّه يحطُّ من قَدْرِ الجحيم ويحوّل مَذابِحَ الزمن إلى غزَلِيّاتٍ رعويّة. أيَّ إثْمٍ اقتَرَفْتَ كي تُولَدَ، أي جريمةٍ ارتَكَبْتَ كي تُوجَد؟ ليس لألمكَ دافِعٌ شأنه في ذلك شأن مصيرك. العذابُ الحقيقيّ هو القبولُ بأن تجتاحك الأدواء دون عُذْرِ السببيّة، وكأنّها مِنّةٌ من الطبيعة المعتوهة، وكأنّها معجزة سالبة...

اندرَجَ البشرُ في عِبارةِ الزمن مثل الفواصل، بينما سكنتَ أنت، لإيقافه، كالنقطة.

الفكرُ التعَجُّبِيّ

---------------- لابدّ أنّ فكرةَ اللامتناهي قد وُلِدَت في يوم غفلةٍ، تسلّلَ إليه فتورٌ غامضٌ في هيئةٍ هندسيّة، وكأنّها أوّلُ أفعال المعرفة في صمتِ ردود الأفعال، حين كانت قشعريرةٌ مُريعةٌ قد عَزَلَت الإدراكَ عن موضوعه. كمْ كان علينا أن نُراكِمَ من قَرَفٍ وحنين، كي نصحُوَ في النهايةِ وَحيدِينَ، متفوّقين بشكلٍ تراجيديّ على البداهة! زفْرَةٌ منسيّةٌ دفَعَتْنَا إلى أن نقطعَ خطوَةً إلى خارج الفورِيّ. تَعَبٌ عادِيٌّ أبعَدنَا عن كُلِّ مشهدٍ أو كائن. أنّاتٌ منتشرةٌ فصَلَتْنَا عن البراءات العذبة أو الخوّافة. يُكَوِّنُ مجموعُ هذه المسافات العرَضِيّة - حصيلة نهاراتنا ولياليانا - الفارقَ الذي يميّزنا عن العالم، والذي يسعى الفكرُ جاهدًا إلى تقليصه واختزاله في

أبعادِنا الهشّة. إلاّ أنّ عمَلَ كُلِّ ضجَرٍ سرعان ما ينمُّ عن أثَرِه: أين يمكننا المزيدُ من البحثِ عن مادّةٍ تحت أقدامنا؟

في البداية، نحن نفكّر كي نهرب من الأشياء. ثمّ نذهب إلى أبعد ممّا يجب، فنفكّرُ كي نضيع في حَسْرتِنا على ذلك الهرب... هكذا تتسلسل مفاهيمُنا كأنّها زفراتٌ مخفيّة، ويَقومُ كلُّ تفكُّرٍ مقام التعجّب، وتغلب نبرةُ الشكوى على كرامةِ المنطق. تتلطّخ الأفكار بأصباغ جنائزيّة، تفيض المقبرةُ على الفقرات، تنبعثُ روائحُ العفونة من التعاليم، إنّه آخرُ أيّام الخريف في بلّورةٍ أبديّة... لا حولَ للفكر ولا قوّة في وجه الأوخام التي تهجم عليه لأنّها تنبثق من رُوحنا: أَفْسَدِ الأماكن الموجودةِ بين الأرض والسماء، مرقد الجنون في كنف الحنان، بالوعة اليوتوبيات ومشتل الأحلام. تلك التي لن تلبثَ أن تقهرَنا ببُؤسِها وبمبدأ خرابِها، حتّى لو قُيِّضَ لنا أن نغيّر قوانين الكون أو أن نتوقُّع نزواته. هل من روح غير تائهة؟ أين هي كي نُعِدَّ لها مَحْضَرًا، وكي يقبض عليها العلمُ والقداسة والكوميديا!

تمجيدُ الغامض

--------------- قد نُحيطُ بجوهر الشعوب - أكثر بكثير من الأفراد - من خلال اشتراكِهم في **الغامض**. البداهات

التي يعيشون فيها لا تكشف إلاّ عن صفتهم العابرة، عن أطرافهم ومظاهرهم.

ليس لما يستطيع شعبٌ من الشعوب التعبيرَ عنه سوى قيمة تاريخيّة. إنّه نجاحه في السيرورة. أمّا ما لا يستطيع التعبير عنه فهو **فشله في الأبديّ**، وهو عطشُهُ الخائبُ إلى الذات: لمّا كانَ حرصُهُ على استنزافِ نفسِه في التعبير مطبوعًا بالعجز، فإنّه يعوّض عن ذلك ببعض الكلمات، - تلميحات إلى ما لا يمكن التعبير عنه...

كَمْ مرّةً تجوّلنا خارج الفكر فلم نَلجَأْ باضطراباتنا إلى ظلّ الـ Sehnsucht، والـ yearning، والـ saudade[1]، تلك الثمار الصوتيّة التي أينعت من أجل قلوب ناضجة أكثر ممّا يجب؟ لِنُمِط اللّثام عن هذه الكلمات: هل تُخفي المضمونَ نفسَه؟ هل من الممكن أن يعيشَ المدلولُ نفسُهُ ويموتَ في الفروع اللفظيّة لأرُومَةٍ غير محدّدة؟ هل نستطيع أنّ نتصوّر أنّ شعوبًا بهذا التنوّع تَخْتبِرُ الحنينَ بنفس الطريقة؟

---

(١) Sehnsucht: عبارة ألمانيّة قريبة من العبارة البرتغاليّة saudade، والعبارة الإنكليزيّة yearning، وقد أثبت سيوران العبارات الثلاث بصيغتها الأجنبيّة في متن النصّ الفرنسيّ، فسرنا على نهجه، وتتضمّن كلّها معاني الحنين والشوق المصطبغ بالشجن والرغبة الحادّة في الشيء المفقود البعيد الذي قد يكون معلومًا وقد يكون مجهولاً، ولعلّ أقرب المفردات العربيّة إلى هذه العبارات هي الحنين والسويداء والكآبة.

إنّ كلّ من يُجهِدُ نفسَهُ بحثًا عن صيغةٍ لمرضِ **الحنين إلى البُعد**، لن يلبث أن يصبح ضحيّةَ هندسةٍ سيّئةِ التكوين. للعودة إلى أصل هذه التعبيرات عمّا هو غامض، لابدّ من النكوصِ عاطفيًا إلى جوهرها، لابدّ من الغرقِ فيما لا يُوصف، للخروج منه بالمفاهيم وهي أشلاء. ما إن نضيّع الوثوق النظريّ والزهوَ بالمعقول، حتى يُصبح في وسعنا أن نحاول فهم كلّ شيء، أن نحاول فهم كلّ شيء **من أجل ذاتنا**. نصل عندئذٍ إلى الابتهاج بِما لا يُعبّر عنه، إلى قضاء أيّامنا على هامش ما يمكن فهمُهُ وإلى التمرّغ في ضاحية السّامي. لا نجاة من العُقْم إلاّ بالازدهار على عتبة الفكر. . .

أن نعيش في حالة انتظار، فيما هو ليس بعدُ، يعني أن نرضَى باللاتوازُنِ المُحفِّز الذي تفترضه فكرةُ المستقبَل. كلُّ حنين هو تجاوزٌ للحاضر. يكتسب الحنين خاصيّةً ديناميكيّة حتى حين يتّخذ شكل الحسرة: نريد اقتحام الماضي، والتصرّف بأثرٍ رجعيّ، والاحتجاج على ما لا رجعة فيه. لا مضمون للحياة إلاّ في انتهاك الزمن. الهوسُ بالمكان الآخر هو استحالة اللحظة، وهذه الاستحالة هي الحنينُ نفسُه.

امتناعُ الفرنسيّين عن مُعاناة ما هو غيرُ محدّد وعن تنميته كنقيصةٍ، لم يمرّ دون أن يترك نبرةً كاشِفة. لا وجود لهذا المرض في فرنسا في صيغة جماعيّة: **الغمّ** ليس له صفة ميتافيزيقيّة **والسأم** مُوَجَّهٌ بشكلٍ فرديّ. يرفض الفرنسيّون كلّ تواطؤ مع الممكَن: لُغَتُهُمْ نَفْسُها تلغي كلّ شراكة مع مخاطر الممكَن. هل ثمّة شعبٌ

يشعر بالارتياح في العالم، ويرى لـ **مكان إقامة الذات** معنًى ووزنًا، وللتأصُّل جاذبيّةً، أكثر منهم؟

كي نرغب بشكلٍ أساسيّ في شيء آخر علينا أن ننخلع من الفضاء والزمان، وأن نعيش في أقلّ ما يمكن من القرابة مع المكان واللحظة. إنّ ما يجعل تاريخ فرنسا بخيلاً بحالات الانقطاع هو هذا الوفاء إلى جوهره، الذي يُرضِي ميلنا إلى الكمال ويُخيّب حاجتنا إلى ما هو غير مكتمل، تلك الحاجة التي هي من تبعات كلّ رؤية تراجيديّة. الشيء الوحيد المعدي في فرنسا هو نفاذُ البصيرة، والرعب من أن نُخدَع، من أن نكون ضحيّةِ أيّ شيء. لذلك لا يقبلُ الفرنسيّ بالمغامرة إلاّ وهو في وعيٍ كامل. **يريد** أن يكون مخدوعًا. يضع عصابةً على عينيه. البطولة اللاواعية تبدو له عن حقٍّ قلّةَ ذوقٍ وتضحيةً غير أنيقة. إلاّ أنّ التباس الحياة الفظّ يقتضي أن تغلبَ النزوةُ لا الإرادةُ على كلّ لحظة، أن نكون جثّة، أن نكون مخدوعين ميتافيزيقيًّا.

إذا كان الفرنسيّون قد شحنوا الحنين بوضوحٍ أكثر ممّا يجب، وإذا كانوا قد جرّدوه من بعض الأمجاد الحميمة والخطرة، فإنّ الـ **Sehnsucht** تستنفد في المقابل ما لا يمكن حلّه في صراعات الروح الألمانيّة، المتمزّقة بين الـ **Heimat**[١] واللامتناهي.

(١) كلمة ألمانية تعنى البلاد والوطن ومسقط الرأس وكلّ مكان نشعر أنّه «بيتنا» أو مكان إقامتنا. كما تعني أحيانًا الفردوس والسعادة إلخ. . .

كيف يسعها أن تعثر على سكينة؟ تريد من ناحيةٍ أن تغرق في مشَاعيّة القلب والأرض، وتداوم من ناحيةٍ أُخرى على ابتلاع الفضاء بشهوةٍ لا تشبع. ولمّا كان المدَى بلا حُدود، ولمّا كان اتّساعه يغذّي المَيْلَ إلى شرودٍ جديد، فإنّ الغاية تتقهقر بقدر التقدّم في السير. من ثَمَّ الشغفُ بالغريب، الولعُ بالرحلات، التلذّذُ بالمشهد كمشهد، ضُعْفُ اللياقة الباطنيّة، العمقُ المتلوّي الفاتن والمُنَفِّرُ في آن. لاَ حلَّ للتوتُّر القائم بين الـ **Heimat** واللامتناهي. هذا يعني أن تكون متأثِّلاً ومُنْبَتًّا في الوقت نفسه، وألاّ تكون عثرتَ على تسويةٍ بين البيت والبعيد. أليست الأمبرياليّة، باعتبارها من الثوابت الوخيمة في ماهيّتها القُصوَى، ترجمةً سياسيّة ملموسة حدّ الابتذال للـ **Sehnsucht**؟ لن نلحّ بما يكفي على التبعات التاريخيّة لبعض التخمينات الباطنيّة. بيْدَ أنّ الحنين واحد منها. إنّه يمنعنا من الراحة في الكينونة أو في المُطلَق. إنّه يضطرّنا إلى العوْمِ في المُلْتَبِس، إلى فقدان أُسُسِنا، إلى العيش **مكشوفين** في الزمن.

أن نُقْتَلَعَ من الأرض، أن نُنفى في الديمومة، أن نُقطَعَ عن جذورنا المباشرة، يعني أن نتوقَ إلى إعادة إدماجنا في المنابع الأصليّة لِمَا قَبْلَ الانفصال والتمزُّق. الحنينُ هو تحديدًا الإحساسُ الأبديّ بالبعد عن البيت. وباستثناء أبعادِ السأم النيّرة، والتسليم المتناقض باللامتناهي والـ **Heimat**، فإنّ الحنين يتّخذ هيئة العودة إلى المتناهي، إلى الفوريّ، إلى نداءٍ أرضيّ وأُموميّ. يبتكر القلبُ يوتوبيات شأنه في ذلك شأن الفكر، وليس فيها كلّها أغرب من

يوتوبيا الكون **الأُمّ**، حيث نستريح من أنفسنا، يوتوبيا «العالَم - الوِسادة الكونيّة» لكلّ أتعابنا.

لا نرغبُ في شيءٍ ملموسٍ من التطلّع الحنينيّ، بقدر ما نرغب في دفء تجريديٍّ غير متجانسٍ مع الزمن وقريبٍ من توجُّسٍ فردوسيّ. كلُّ ما لا يقبل الكينونة كما هي يُجاوِرُ اللاهوت. ليس الحنينُ سوى لاهُوتٍ عاطفيّ، حيثُ يُبنَى المطلق بعناصر الرغبة، وحيث الإله هُو غيرُ المُعيَّن وقد هيّأهُ الكسل.

العزلة - انشقاقُ القلب

---------------- نُنْذَرُ إلى الخُسْران كلّما لم تنكشف الحياة عمّا يشبه المعجزة، وكلّما لم تئنَّ اللحظةُ من خلف قشعريرةٍ خارقة. كيف نجدّد ذاك الإحساس بالامتلاء، تلك الثواني الهذيانيّة، تلك الإشراقات البركانيّة، تلك الأعاجيب من الاضطرام التي يبدو الربُّ في ضوئها تضَرُّسًا في طيننا؟ عن طريق أيّ حيلة نعيش من جديد ذلك السطوع، حيث تبدو لنا الموسيقى نفسُها سطحيّة، وكأنّها نفايةُ أُرْغُنِنَا الباطنيّ؟

لم نعد نملك القدرةَ على تذكُّرِ الدهشة التي كانت تتيحُ لنا التزامن مع بداية الحركة، وتجعلُ منّا سادةً على البرهة الأولى

للزمن وصُنّاعًا آنيّين للخليقة. لم نعد نلمح من الخليقة إلاّ إملاقَها وواقعها الكئيب: نحن نعيش كي ننسى الوجْدَ الذي تعلّمناه. ولم تعد المعجزةُ هي التي تحدّد مأثورنا وماهيّتنا، بل هو فراغُ الكونِ المحروم من نيرانه، الغَرِقِ في غياباته الخاصّة، موضوعِ اجترارنا الحصريّ: كونٌ واحدٌ أمام قلبٍ واحد، مُقدّرٌ لهما معًا أن ينفصلا وأن يتفاقما في التضادّ. نكفُّ عن التضامن مع الكلّ، حين تتنامى العزلةُ بما يكفي كي تصبح **إيمانَنا** الوحيد لا **مُسَلّمَتَنا** فحسب. فإذا نحن هراطقةُ الكينونة، وقد نُفِينَا من جماعةِ الأحياء الذين لا فضيلةَ لهم إلاّ أن ينتظرُوا لاهِثِينَ شيئًا غيرَ ميت. أمّا وقد حُرِّرنا من فتنة ذاك الانتظار واستُبْعِدْنَا من مسكونيّة الخدعة، فإنّنا الطائفة الأكثر هرطقة، لأنّ روحنا نفسَها وُلِدت في الهرطقة.

(«حين تكون الروح في حال النعمة المبرّرة فإنّ جمالَها يكون من السموّ والإذهال بحيث يتفوّق على كلّ جميل في الطبيعة، ويخطف أبصار الربّ والملائكة». «إغناطيوس دي لويولا»[1].

حاولتُ أن أستقرّ في نعمةٍ مَا. أردتُ أن أصفّي الاستفهامات وأن أضمحلّ في نُورٍ جاهل، في أيّ نُورٍ محتقِرٍ للعقل. لكن كيف يمكنك الوصول إلى آهةِ الغبطة المتفوّقة على المسائل، إذا لم يُنَوِّرْكَ أيّ «جمال»، وإذا كان الإله والملائكة لا يبصرون؟

---

(١) إغناطيوس دي ليولا Ignace de Loyola (١٤٩١-١٥٥٦): عالم اللاهوت الإسبانيّ. مؤسّس اليسوعيّة.

فيما مضَى، حين كانت القديسة تيريزا[1] سيّدة إسبانيا وسيّدة روحك، تفرض عليكَ مَسارًا من الغوايات والدوار، كانت الهوّة المتعالية تدهشك وكأنّها سقوطٌ في السماوات. لكنّ هذه السماوات تلاشت - كالغوايات والدوار - وفي القلب البارد انطفأتْ إلى الأبد اضطراماتُ أفيلا.

تبعا لأيّ غرائب القدر، يبلغ البعضُ نقطة يمكنهم التوافقُ فيها مع إيمانٍ ما، لكنّهم يتقهقرون كي يتبعوا مسلكًا لا يؤدّي بهم إلاّ إلى أنفسهم - أي إلى لا مكان؟ هل يحدث ذلك بسبب الخوف من أن يستقرّوا في النعمة فيخسروا فضائلهم المتميّزة؟ ليس من إنسانٍ إلاّ وهو صوفيٌّ ينكر نفسه، ويتطوّرُ على حساب أعماقه، في أرض مأهولةٍ بنِعَمٍ ضائعة وألغاز مُبتَذَلة.)

مفكّرون شفقيّون

------------------ كانت أثينا تموت ومعها عبادة المعرفة. انقرضت الأنساق الكبرى: اقتصرت على المجال المفهوميّ بعد أن رفضت تدخّل الهموم والبحث عن الخلاص

---

(١) تيريزا الأفيلاويّة Thérèse d'Ávila (١٥١٥-١٥٨٢): الراهبة الكرمليّة الإسبانيّة. أسّست أوّل ديرٍ لها في مدينة أفيلا.

والتأمّل الفوضويّ في الألم. سمحت المدينة المتهالكة بتحويل الحوادث البشريّة إلى نظريّة، فإذا في وسع أيّ شيء - العطاس أو الموت - أن يحلّ محلّ المسائل القديمة. يدلّ الهوس بالعقاقير على نهاية حضارة، كما يدلّ الهوس بالخلاص على نهاية فلسفة. لم يرضخ أفلاطون وأرسطو إلى هذه المشاغل إلاّ عن حاجة للتوازن. بعدهما غلبت هذه المشاغل على كلّ القطاعات.

لم تَجْنِ روما الآفلة من أثينا إلاّ أصداء انحطاطها وانعكاسات إنهاكها. حين كان اليونانيّون يجوبون بشكوكهم أرجاء الإمبراطوريّة، كان تَداعِي هذه الأخيرة وتداعي الفلسفة أمرا مقضيّا من الناحية الافتراضيّة. بدت كلّ الأسئلة شرعيّة ولم تعد وساوس الحدود الشكليّة تمنع الإفراط في الفضول الفوضويّ. بات من السهل على الأبيقوريّة والرواقيّة اختراق المشهد: حلّت الأخلاق محلّ البنى المجرّدة وأصبح العقلُ المهجّن أداة من أدوات الممارسة. عجّت شوارع روما بأبيقوريّين ورواقيّين، خبراء في الحكمة، دجّالين نبلاء، ظهروا على أطراف الفلسفة بوصفات «السعادة» المختلفة، لشفاء قُنوطٍ عضال ومُعمّم. لكنّ طريقتهم العلاجيّة كانت تفتقر إلى الميثولوجيا والحكايات الغريبة، التي سيتاح لها في كنف الوَهَنِ الكونيّ العامّ، أن تُشكّل حيويّةَ دينٍ لا اكتراث له بالفويرقات، قادم من أبعد منهم. الحكمة هي آخر كلمات حضارة تلفظ أنفاسها الأخيرة، هالة كلّ غروب تاريخيّ، التعب وقد تحوّل إلى رؤية للعالم، التسامح الأخير قبل مجيء آلهة

أخرى أكثر نضارةً، وقبل مجيء الهمجيّة. هي أيضا محاولة يائسة للغناء في خضمّ زفرات النهاية المتصاعدة من كلّ مكان. لأنّ الحكيم - مُنَظِّرُ الموت الجَلِيّ، بطلُ اللامبالاة ورمزُ تَدهْوُرِ الفلسفة وخوائها ومرحلتها الأخيرة - قد حلَّ مسألة موته الخاصّ... وأَلْغَى من ثمّ كلّ المسائل. لقد زُوِّدَ بسخافات أكثر ندرة، فإذا هو حالةٌ حدّيّة، لا نلتقيها إلاّ في المراحل القُصوى، إثباتًا استثنائيّا للباثولوجيا العامّة.

نقِفُ في النقطة المتناظرة مع الاحتضار القديم، فريسة الأمراض نفسها وتحت تأثير نفس الإغراءات القاهرة، فنرى الأنساق الكبرى وقد ألغيت بسببِ محدوديّة كمالِها. نحن كذلك يصبح كلُّ شيء بالنسبة إلينا مادّةً لفلسفةٍ بلا وجاهة ولا صرامة... تَبَعثَرَ المصيرُ اللاشخصيّ للتفكير في ألف روح، في ألف إهانة للفكرة... فلم نعد ننتظر نجدةً لا من لايبنيتز ولا من كانط ولا من هيغل. لقد وقفنا بموتنا الخاصّ على أبواب الفلسفة: فإذا هي تُشْرَعُ من تلقاء نفسها وقد فسدت ولم يعد لديها ما تدافع عنه... وبات في وسع أيّ شيء أن يصبح موضوعا فلسفيّا. حلّت الصرخات محلّ العبارات: نتجت عن ذلك فلسفة الـ fundus animac، التي يمكن التعرّف على حميميّتها في مظاهر التاريخ وفي أبعاد الزمن الخارجيّة.

نحن أيضا نبحث عن «السعادة»، إمّا متحمّسين وإمّا مزدرين،

وحتى لو احتقرناها فإن ذلك يعني أنّنا لا ننساها وأنّا نرفضها مفكّرين فيها. نحن أيضا نبحث عن «الخلاص»، حتى عن طريق عدم الرغبة فيه. وإذا كنّا الأبطال السلبيّين لعصر نَضُج أكثر ممّا يجب، فهذا تحديدا يعني أنّنا أبناء ذلك العصر. أن تخون زمنا أو أن تولع به، تعبير - من خلف تناقض ظاهريّ - عن فعل الشراكة نفسه. من منّا لا يتعرّف في نفسه على الانهيارات الكبرى، على الشيخوخات الخفيّة، على الرغبة في الهالات اللازمنيّة - وكلّها يقود إلى الحكمة -؟ من منّا لا يرى لنفسه الحقّ في تأكيد كلّ شيء داخل الفراغ المحيط به، قبل أن يتلاشى العالم في فجر مطلق أو في إنكار جديد؟ ثمة دائما إله يتربّص بنا في الأفق. نحن على هامش الفلسفة بما أنّا نوافق على نهايتها. لنحرص على ألاّ يستقرّ الربّ في أفكارنا، لنظلّ محافظين على شكوكنا، وعلى مظاهر التوازن وغواية القدر الوشيك، ما دام كلّ نزوع اعتباطيّ وطائش أفضل من الحقائق الثابتة.

نغيّر العقاقير ولا نجد فيها ما هو ناجع أو مفيد، لأننا لا نؤمن لا بالسكينة التي نبحث عنها ولا بالمتع التي نلهث وراءها. حكماء متقلّبون نحن، ابيقوريّو ورواقيّو كلّ روما حديثة.

---------------- ولدنا في سجن، بأعباء على أكتافنا وأفكارنا، وما كنّا لنبلغ نهاية يوم واحد، لولا إمكانيّةُ وضع حدٍّ للأمر كلّه، التي تحثّنا على إعادة الكَرّة في اليوم الموالي... تُجرِّدُنا القيود والهواء الخانق من كلّ شيء إلاّ من حريّة أن نقتل أنفسنا. هذه الحرية تمدنا بقوّة وكبرياء كفيلين بالانتصار على الأثقال التي تكبّلنا.

هل من موهبة أكثر غموضا من أن يكون لنا حقّ التصرّف المطلق في أنفسنا والامتناع عن ذلك؟ نجد بعض العزاء في الانتحار الممكن الذي يوسّع محلّ إقامتنا، حيث نختنق، ويحوّله إلى فضاء لا نهائيّ. تبهجنا وترعبنا فكرة أن ندمّر أنفسنا، وكثرة الوسائل التي تتيح لنا ذلك، وسهولتها وقربها. إذ ليس هناك أبسط ولا أبشع من الفعل الذي نتّخذ عن طريقه قرارا لا رجعة عنه في شأننا. نلغي كلّ اللحظات في لحظة واحدة. قد يعجز الربّ نفسه عن ذلك. لكنّنا نظلّ نرجئ نهايتنا مثل شياطين متبجّحة. كيف يمكننا التخلّي عن امتداد حريّتنا وعن لعبة غرورنا؟

كلّ من لم يتصّور مرّة إلغاء نفسه، كلّ من لم يستشعر اللجوء إلى الحبل، إلى الرصاصة، إلى السمّ أو البحر، هو سجين ذليل أو دودة تزحف على الجيفة الكونيّة.

يستطيع هذا العالم أن ينتزع منّا كلّ شيء، أن يحرّم علينا كلّ شيء، لكن ليس في وسع أحد مهما كان أن يمنعنا من إلغاء أنفسنا. الوسائل كلّها تساعدنا على ذلك. هُويَّنا كلُّها تدعونا إلى ذلك. لكنّ غرائزنا كلّها تعترض على ذلك.

من شأن هذا التناقض أن يطوّر في العقل صراعا لا حلّ له. حين نشرع في التفكير في الحياة وفي اكتشاف خوائها اللا نهائيّ، تكون غرائزنا قد اتّجهت بعدُ ناحية أفعالنا، في هيئة أدلاّء ورُسُل يكبحون جموح إلهامنا ومرونة انعتاقنا. لو كان وعيُنا لحظة ولادتنا مُساويا لوعينا ونحن نغادر المراهقة، لكان من المحتمل جدّا أن يصبح الانتحار في الخامسة من العمر ظاهرة معتادة أو حتى مسألة شرف. إلاّ أنّنا نُفيقُ دائما بعد فوات الأوان. تقف ضدّنا السنوات التي لم يخصبها سوى حضور الغرائز. غرائز لا يمكن إلاّ أن تذهلها النتائج التي تؤدّي إليها تأمّلاتنا وخيباتُنا، فإذا هي تردّ الفعل. إلاّ أنّنا وقد اكتسبنا وعيا بحريّتنا، سادةُ قرار تتضاعف جاذبيّته بقدر إحجامنا عن إنفاذه. قرار يجعلنا نتحمّل النهارات، والليالي تحديدا. لم نعد فقراء ولا مسحوقين: نحن نمتلك موارد قصوى. وهَبْ أننا لن نستغلّ تلك الموارد أبدا ولن نعرف غير نهاية تقليديّة: يكفينا أننا امتلكنا كنزا فيما تخلّينا عنه. هل من ثروة أكبر من الانتحار الذي يحمله كلّ منا في ذاته؟

إذا كانت الأديان قد منعتنا من أن نموت بإرادتنا، فلأنّها

رأت في ذلك مثالا على العصيان الذي يهين المعابد والآلهة. أحد مجامع أورليان[1] اعتبر الانتحار خطيئة أخطر من الجريمة، لأنّ المجرم يمكن أن يتوب ويخلص أما قاتل نفسه فقد تخطّى حدود الخلاص. لكن، ألا ينطلق فعل الانتحار من صيغةٍ راديكاليّة للخلاص؟ والعدم، أليس في قيمة الأبديّة؟ لا يحتاج الكائنُ وحيدًا إلى محاربة الكون فهو لا يوجّه الإنذار إلاّ إلى نفسه. إنّه لا يرغب في المزيد من **الكينونة** إلى الأبد، ما دام قد استطاع عن طريق فعلٍ لا يُضاهَى، أن يكون نفسَهُ **بشكل مُطلق**. إنّه يرفض السماء والأرض كما يرفض نفسه. هكذا على الأقل يبلغ حرّيةً كاملة ليست في متناول من يبحث عنها إلى ما لا نهاية في المستقبل...

لم تستطع كنيسة ولا بلديّة أن تبتكر حتى الآن حجّة واحدة مقبولة ضدّ الانتحار. بماذا يُرَدُّ على من لم يعد قادرًا على تحمّل الحياة؟ ليس في وسع أحد أن يحمل عن الآخر أعباءه. وما القوّة التي يتوفّر عليها المنطق الجدليّ في وجه هجوم الهموم التي لا تُرَدُّ وضدّ آلاف البداهات التي لا عزاء لها؟ الانتحار هو إحدى الخصائص المميّزة للإنسان وأحدُ اكتشافاته. عجزت عنه الدوابّ

---

(١) مجمع أورليان الثاني (٥٣٣ أو ٥٣٦). ويعزو البعض هذا الموقف إلى حرص الكنيسة على التباين مع «إرث» الرومان الذين كانوا يرون في انتحار اليائس حلاّ مقبولا ومخرجًا مشرّفا، وفي انتحار المجرم نوعًا من التكفير عن الذنب...

وبالكاد خمّنته الملائكة. لولاه لكان الواقع البشريّ أقلّ جاذبيّة وأقلّ إثارة للفضول، ولافتقر إلى مناخ غريب وإلى سلسلة من الإحتمالات المهلكة، التي لها قيمتها الجماليّة، على الأقلّ كي تُقحِمَ في التراجيديا حلولا جديدة ومجموعة متنوّعة من النهايات.

الحكماء القدامى الذين كانوا يتعاطون الموت برهنة على نضجهم، ابتكروا فرعا معرفيّا في الانتحار تعمّد المُحْدِثُون تناسيه. أمّا وقد نُذرنا إلى احتضار بلا عبقريّة، فها نحن لا مؤلّفو أطرافنا، لا حسباء وداعاتنا. لم تعد النهاية **نهايتنا**. بتنا نفتقر إلى تميّزِ مبادرةٍ فريدة، بواسطتها نكفّر عن حياة بلا طعم ولا موهبة، افتقارَنا إلى السينيزم الرائع الذي يمثّل الأبّهة القديمة لفنّ الهلاك. اعتدنا اليأس، فإذا نحن جثث يَقبَلُ بعضُها ببعض، نعيش جميعا بعدَ وفاتنا ولا نموت إلاّ إتمامًا لمهمّة شكليّة بلا فائدة. كأنّ حياتنا لم تتعلّق إلاّ بإرجاء اللحظة التي يمكننا فيها أن نتخلّص منها.

الملائكة الرجعيّون

---------------- من الصعب أن نُصدِر حُكْما على انتفاضةِ الملاك الأقلّ تفلسُفًا دون أن نمزج في حُكْمِنا بين التعاطف والدهشة والشّجب. الظلمُ يَحكُمُ الكون. كلُّ ما يُبنَى فيه ويُنقَضُ يَحمِلُ بصمةَ هشاشةٍ قذِرة، كأنّ المادّة ثمرةُ فضيحةٍ في

قلب العدم. ليس من كائن إلاّ وهو يقتات باحتضارِ كائنٍ آخر. تنقضُّ اللحظات على أنيميا الزمن مثل مصّاصي دماء. - العالمُ وعاءٌ للنشيج. . .

في هذا المسلخ يصبح التشابك بالأذرع وإشهار السيوف حركات متساوية في اللاجدوى. لا قدرة لأيّ ثورانٍ رائع أن يرُجّ الفضاء أو يسمو بالأرواح. تتوالى الانتصارات والإخفاقات وفْق قانون مجهول يحمل اسم **القدر**.

اسم نلجأ إليه كلّما بدت لنا إقامتنا في هذا العالم أو في أيّ مكان، وقد جُرِّدنا من الفلسفة، معضلةً بلا حلّ، شبيهةً باللعنة غير المنطقيّة وغير المستحقّة التي لابدّ من تحمُّلها. القدر - الكلمة المفضّلة في مصطلحات المهزومين. . . نتلهّف على تصنيفٍ لِما لا يُمكن إصلاحُه، فنبحث عن بعض التخفيف في الابتكار اللغويّ، في بعض الأضواء المتدلّية على كوارثنا. الكلمات رحيمة: يخدعنا واقِعُها الهشّ ويواسينا. . .

هكذا يكون «القدر» الذي لا يمكن أن يريد شيئا، هو الذي أراد ما يحدث لنا. . . نولع باللا عقلانيّ باعتباره طريقة الشرح الوحيدة، فننظر إليه وهو يُثقِلُ ميزان مصيرنا، الذي لا يزن إلاّ عناصر سلبيّة من نفس الطبيعة. من أين نستخرج الكبرياء كي نستفزّ القُوى التي قرّرت للكبرياء أن تكون، ولم تكتف بذلك بل أعفت

نفسها من المسؤوليّة عن ذلك القرار؟ ضدّ من نَقُود المعركة وعلى أيّ جهةٍ نشُنُّ الهجوم حين يُحاصِرُ الظلمُ هواء رئاتنا، فضاء أفكارنا، صمت الكواكب وذهولها؟ لا تقلّ انتفاضتنا سُوءَ تصوُّرٍ عن العالم الذي يثيرها. كيف يسعنا الاضطلاع بواجب إصلاح الأخطاء إذا كنّا مُنهَكِين - مثْل دون كيخوت على فراش موته - وقد بَلَغْنا مُنتهى الجنون وفَقَدْنا الهمّة والوهم اللازِمَيْنِ لمجابهة الدروب والمعارك والهزائم؟ وكيف نعثر من جديد على نضارة الملاك المتمرّد، هو الذي كان بعدُ في بداية الزمن، ولم يعرف هذه الحكمة الوبائيّة التي تختنق فيها صبواتُنا؟ من أين نستقي ما يكفي من القريحة والغرور لإذلال قطيع الملائكة الآخرين، في حين أنّ اتّباع زملائهم في هذا العالم السفليّ يعني المزيد من الاندفاع إلى أسفل، وفي حين أنّ ظلم البشر يحاكي ظلم الربّ، وأنّ من شأن كلّ تمرّد أن يضع الروح في مواجهة اللامتناهي ويحطّمها عليه؟ الملائكة النكرات، المنطوون تحت أجنحتهم الخالدة، المنتصرون المنهزمون أبدا في الربّ، اللامبالون ببواعث الفضول الضارّة، الحالمون بالتوازي مع مراسم الحداد الأرضيّة، من يستطيع إيذاء الملائكة المجهولين وإفساد نومهم؟ التمرّد، فخر السقوط، لا يستمدّ نُبْلَهُ إلاّ من لا جدواه: توقظه الآلام ثمّ تتخلّى عنه، تهيّجه الحماسة وتنكره الخيبة... لا يمكن أن يكون للتمرّد معنى في كونٍ غير صالح.

(لا شيء في مكانه في هذا العالم، بدايةً من العالم نفسِه. لا

وجوب إذن للعجب من مشهد الظلم البشريّ. من العبث كذلك أن نرفض أو نقبل النظام الاجتماعيّ: علينا أن نتحمّل كلّ تغيير في اتجاه الأفضل أو الأسوأ بامتثاليّة يائسة، كما نتحمّل الولادة والحبّ والطقس والموت. التحلُّل يحكم قوانين الحياة. نحن أقرب إلى غبارنا من قرب الأشياء الجامدة إلى غبارها، لذلك نستسلم قبلها ونركض في اتّجاه قدرنا تحت أنظار النجوم التي تبدو عصيّة على التدمير. إلاّ أنّ النجوم نفسها ستتفتّت في كون يأخذُه قلبُنا وحدَهُ على محمَل الجِدّ، كي يكفّر بعد ذلك بالعذاب عن افتقاره إلى السخرية...

لا أحد في وسعه إصلاح ظلم الربّ والبشر: يبدو كلّ فعلٍ منظّما بينما هو حالة خاصّة من الفوضى الأصليّة. نحن مسحوبون عن طريق دوّامة تعود إلى فجر الأزمنة، وإذا اتّخذت هذه الدوّامة هيئة النظام، فما ذلك إلاّ كي تحملنا بشكل أفضل...)

هاجسُ الحياء

--------------- يلدغ الألمُ اللحمَ فيستيقظ، مادّةً شفّافةً غنائيّة تترنّمُ بانحلالها. تظلُّ هانئةً في غفلة العناصر ما لم يُتح تمييزُها عن الطبيعة: لم تستول عليها الأنا بعد. تتألّم المادّة فتتحرّر من الجاذبيّة، تكفّ عن التضامن مع بقيّة الكون، تنعزل عن

الكلّ النعسان، لأنّ الألم كعامل انفصال، وكمبدأ نشِطٍ للتفرُّد، ينفي ملاذّ المصير الإحصائيّ.

الكائن الوحيد حقًّا ليس ذاك الذي تخلّى عنه البشر، بل هو ذاك الذي يتألّم بينهم، جارّا صحراءه في الأسواق، عارضًا مواهبه كمجذوم بَاسِمٍ، وككُومِيديان فيما لا يمكن إصلاحه. كان متوحّدو الأمس الكبار سعداء، لا يعرفون الخداع، لا شيء لديهم يخفونه، لا يتعاملون إلاّ مع وحدتهم الخاصّة...

لا يوجد في كلّ ما يربطنا بالأشياء رابطٌ وحيدٌ لا ينحلّ ولا يتلاشى بفعل الألم، الذي يحرّرنا من كلّ شيء، إلاّ من هوسنا بأنفسنا ومن إحساس كلّ منّا بأنّه فردٌ لا رجعة فيه. إنّها الوحدة وقد تقمّصت الماهيّة. من ثمّ كيف يمكن التواصل مع الآخرين إن لم يكن عن طريق شعوذات الكذب؟ لأنّنا لو لم نكن مهرّجين، لو لم نتعلّم حِيل الدجل المتقن، وأخيرًا لو لم نكن صادقين إلى درجة الصفاقة أو التراجيديا، لكانت عوالمُنا السفليّة قد تقيّأت محيطات من الحقد، يكون منتهى الشرف بالنسبة إلينا أن نغرق فيها: هكذا يمكننا الإفلات من حرج الكثير من البَشِع والكثير من الرائع.

ما إن نبلغ درجةً مُعيّنةً من التعاسة حتى تصبح كلُّ صراحةٍ قليلة الحياء. لقد توقّف أيّوب في الوقت المناسب. لو قطع خطوة أخرى لما ردّ عليه أحدٌ بعد ذلك، لا ربُّه ولا أصحابُه.

(نحن «متحضّرون» بقدر ما لا نجهر بجذامنا، وبقدر ما نبرهن على احترامنا الزيفَ الأنيق الذي نحتته القرون. لا أحد يملك الحقّ في أن ينوء بعبء ساعاته... يشتمل كلُّ إنسان على إمكانيّةِ قِيامة، إلاّ أنّ على كلّ إنسان أن يلتزم بِردْمِ هُويّهِ الخاصّة. لو أرخى كلٌّ منّا العنان لوحدتهِ لكان على الربّ أن يخلق من جديد هذا العالم، الذي يعتمد في كلّ تفاصيله على تربيتنا وعلى خوفنا من أنفسنا... - الكاوس؟ - أن نرفض كُلّ ما تعلّمناه، أن نكون أنفسنا...)

تركيبةُ الفراغ

---------------- رأيتُ هذا يسعى إلى غاية وذاك يسعى إلى أخرى. رأيتُ البشر مفتونين بأشياء متباينة بتأثيرٍ من مشاريع وأحلام خسيسة كلّها وغير قابلة للتحديد. حلّلتُ كلّ حالة لوحدها، للنفاذ إلى أسباب كلّ هذه الحماسة المبذّرة، فأدركتُ لا معنى كلّ حركة وكلّ جهد. هل توجد حياةٌ واحدة غير مشبعة بالأخطاء التي تدفع إلى الحياة؟ هل توجد حياة واحدة صافية، شفّافة، بلا جذور مُذِلّة، بلا دوافع مُختَرَعة، بلا تلك الأساطير المنبثقة من الشهوات؟ أين هو الفعل الخالص من كلّ جدوى؟ الشمس التي تمقت التوهّج؟ الملاك المتجوّل في كون بلا عقيدة؟ أو الدودة العاطل عن العمل في عالم متروك للخلود؟ أردتُ أن

أدافع عن نفسي ضدّ كلّ البشر. أن أردّ على جنونهم، أن أكتشف مصدره. أنصتُّ ورأيتُ - فانتابني الخوف. الخوف من أن أتصرّف بتأثير من الدوافع نفسها أو بتأثير من أيّ دافع كان. الخوف من أن أؤمن بالأشباح نفسها أو بأيّ شبح آخر. الخوف من أن أسمح لنفسي بالغرق في نفس السكرات أو في أي سكرة أخرى. الخوف أخيرًا من الهذيان الجماعيّ، ومن أن ألفظ أنفاسي الأخيرة في حشد من حالات الوجد. - كنتُ أعلم أنّي حين أنفصل عن أحد الكائنات فإنّي أُجَرِّدُ من غلط، وأفتقر إلى الخديعة التي أتركها له... عباراته المحمومة تكشف عنه حبيسًا في بداهةٍ مطلقة بالنسبة إليه وتافهة بالنسبة إليّ، أصطدم بعبثيّتها فأنسلخ من عبثيّتي... بمن نؤمن دون أن نحسّ بأنّنا نخطئ ودون أن نشعر بالخجل؟ لا نجد مبرّرًا إلاّ لمن يمارس **في كامل وعيه**، اللامعقولَ الضروريّ لكلّ فعل، ولا يُجمِّلُ بأيّ حُلْمٍ الخُرافةَ التي ينغمس فيها، كما لا يمكننا الإعجاب إلاّ بالبطل الذي يموت بلا قناعة، وقد استعدّ إلى التضحية بقدر ما كان يستشفّ مضمونها. أمّا العشّاق فسيكونون بغيضين إذا لم يراودهم الإحساس بالموت وهم في ذروة تكشيراتهم. إنّ من المربك التفكير في أنّنا نحمل سرّنا أو وهْمنا إلى القبر - في أنّنا لم ننج من الخطأ الملغز الذي كان ينعش أنفاسنا، في أنّ الجميع باستثناء البغايا والشكّاكين، يغرقون في الكذب لأنّهم لا يُدركون التكافؤ في البطلان بين المُتع والحقائق.

أردتُ أن ألغي في نفسي كلّ سبب يتذرّع به البشر كي يُوجَدُوا

ويتصرّفوا. أردتُ أن أصبح عاديًّا بشكل لا يوصف. وها أنا في البلادة على صعيدٍ واحدٍ مع البُلْه، خاوٍ مثلهم.

في بعض الصباحات

-------------- يؤسفني أنّي لستُ الأطلس. أنّي لستُ قادرًا على هزِّ كتِفيَّ لأشاهدَ انهيارَ هذه المادّة المُضحِكة. يتبع الغيظُ دربًا معاكسًا لعلم نشأة الكون. ما السرُّ الذي يجعلنا نستيقظ في بعض الصباحات عطشانين إلى تدمير الكُلّ الجامد والحيّ؟ ما إن يَغْرَقَ الشيطانُ في أوردتنا، ما إن تتشنّجَ أفكارُنا وتفلقَ شهواتُنا النُّور، حتّى تلتهب العناصرُ وتتلاشى، بينما أصابعُنا تنْخلُ رمادَها.

أيَّ الكوابيسِ غَذَّيْنَا بِلَيْلٍ كي ننهضَ أعداء للشمس؟ هل يكونُ علينا أن نُصَفِّيَ أنفسنا كي نتخلّصَ من الكُلّ؟ ما الشراكةُ أو الروابطُ التي تمتدُّ بنا في أُلْفةٍ مع الزمن؟ لا تُطاقُ الحياةُ من دونِ القُوى التي تَنْفِيها. لكنّ امتلاكَ مَنْفَذٍ ممكن، امتلاكَ **فكرة** الهرب، قد ييسّر علينا أن نلغي أنفسنا، وإذا ذهبنا بالهذيان إلى منتهاه، أن نتنخّمَ هذا الكون...

وإلاّ فما علينا سوى أن نصلّي في انتظار صباحات أُخرَى.

(ما كانت الكتابةُ لِتَبْدُوَ سوى فعلٍ بلا طعم ولا فائدة لو كان في وسعنا أن نبكي على هوانا، وأن نقلّد النساء والأطفال متى استبدّ بهم الغضب... في المادّة التي جُبِلْنَا منها وفي دنَسِها الأعمق يُوجَدُ مبدأُ المَرارة التي لا تُخفّف منها إلاّ الدموع. لو كان في وسعنا كلّما داهمتنا الهموم أن نتخلّص منها بالبكاء لمَا بَقِيَ شيءٌ من الأمراض الغامضة والشعر. إلاّ أنّ تردُّدًا فطْريًّا استفحلَ بفعل التربية أو جرّاءَ اختلالٍ في عمَلِ الغُدَد الدمعيّة، حَكَمَ علينا بعذاب العين الجافّة. زدْ على ذلك أنّ الصرخات وسَيْلَ الشتائم وتعذيب الجسد والأظفار المغروزة في اللحم، وليس من مؤاسٍ سوى مشهد الدم، لم تَعُدْ مِنْ بين أساليبنا العلاجيّة. نَتَجَ عن ذلك أنّنا كلّنا مرضى، أنّ كُلاًّ منّا يحتاج إلى صحراء يُولولُ فيها كما يشاء، أو إلى ضفافِ بحرٍ رثائيّ زاخر نمزجُ في عَوِيلِهِ الهائج عَوِيلَنا الأكثر هيَجانًا. إنّ سوراتِنا تستوجبُ إطارًا من السُّمُوّ الكاريكاتوريّ. من اللامتناهي السَّكْتِيّ. مشهد شَنْقٍ تكون فيه لِلقُبّة الزرقاء وظيفةُ المشنقة بالنسبة إلى هياكلنا العظميّة وبالنسبة إلى العناصر.)

الحِدادُ المُنشَغِل

------------- الحقائقُ كُلُّها ضِدَّنا. لكنّنا نستمرّ في العيش لأنّنا نتقبّلُها في ذاتها. لأنّنا نرفض أن نستخلص نتائجها. أين هو ذاك الذي تَرْجَمَ - في سلوكه - نتيجةً واحدةً من النتائج

التي أفاده بها عِلْمُ الفَلَك أو البيولوجيا، فقرّرَ ألاّ يُغادِرَ فِراشهُ، تمرُّدًا أو تواضُعًا أمام مسافاتٍ نَجْمِيّة أو ظواهر طبيعيّة؟ هل وُجِدَتْ أصْلاً كبرياءٌ هزَمتْها بداهةُ كونِنَا لا حقيقيّين؟ وهل ثمّة من كان جريئًا بما يكفي كي يَكُفَّ عن عمل أيّ شيء لأنّ كلّ عملٍ تافهٌ في اللامتناهي؟ العُلومُ تبرهنُ على عَدَمِنا. لكنْ من الذي أدركَ دَرْسَها الأخير؟ من الذي أصبح بطلَ الكسل الكُلّي؟ لا أحد يَكْتف يديه. نحن أكثر عَجَلةً من النمل والنحل. لكن لو حصلت معجزة وأُتيح لنملةٍ أو نحلةٍ أن تفكّر أو أن ترغب في التميّز، فانعزلت في المنملة أو في الخليّة لتتأمّل **من الخارج** مشهدَ عنائها، هل كانت تواصل التشبُّثَ بالعناء؟

وحْدَهُ الحيوانُ العقلانيّ لم يتعلّم شيئًا من فلسفته: إنّه يضع نفسه جانبًا - مثابرًا مع ذلك على ارتكاب الأخطاء نفسها: المظهر الناجع والحقيقة الباطلة. لم تعُد الحياةُ ممكنةً ولا حتّى قابلةً للتصوّر. هكذا تبدو بكلّ عقائدها حين ننظر إليها من الخارج مهما كانت زاوية النظر. ليس في وسعنا العمل إلاّ ضدَّ الحقيقة. يعيد الإنسانُ الكَرّةَ كلّ يومٍ رغم كلّ ما يعرف ضدّ كلّ ما يعرف. لقد دفع بهذه الالتباس إلى حدّ الرذيلة. باتت البصيرةُ في حداد، لكن، ويا للعدوى الغريبة، لا يخلو هذا الحداد نفسُه من نشاط. هكذا بِتْنَا منقادين في موكب إلى الدّينونة. هكذا صنعنا من المرقد الأخير نفسِه، من الصمت النهائيّ للتاريخ، نشاطًا: إنّه إخراج الاحتضار. الحاجة إلى الحيويّة حتى في النزْع الأخير.

(الحضاراتُ اللاهثةُ أسرع إنهاكًا لنفْسِها من تلك التي تسترخي في الأبديّة. وحدَها الصين بازدهارها في ذروة شيخوختها تُقَدِّمُ نموذجًا يُقتدَى به. هي الوحيدة أيضًا التي بلغت منذ آلاف السنين حكمةً مُرْهفة أرقى من الفلسفة: الطاويّة تتفوّق على كلّ ما تَصوَّرَهُ الفكرُ على صعيد الزهد. نحنُ نحسب بالأجيال. تلك لعنةُ الحضارات العريقةِ بالكاد: أن تخسر في إيقاعها المتسارع الوعيَ اللازمانيّ.

من البديهيّ أنّنا موجودون في العالَم كي لا نفعل شيئًا. إلاّ أنّنا نتصبّب عرقًا وننفثُ أنفاسنا في الهواء النتن، عوضًا عن أن نجرجر عفننا بلا اكتراث. التاريخ كلّه في حالة تفسُّخ، تنتقلُ روائحُ عفونته في اتّجاه المستقبل، فنركض ناحيتَهُ ولو من أجل الحمّى الملازمة لكلّ انحلال.

لقد فوّتت الإنسانيّةُ على نفسِها أوانَ التحرُّر من وهم الفعل، وفوّتت خاصّةً أوانَ الارتقاء إلى قدسيّة البطالة.

مناعةٌ ضدّ التخَلّي

---------------- كلُّ ما لَهُ صِلةٌ بالأبديّة ينقلبُ حتْمًا إلى فكرة مبتذلة. ينتهي الأمر بالعالَم إلى تقبُّل أيِّ كَشْفٍ وإلى التسليم بأيّ رعشةٍ شريطةَ أنْ يُهتدَى إلى صِيغتها. فكرةُ التفاهة الكونيّة وهي أخطر البَلايَا كافّةً، انحطّت إلى بداهةٍ يُسَلِّمُ بها

الجميع ولا أحدَ يمتثل لها. تمّ ترويضُ الرعب من الحقيقة النهائيّة فإذا هو لازمةٌ غنائيّة كفّ البشر عن التفكير فيها، لأنّهم حفظوا عن ظهر قلبٍ ما لو تبيّنوه لكان من شأنه أن يدفعهم إلى الهاوية أو إلى الخلاص. رؤيةُ بُطلان الزمن هي التي سمحت بولادة القدّيسين والشعراء، إضافةً إلى يأس بعض المعزولين المُولعين باللعنة. . .
هذه الرؤية ليست غريبة عن الحشود، فالحشود ما انفكّت تكرّر: «ما الجدوى من هذا؟»، «ما تأثيره؟». «سنرى منه الكثير»، «كلّما تغيّرت الأمور تشابهت أكثر». وعلى الرغم من ذلك لا شيء يحدث، ولا أحد يتدخّل، لا قدّيس ولا شاعر. لو عملت الحشود بمضامين هذه العبارات الرتيبة لتغيّر وجهُ العالَم. لكنّ الأبديّة المنبثقة من تفكير مُضادٍّ للحيويّة، لا يسعها أن تكون ردَّ فعلٍ بشريّ لا خطر فيه على ممارسة الأفعال: من ثمّ تصبح فكرةً مبتذلة كي يمكننا نسيانها في تكرارٍ آليّ. القداسةُ مغامرةٌ مثل الشعر. يقول البشرُ «كلُّ شيء عابر»، لكنْ كَمْ مِنهُم يُدرِكُ أبعادَ هذه البداهة المرعبة؟ كم منهم يهرب من الحياة متغنّيًا بها أو راثيًا لها؟ من منهم ليس مقتنعًا حدّ التشبّع بأنّ الكلّ باطل؟ لكن من منهم يجرؤ على تحمّل تبعات ذلك؟ الإنسانُ ذُو المَيْلِ الطبيعيِّ إلى الميتافيزيقا أندَرُ من الوحش، ومع ذلك فإنّ كلّ إنسان يحمل افتراضيًّا عناصر هذا الميل. لم يحتج أميرٌ هندوسيّ إلى أكثر من أن يرى مريضًا وشيخًا وميتًا كي **يفهم كلّ شيء**. أمّا نحن فنراهم دون أن نفهم، لأنّ حياتنا لا يطالها أيّ تغيير. نحن لا نستطيع أن نتخلّى عن أيّ شيء مهما كان، في حين أنّ أمارات الغرور على مرأى ومسمع.

مَرضْنَا بالأمل فإذا نحن ننتظر على الدوام، وليست الحياة سوى الانتظار وقد تحوّل إلى أُقنوم. نُفضّل أن ننتظر كلّ شيء، حتّى اللاشيء، عوضًا عن أن نقتصر على إرجاءٍ أبديّ، على شَرْطِ أُلُوهَةٍ مُحايدة، أو على مَقامِ جثّة. هكذا يتّخذ القلب ممّا لا يُمكنُ إصلاحُه مُسَلّمةً أساسيّة، ثمّ يصرُّ على توقُّع المزيد من المفاجآت ممّا لا يمكن إصلاحه. إنّ البشريّة تعيش بعشقٍ في الأحداث التي تُلغِيها...

توازُنُ العالَم

------------------ التناظُرُ الظاهرُ للأفراح والأتراح ليس ناجمًا في شيء عن توزيعها العادل، بل هو نتيجة الظلم الذي يلحق ببعض الأشخاص فيضطرّهم إلى التعويض بمعاناتهم عن لاَمُبالاةِ الآخرين. أن يتحمّلوا تبعات أفعالهم أو أن يُحْمَوا من ذلك، ذاك هو نصيب البشر. يتمّ هذا التمييز من دون أيّ معيار. إنّه قَدَرٌ محتوم، قسمةٌ ضيزَى، انتقاءٌ غريب. ليس في وسع أحد أن يتفادى القضاء النازل بالسعادة أو بالشقاء، ولا أن يتهَرَّبَ من الحُكم الخِلْقِيّ، من المحكمة البهلوانيّة التي يَمتدُّ قرارُها من الحُيَيّ المنويّ إلى القبر.

ثمّةَ من يدفعون ثمن كلّ أفراحهم. يُكفِّرون عن كلّ ملذّاتهم.

يُحاسَبون على كلّ نسيانٍ لهم. لن يدين لهم أحد أبدًا بلحظةٍ واحدة من السعادة. لا تعتريهم رعشةُ متعة إلاّ تُوِّجت بألف حسرة. كأنّهم لا يملكون الحقَّ في أيٍّ من الأطايِب المقبولة. كأنّ أيّ استرخاء من قِبَلهم يضع توازُن العالَم في خطر. ما إن يهتزّوا لمشهد طبيعيّ حتى تداهمهم الهموم فإذا هم نادمون. ما إن يفخروا بمشروع أو حلم، حتّى يستيقظوا بسرعة، كأنّهم يخرجون من يوطوبيا، وقد أدّبتهم آلامٌ واقعيّةٌ إلى حدٍّ لا يُطاق.

ثمّة هكذا أشخاصٌ مُضحّى بهم، يدفعون ثمن طيش الآخرين ولا يكتفون بالتكفير عن سعادتهم بل يكفّرون أيضًا عن سعادةِ من لا يعرفون. بهذه الطريقة يُستعاد التوازن. تتناغم نِسَبُ المسرّات والأحزان. لو قُدِّرَ عليكم الانتساب إلى سلْك الضحايا لظللتم طيلة حياتكم تدوسون بأرجلكم على القليل من الفردوس الذي أخفيتم فيكم، فإذا القليل من الاندفاع المنبعث من نظراتكم وخواطركم مَشُوبٌ بدَنَس الزمن والمادّة والبشر. لا قاعدةَ تنطلقون منها غير الزبل ولا منبرَ تقفون عليه غير عتاد التعذيب ولستم جديرين إلاّ بمجدٍ مجذومٍ وتاجٍ من اللعاب. لو حاولتم السير بمحاذاة أولئك الذين يجدون الأشياء كلّها مُستَحقَّةً والدروبَ كُلَّها مفتوحةً، لانتصب الغبارُ والرمادُ نفسُه كي يَسُدَّ في وجوهكم منافذَ الزمن ومخارج الحلم. حيثما تتّجهون تتعثّر خطاكم ولا ترتفع أصواتكم إلاّ بأناشيد الوحل. بينما تنحني رؤوسكم على قلوب لم يعد يسكنها غير الرثاء لأنفسكم، فتعبر من فوقها بالكاد أنفاسُ

الرّاضين، أولئك الذين لا يقلّون عنكم براءة حتى وهم لُعَبٌ مباركة بين يَدَيْ سخريةٍ لا تُسَمَّى.

وداعًا للفلسفة

--------------- أعْرَضْتُ عن الفلسفة لحظةَ استحالَ عليَّ أن أعثر لدى كانط ولدى الفلاسفة كافّةً، على أيّ ضعفٍ بشريّ أو نبرةِ حزن حقيقيّة. بالمُقارَنةِ مع الموسيقى والتصوّف والشعر، يمتحُ النشاطُ الفلسفيُّ مِنْ نسغٍ شحيح وعمقٍ مشبوهٍ، لا يُعجَبُ بهما إلاّ الوَجِلُون بارِدُو الهِمّة. فضلاً عن أنّ الفلسفة كقلقٍ لا شخصيٍّ ولُجُوءٍ إلى أفكار مُصابة بفقر الدم، لا يلوذ بها إلاّ المتهرّبون من الحيويّة المفرطة التي تفسد الحياة. الفلاسفةُ كلّهم تقريبًا عرفوا نهايات سعيدة: تلك أقوى حجّة ضدّ الفلسفة. ليس في نهاية سقراط نفسِه أيّ شيء تراجيديّ. إنّه سوءُ تفاهم. نهايةُ بيداغوجيٍّ. وإذا كان نيتشه قد جُنّ فهو جنون شاعرٍ وراءٍ: لقد كفّر عن شطحاته لا عن استدلالاته.

ليس في وسعنا أن نتلافَى الكينونة عن طريق الشروح. بل لا يَسَعُنا إلاّ أن نُكابِدَها، أن نحبّها أو نكرهها، أن نعبدها أو نخشاها، في ذلك التناوب بين الغِبطة والرعب الذي يعبّر عن حقيقة إيقاع الكائن، بتقلّباته وتنافُرِ نغماته وسَوْراتِهِ اللاذعة والمرحة.

مَنْ مِنّا، وقد تعرّضَ وُجوبًا أو بشكل مفاجئ إلى هزيمةٍ دامغة، لم يرفع يديه بالدعاء كي يرخيهما بعد ذلك فارغتين أكثر من أجوبة الفلسفة؟ لكأنّ مهمّة الفلسفة تتمثّل في حمايتنا طالما سمحت لنا غفلةُ القدر بالسير على حافة الارتباك، وفي إهمالنا ما إن نرتمي فيه. ممارسةُ الفلسفة ليست مُخصبة. إنّها مشرّفة لا غير. لا عِقاب للفيلسوف حتّى الآن: إنّها مهنة بلا مصير، تملأ بالأفكار الضخمة الساعاتِ المحايدة والفارغة، الساعاتِ العصيّة على العهد القديم وعلى باخ وشكسبير. هل تجسّدت هذه الأفكار في صفحة واحدة تُضاهي صرخة أيّوب، أو ذعر ماكبث، أو سُمُوَّ مقطوعة موسيقيّة؟ الكَوْنُ ليس موضوعَ جدل. الكونُ موضوعُ تعبير. والفلسفة لا تعبّر عنه. لا تبدأ المسائل الحقيقيّة إلاّ بعد أن نكون قد جُبْنَا الفلسفةَ أو استنفدناها، بعد الفصل الأخير من جزء هائل، يضعُ نقطةَ النهاية علامةً على الاستسلام أمام المجهول الذي تتجذّر فيه لحظاتُنا كلُّها، والذي يجب أن نتصارع معه لأنّه بطبعه أكثر راهنيّة وأهمّ بكثير من الخبز اليوميّ. هُنا يغادرنا الفيلسوف: إنّه عَدُوُّ الكارثة. وهو حصيفٌ كالعقل حَذِرٌ مثلَه. مِنْ ثَمَّ نظلُّ صحبةَ موبوء قديم، وشاعر تعلّم كلّ أنواع الهذيان، وموسيقِيٍّ يسمُو الرائعُ لديهِ بدائرة القلب. نحنُ لا نشرع في العيش حقًّا إلاّ عند نهاية الفلسفة وعلى أنقاضها، حين نكون قد فهمنا بُطلانها المريع، ولا جدوى اللجوء إليها، وكونَها ليست مصدرَ أيّ نجدة.

(الأنساقُ الفلسفيّة الكبيرة ليست في نهاية المطاف سوى لغْوٍ

لامع. ما فائدة أن نعرف أنّ طبيعة الكائن تتمثّل في «إرادة العيش»، في «الفكرة» أو في «الخيال» الراجِعَيْنِ إلى الإله أو إلى الكيمياء؟ مجرّد تكاثر كلمات. نقلات خفيّة للمعنى. إنّ ما هُوَ ينفرُ من العناق الشفهِيّ. والتجربةُ الحميمة لا تكشف لنا منه عن شيء أبعد من اللحظة المميّزة التي لا يمكن التعبير عنها. فضْلاً عن أنّ الكائن نفسَه ليس سوى زَعْمٍ من مزاعم اللاشيء.

نحنُ لا نُعَرِّف إلاّ عن يأس. لا بُدّ من صيغة. بل لا بُدّ من صِيَغٍ كثيرة، على الأقلّ كي نُقدّمَ مُبرِّرًا للفكر وواجهةً للعدم.

لا المفهوم ولا الشطحُ من ذوي الأثَر. قد تغوص بنا الموسيقَى في «أغوار» الكائن، لكنّها سرعانَ ما تطفو بنا من جديد على السطح: تتبدّد آثارُ الوهم ويتّضح بطلانُ المعرفة.

الأشياء التي نلمسها وتلك التي نتصوّرها لا تقلُّ بُعْدَ احتِمالٍ عن حواسِّنا وعقلنا. نحن لا نكون واثقين إلاّ داخِلَ عالَمِنَا الشّفهيّ، سَلِسِ القياد عديم النجاعة. الكائن أبكم والفكر ثرثار. ذاك ما يُسمّى **الإدراك**.

تقتصر أصالة الفلاسفة على ابتكار مصطلحات. ولمّا لم نكن نملك سوى وضعين أو ثلاثة في مواجهة العالم، والعددَ نفسَه تقريبًا من طُرُق مواجهة الموت، فإنّ الفويرقات التي تجعل الفلاسفة يتنوّعون ويتكاثرون، ليست سوى اختيار ألفاظٍ بعيدًا عن أيّ مغزى ميتافيزيقيّ.

نحنُ مُغَيَّبُونَ في كونٍ حَشْوِيّ، تتعادلُ فيه الأسئلة والأجوبة.)

-------------- الاستهزاءُ انْحَطَّ بكلّ شيء إلى مرتبة الذّريعة، باستثناء الشمس والأمل، شَرْطَي الحياة: كوكب العالم وكوكب القلب، ذاك الساطع وهذا الخفيّ. إنّ هيكلاً عظميًّا يتشمّسُ ويترجَّى لأكثرُ حيويّة من أقوى هِرَقْلٍ تملّكهُ اليأسُ وسئمَ من النّور. ولو أُتيح لكائنٍ أن يَتَقبَّلَ الرجاء بشكلٍ كاملٍ لَصارَ أقْدَرَ من الإله وأكثر حياةً من الحياة. ماكبث الذي «سئم من الشمس»[1] هو آخر المخلوقات، بما أنّ الموت الحقيقيّ لا يتمثّل في التفسّخ بِقَدْرِ ما يتمثّل في عِيَافِ كُلِّ توهُّج، في الاشمئزاز من كُلِّ ما هو مبدأُ حياةٍ ومن كُلِّ ما يتفتّحُ بفعلِ حرارة الوهم. دنّسَ الإنسانُ الأشياءَ التي تُولَدُ وتموتُ تحت الشمس، باستثناء الشمس. الأشياءَ التي تُولَدُ وتموت في الرجاء، باستثناء الرجاء. ولم يجسر على الذهاب أبعدَ ففرَضَ حُدودًا على كَلْبِيّتِه. والحقُّ أنّ الكَلْبِيَّ الذي يدّعي أنّه منطقيّ، لا يكون منطقيًّا إلاّ في أقوالِه، أمّا أفعالُه فإنّها تصنع منه أكثَرَ الكائنات تناقُضًا. ليس في وسعِ أحَدٍ أن يعيش بَعْدَ أن يقضِيَ على خُرافاته. لبُلوغ الكَلْبِيّةِ الكُليّة لا بدّ من جهدٍ مُعاكِس ومُضاهٍ على الأقلّ للجهد المبذول من أجل بلوغ القداسة. وإلاّ كان علينا أن نتخيّل قدّيسًا يبلغ ذروة تطهُّره، ثمّ إذا هو يكتشف سُخْفَ إلهِه وبطلان ما تجشّم من عناء. . .

---

(١) أورد سيوران العبارة بالإنجليزيّة (aweary of the sun) كما جاءت في المسرحيّة.

إنّ من شأن وحشٍ بمثل هذه البصيرة أن يغيّر معطيات الحياة: سيكون له من القوّة والسلطة ما يكفيه كي يضع شروط كينونته نفسها موضع السؤال. لن يعرّض نفسَهُ للتناقُض من جديد. لن يستطيع أيّ ضعف بشريّ أن يُوهِنَ جراءته. سيكون في وسعه، وقد تخلّص من التوقير الدينيّ الذي نعامل به مُكرَهينَ أوهامَنا الأخيرة، أن يهزأ بقلبهِ وبالشمس.

عودة إلى العناصر

-------------- لو لم تُحقّق الفلسفةُ أيّ تقدّم منذُ ما قَبْل السقراطيّين لما وُجِدَ أيّ سببٍ للتذمُّر منها. يُرْهِقَنا رُكام المفاهيم إلى أن نكتشف أنّ حياتنا تضطربُ دائمًا داخل العناصر التي كوَّنَت منها العالم، أنّ التراب والماء والنار والهواء هي التي تُكَيِّفُنا، أنّ هذه الفيزياء البدائيّة هي التي تكشف لنا عن إطار مِحَنِنا وعن مبدأ تباريحِنا. لقد عقّدنا تلك الحفنة من المبادئ الأوّليّة ثمّ وقفنا مشدوهين أمام ديكور النظريّات وعمارتها، فإذا نحنُ نخسر قدرتنا على إدراك المصير الذي ظلّ كما هو بالرغم عن كلّ شيء، لم يتغيّر منذ أيّام العالم الأولى. هكذا اختُزِلَ وُجودُنا في ماهيّته فإذا هو معركةٌ ضدّ العناصر الأزليّة. معركة لا تفلح معرفتنا في التخفيف منها بالمرّة. إنّ أبطالَ كلّ الأوقات ليسوا أقلّ شقاءً من أبطال هومير، وما كانوا ليُصبحوا **شخصيّات** لو لم يفتقروا إلى

طول النَّفَس ولو لم تعوزهم العَظَمة. كيف يمكن لنتائج العلوم أن تغيّر الوضع الميتافيزيقيّ للإنسان؟ وماذا يكون استِبارُ المادّة وملخّصاتُ التحليل وثمارُه بالنسبةِ إلى الترانيم الفِيدِيّة، وبالنسبة إلى أحزانِ فجر التاريخ المبثوثة في الشعر الذي لا يُعرَفُ قائلوه؟

أليس من الجنون أن نطارد الحقيقةَ في دروب الزمن، أو في الكتب، في حين أنّ لحظات الانحطاط الأكثر فصاحةً لا تفيدنا بشيء عن الشقاء أكثر ممّا تفيدنا تمتمةُ راعٍ، وفي حين أنّ الحكمة موجودةٌ في قهقهة أبله أكثر ممّا هي موجودة في بُحُوث المَخابر؟

ليس لاو تسو المُختَزَلُ في قراءات معدودةٍ بأكثرَ سذاجةً منّا وقد قرأنا كلّ شيء. العمقُ مستقلٌّ عن المعرفة. نحنُ نترجم على أصعدةٍ أخرى ما كاشفتنا به العصور الغابرة، أو نستغلّ الحدوس البدئيّة باستخدام آخر مكتسبات الفكر. من ثمّ فإنّ هيغل هو هيرقليطس وقد قرأ كانط، وسأمُنَا هو إيليّةٌ[1] عاطفيّة، أُخْيُولَةُ[2] التنوُّع وقد أُسقِطَ عنها القناع وكُشِفت للقلب...

---

(١) إيليّة: نسبة إلى المدرسة الفلسفيّة التي أسّسها كزينوفانيس، بمدينة إيليا.
(٢) أخيولة: هكذا رأيتُ أن أعرّب كلمة fiction.

---------------- لا يَستخلصُ النتائجَ الأخيرة إلاّ الذين يعيشون خارج الفنّ. الانتحارُ والقداسة والرذيلة كلّها أشكال لانعدام الموهبة. وسواءٌ أكان الاعترافُ عن طريق الكلمة أو النغم أو اللون مباشرًا أو مُموَّهًا، فإنّه يضع حدًّا لتجمُّع القدرات الجوّانيّة ويُنقِصُ من قوّتها بإلقائها إلى العالم البرّانيّ. تنقيصٌ مُفيد لأنّه يجعل من كلّ فعلٍ إبداعيّ عاملاً من عوامل الهَرَب. أمّا الشخص الذي يُراكِمُ الطاقات فهو يعيش تحت الضغط عبدًا لتجاوزاته، ولا شيء يمنعه من الغرق في المُطلَق...

لا وجودَ تقريبًا للكينونة التراجيديّة الحقيقيّة بين أولئك الذين يتقنون إدارة القوى السريّة التي تنهكهم. ومن أين لهم أن يستمدّوا الطاقة الكافية كي يبلغوا أقاصي الأفعال ما داموا يوهنون أرواحهم بعملهم؟

أحدهم بطلٌ تحقّقَ بفضل طريقة موت رائعة لأنّه كان مفتقرًا إلى القدرة على الموت بالتدريج في أبياتٍ من الشعر. ليس من بطولة إلاّ وهي تكفير عن انعدام الموهبة بواسطة عبقريّة القلب. كلّ بطل هو كائن تنقصه الموهبة. وهذا النقصان هو الذي يدفعه إلى الأمام ويُغنيه، بينما يظلّ أولئك الذين استنفد الإبداع ثروتهم التي لا توصف، منبوذين في الخلفيّة، على الرغم من أنّ عقولهم تتيح لهم مرتبةً أرفعَ من الآخرين كافّة.

الآخرُ يقصي نفسه عن صفوف أشباهه بواسطة الدِّير أو بواسطة أيّ خدعةٍ أخرى: المورفين أو الاستمناء أو الشراب، بينما كان في وسع أيّ شكلٍ من أشكال التعبير أن ينقذه. لكنّه دائمُ الحضور حيال نفسِه. شديدُ التمكُّن من تحفّظاته وأغلاطه. غزَتْهُ ذاتُه حتّى لم يعد في وسعه إلاّ أن يكون كُليًّا في حركاته وقراراته. بات يحمل مجموعَ حياته دُونَ أيّ إمكانيّة للتخفيف من حمولته عن طريق ذرائع الفنّ. فإذا هو لا يستخلص إلاّ النتائج التي توثّر فيه بشكل كامل، وإذا هو لا يتذوّقُ الأقاصي إلاّ غرقَ فيها. وهو يغرقُ حقًّا في الرذيلة أو في الإله أو في دمه، في حين كان في وسع جَبانَاتِ التعبير أن تجعله يتقهقر أمام **الأقصى**. الشخصُ الذي يُعبّرُ لا يعملُ ضدّ نفسِه. إنّه لا يعرفُ من الغوايات إلاّ غوايةَ النتائج الأخيرة. وليس استخلاصُ تلك النتائج من شأن الهارب، بل هي من شأن من يتبدّدُ ويتفشّى خوفًا من أن يقعَ في يدَيْ ذاتِه فيضيع وينهار.

عَدَمُ الصبر على الليل

--------------- نعتقدُ في البداية أنّنا نتقدّم ناحيةَ النّور، ثمّ نتعبُ من السير بلا غاية فنستسلم إلى الانزلاق: تصبحُ الأرضُ أقلَّ فأقلَّ صلابةً إلى أن تكفَّ عن تحمّلنا فإذا هي تنفتح من تحتنا. عبثًا نحاول تتبّع مسارٍ يُفضي إلى نهايةٍ مشمسة

فالظلمات تتمطّى داخلَنا ومن فوقنا. لا وجودَ لبارقةٍ في انزلاقنا: تنادينا الهاوية فنصغي إليها. بينما يظلّ في الأعلى كلُّ ما أردنا أن نكونه وكلُّ ما لم يستطع الارتفاع بنا إلى فوق. تخيّب ظنّنا القِممُ التي كنّا بالأمس القريب نعشقها، فينتهي بنا الأمر إلى التعلُّق بسقوطِنا، ونستعجل إنجازَه، كأنّنا فصيلة إعدام غريبة، وقد فُتِنَّا بوهْمِ الاقتراب من أقاصي الظلمات عند حدود مصيرنا الليليّ. إنّه الخوف من الفراغ وقد حُوِّلَ إلى متعة. كم نحن محظوظون بالتحرّك على النقيض من الشمس! الفراغُ حُلْمٌ مقلوبٌ يبتلعنا. إنّه اللامتناهي معكوسًا! الله يبدأ من تحت أعقابنا! الانخطافُ أمام صُدوع الكِيان والظمأُ إلى مَجْدٍ أسود.

ما دام الدُّوارُ قد أصبح قانُونَنا فلنضع إكليلاً سُفليًّا، تاجًا في سقوطنا. وما دام هذا العالم قد أطاح بنا فلنحمل منه طيفَهُ كي نكرّم الليل بأبّهةٍ جديدة.

(وعلى الرغم من ذلك فإنّ هذا السقوط، باستثناء لحظات قليلة من التكلُّف، أبْعَدُ ما يكون عن المهابة أو الغنائيّة. لقد اعتدنا أن نغوص في وحل ليليّ، في ظُلمةٍ لا تقلّ تفاهةً عن النور... ما الحياةُ إلاّ سُباتٌ فيما بين الضوء والعتمة، جُمُودٌ فيما بين الأضواء والظلال، صورةٌ كاريكاتوريّة لتلك الشمس الجوّانيّة، التي تجعلنا نؤمنُ دون مُبرّرٍ بامتيازِنَا على بقيّة المادّة. لا شيء يُبرهنُ على أنّنا أكثرُ من لا شيء. كي نحسَّ دون انقطاع بذلك التمدُّدِ حيث نتنافس

مع الآلهة، حيث تنتصرُ حميّتُنا على رعبنا، نحتاج إلى أن نَبقَى على درجةِ حرارةٍ في وسعها من فرْط ارتفاعها أن تُجهز علينا في أيّامٍ معدودة. لكنّ بوارِقَنا خاطفة والسقوطُ قاعِدتنا. الحياةُ هي ما يمكن أن يتحلّل في كلّ لحظة. إنّها فقدانٌ رتيب للنور، ذَوَبانٌ مَسِيخٌ في الليل، بلا أطياف ولا أمجاد ولا أكاليل.)

مُعْرِضًا عن الزّمن

---------------- أمسِ، اليومَ، غدًا. تلك مَقُولاتٌ مُعَدّةٌ للخَدَم. أمّا بالنسبة إلى العاطل المقيمِ في ترف اللّاسُلْوان والذي تكْربُه كلُّ لحظة، فإنّ الماضي والحاضر والمستقبل ليست في نظره سوى مظاهر متقلّبة لِشَرٍّ واحدٍ، متماثلٍ في جوهره صارمٍ في نفاذِه ورتيبٍ في إصراره. وهذا الشرّ متمادٍ إلى الكائن، بل هو الكائن نفسُه.

كنتُ وأنا الآن أو سأكون، هي مسائل نحويّة لا مسائل كينونة. المصيرُ باعتباره كرنفالاً زمنيًّا يتوافق مع التصريف. لكنّه ما إن يُجرَّدَ من أقنعته حتّى يبدو شبيهًا بشاهدةِ القبر في الجمود والعري. كيف نستطيع إيلاء الساعة الراهنة أهميّة أكبر من الساعة السابقة أو اللاحقة؟ الغلطة التي يعيش فيها الخَدَم - وكلّ إنسان ينخرط في الزمن خادمٌ - تُمثِّلُ حالاً من النعمة الحقيقيّة والتعتيم

السحريّ، وهي مثل حجابٍ خارق، تُخفي الهلاك الذي ينتظر كلّ عمل تتسبّب فيه الرغبة. أمّا بالنسبة إلى العاطل الذي تخلّص من أوهامه، فإنّ العيش المحض، العيش الخالص من كلّ عمَل، مشقّةٌ لا تُحتَمل، إلى حدّ أنّ تحمّل الكينونة كما هي يبدو له حرفة شاقّة ومسلكًا مهنيًّا مرهقًا، كما تبدو له كلّ حركة إضافيّة أمرًا باطلاً ولا يمكن تحقيقه.

وَجْهُ الحريّة المُزْدَوج

--------------- على الرغم من أنّ مشكلة الحريّة غير قابلة للحلّ، فإنّ في وسعنا دائمًا أن نثرثر في شأنها وأن نقف إلى جانب الاحتمال أو إلى جانب الضرورة... ولدينا في أمزجتنا وأحكامنا المُسبقة ما يُسهّل علينا خيارًا يحسم في المسألة ويُبسّطها دون أن يحلّها. لا وجود لأيّ بناء نظريّ يتيح لنا الإحساس بالمشكلة واختبار حقيقتها الكثيفة المتناقضة، إلاّ أنّ حدْسًا مميّزًا يضعنا في صميم الحريّة على الرغم من كلّ الحجج المُبتكرة ضدّها. ونحنُ نخاف. نخافُ اتّساع الممكن، لأنّنا لسنا مستعدّين لِكَشْفٍ بهذه الرحابة والمُباغَتَة، ولسنا مستعدّين لهذه النعمة الخطرة التي لم نطمح إليها إلاّ أحجمْنَا عنها. ماذا سنفعل وقد تعوّدنا على القيود والقوانين، أمام ما لا يتناهى من المبادرات وما لا يُحدّ من القرارت؟ ترعبُنا فتنةُ الاعتباطيّ. كيف نتلافَى الهلاكَ سُكرًا بكلّ

هذه السلطة، إذا باتَ في وسعنا أن نشرع في إتيانِ أيّ فعل، وإذا لم يعد من حاجزٍ يقف أمام إلهامنا أو نزواتنا؟

يهتزّ الوعيُ لِهذا الكشف فيرتجف ويتساءل. مَنِ الذي لم يُصَب بِالدُّوار لكونِهِ في عالَمٍ يُتيح له التصرّف في كلّ شيء؟ يتجاوز القاتل كلّ الحدود حين يستخدم حريّته ولا يستطيع الصُّمُودَ أمام فكرةِ جبروته. كلٌّ منّا قادرٌ على قتل غيره. ولو اندثر حقًّا كلّ من فكّرنا في قتلهم لما بقي في الأرض من يعمّرها. نحن نحمل في داخلنا جَلاّدًا متردِّدًا. مُجرِمًا لم يتحقّق. وليس في وسع أولئك الذين لا يملكون الجرأة على الاعتراف بميولهم القاتلة، إلاّ أن يمارسوا القتل في الأحلام، مؤثّثين كوابيسهم بالجُثث. أمام سُلطةٍ قضائيّة مُطلقة لن يُبرَّأَ إلاّ الملائكة. لأنّه لم يُوجَد كائنٌ لم يتمنّ، ولو في لاوعيه، موتَ كائن آخر. كلٌّ منّا يجرُّ وراءه مقبرةً من الأصدقاء والأعداء، ولا يهمُّ أن تُطرَحَ هذه المقبرة في أغوار القلب أو أن يلقى بها إلى سطح الرغبات.

لو تصوّرْنَا الحريّةَ من جهة تبعاتها القُصوَى لرأينا أنّها تضع حياتنا وحياة الآخرين موضعَ سؤال: إنّها تفضي بنا إلى إمكانيّةٍ ذات وجهين، الهلاك والنجاة. لكنّنا لا ندرك أنّنا أحرار ولا نقف على حظوظنا أو مخاطرنا إلاّ في شكل انتفاضات. وإنّ في تقطُّعِ هذه الانتفاضات وندرتِها ما يُفسّر لنا لماذا لم يكن هذا العالم سوى مَذْبحٍ رديء وفردوسٍ وهمِيّ. لا يُؤدِّي التبسُّط في معالجة

موضوع الحريّة إلى أيّ نتيجةٍ من خير أو شرّ، لكنّنا لا نملك سوى لحظات معدودة كي ندرك أنّ **كلّ شيء** مُتوقِّفٌ علينا . . .

الحريّةُ مبدأٌ **إيطيقيّ** من جَوْهرٍ شيطانيّ.

إرهاقٌ عن طريق الأحلام

--------------- لو أُتِيحَ لنا أن نحافظ على الطاقة التي نبذلها في تلك السلسلة من الأحلام الليليّة، لبلغَت عقولُنا من العمق والرهافة ما لا يخطرُ على بال. يتطلّبُ تدْبِيرُ كابُوسٍ بَذْلَ جهدٍ عصبيٍّ أكثر إرهاقًا ممّا يتطلّبه البناءُ النظريّ الأكثر تفصيلاً. كيف يسعنا بعد أن نستيقظ أن نستأنف العملَ على ترتيبِ الأفكار، بينما كنّا في لاوعينا متورّطين في مشاهد غريبةٍ عجيبة، مُطَوِّحِينَ في دوائرَ لا مكان فيها لِعائقِ السببيّةِ اللاشِعْرِيّ؟ كنّا طيلةَ ساعات شبيهين بآلهةٍ سكرى، وفجأة، انفتحت عيوننا مُلغِيةً اللا مُتَناهِي الليليّ، فإذا نحن في تفاهة النهار، مُطالَبون باستئناف اجترار مسائل عديمة اللون، لا يساعدنا عليها أيٌّ من فانتازمات الليل. لم يكن من جدوى إذنْ لتلك الفتنة البَهيّةِ المهلكة. ولم يفعل النومُ غير إرهاقِنا عبثًا. مع اليقظة ثمّةَ نوعٌ آخر من العياء في انتظارنا. لم نكد نجد الوقت لنسيان تعب الليل حتى توجّب علينا أن نصارع تعب الفجر. لقد شَقينا طيلة ساعات وساعات في سكوننا الأفقيّ دون أن يحصل دماغُنا على أيّ فائدة من نشاطه العبثيّ. أمّا الأحمق

الذي لم يقع ضحيّة هذا التبذير ولم يُهدِر كلّ هذه الموارد في الأحلام، فإنّ من شأنه وقد امتلك يقظةً مثاليّة، أن يحلّ كلّ طيّاتِ الأكاذيب الميتافيزيقيّة، أو أن يلمّ بأكثر مسائل الرياضيّات استغلاقًا.

تذوبُ أسرارُنا في أحلامِنا، شأنُها في ذلك شأن همومنا، فإذا نحن خَاوُونَ أكثرَ في أعقابِ كُلِّ ليلة. هكذا لا يكتفي شُغْلُنا الليلي بإيهانِ قُوّةِ أفكارنا بل يوهن أيضًا قُوّةَ أسرارنا...

الخائِنُ القُدْوَة

----------------- لا تتحقّقُ الحياةُ إلاّ في التفرُّد، هذا الأساس الأخير للعزلة. بناءً على ذلك ليس من كائنٍ إلاّ وهو وحيدٌ بالضرورة لكونه فردًا. إلاّ أنّ الأفراد ليسوا وحيدينَ جميعًا بنفس الطريقة ولا بنفس الكثافة. لكلٍّ موقعه في درجة مختلفة من سلّم العزلة. وللخائن الدرجة القُصوى. إنّه يبلغُ بصفته كفردٍ حدًّا مُثيرًا للسُّخْط. في هذا السياق قد يكون الشيطان أكبر الوحيدين في تاريخ المسيحيّة، لكنّه ليس كذلك في تاريخ العزلة. هو لم يخن سوى ربّ واحد. وهو يعرفُ من خان. لقد قام بتسليم شخصٍ شأنُه في ذلك شأن آخرين كثيرين يقومون بتسليم شيء ما، قد يكون وطنًا أو أَيّ ذريعة أخرى جماعيّة بهذا القَدْر أو ذاك. الخيانةُ التي

تستهدف غرضًا مُحدَّدًا لا يكتنفُها أيُّ غموض، حتّى لو احتملت الخزْيَ أو الموت. نحن نملكُ دائمًا صورةً عمّا نريد تدميره. الإحساسُ بالذنبِ واضحٌ سواء اعترفنا به أو أنكرناه. ينبذُكَ الآخرون فتستسلم لسجن الأشغال الشاقّة أو للمقصلة.

لكن للخيانة كيفيّات أخرى أكثر تعقيدًا، ليس لها مرجعٌ مباشر ولا علاقةَ لها بشيء أو شخص. من ذلك: أن تهجُرَ كلَّ شيء دون أن تعلم ما يمثّله هذا الكلّ. أن تنعزل عن مُحيطك. أن تَصُدَّ في نوعٍ من الطلاق الميتافيزيقيّ، الجوهَرَ الذي جُبِلْتَ منه والذي يحيطُ بك ويَحملُك. من الذي يستطيع أن يتجاسرَ على الكينونة دون أن ينال جزاءه؟ وعن طريقِ أيِّ تحدٍّ؟ من الذي في وسعه أن يُصفّي شَرْطَ تنفُّسِه؟ وبواسطة أيّ جُهود؟ غير أنّ من شأن إرادةِ تلغيم أُسِّ كلِّ ما هو موجود أن تُنتج رغبةً في النجاعة السالبة، قويّةً وعصيّةً على الإدراك، شبيهةً بِنَتانَةِ تبكيتِ الضّمير الذي يُفسد حيويّةَ الأمل الغَضّة...

تَخونُ الكائنَ فلا تحملُ معك إلاّ إحساسًا بالضيق غيرَ مُحدَّدِ المَعالِم، دون صورةٍ تدعمُ بدِقّتها الموضوعَ الذي يثير إحساسك بالخزي. لا أحد يرميك بحَجَر. أنت مواطن محترم كما كنت. تتمتّع بامتيازات المدينة ويُوَقِّرُكَ نُظَراؤُك وتحميك القوانين وتستحقّ التقدير مثل أيِّ كان. وفي الأثناء لا أحد يرى أنّك تعيش جنازتك بشكْلٍ مُسبق وأنّ موتك لن يضيف شيئًا إلى أمْرِكَ الواقعِ لامَحالة.

ذلك لأنّ خائنَ الكينونة ليس له من يحاسبه سواه. وهل ثمّةَ غيرُه؟ أنت غير مُعَرَّضٍ للخطر ما لم تذمّ شخصًا أو مؤسّسة. ليس من قانونٍ يحمي الواقع لكنّ القوانينَ كلّها تعاقبُكَ على أدنى ضررٍ يَلحَقُ بمَظاهر الواقع. من حقّك أن تقوّض الكائن في المُطْلَق لاَ كائنًا بعينه. في وسعك أن تدمّر بشكلٍ شرعيّ قواعِدَ كلّ ما هو موجود، لكنّ السجن أو الإعدام في انتظارك عند أدنَى اعتداء على القُوى الفرديّة. لا ضمانةَ للكينونة. لا وجود لإجراءات قانونيّة ضدّ الخوَنَةِ الميتافيزيقيّين، أمثال بوذا الذين يرفضون الخلاص، فهؤلاء في نظر الآخرين لا يخونون سوى حياتهم الخاصّة. غيرَ أنّهم الأكثر إيذاءً من بين كلّ المجرمين. إنّهم لا يُهاجمون الثمار بل يهاجمون النسْغ، نسْغَ الكون نفسِه، وعقوبتهم على ذلك لا يعرفها أحدٌ سواهم...

ربّما كان في داخل كلّ خائنٍ عطَشٌ إلى الخزْي، وربّما كان اختيارُ أسلوب الخيانة مرتبطًا بدرجة العزلة التي يطمح إليها الخائن. من الذي لم يشعر بالرغبة في اقتراف جُرْمٍ فريدٍ يُقصيه عن سائر البشر؟ من الذي لم يطمع في ارتكاب شناعةٍ تقطعُ إلى الأبد كلّ صلةٍ له بالآخرين، كي يَصدُرَ في حقّه حكمٌ نهائيّ ويبلغ من ثمّ سكينة الهاوية؟ ألا نفكُّ الارتباط مع الكون بحثًا عن سلام خَطيئةٍ لا تُغْتَفَر؟ يهوذَا بِرُوحِ بوذا، يا لهُ من قُدوةٍ لبشريّة قادمة وآيلةٍ إلى الزوال!

في إحدى سقائف الأرض

---------------- «حلمتُ بفُصول ربيعيّةٍ قصيّة. بشمس لا تضيء إلاّ زبدَ المَوْجِ ونسيانَ أنِّي وُلِدتُ. بشمسٍ تُعادي الأرض، وتعادي وَجيعةَ ألاّ نجد في كلّ مكانٍ سوى الشوق إلى أن نكون في مكانٍ آخَر. مَنِ الذي فَرَضَ علينا قَدَرَنا الأرْضِيّ؟ من الذي قيّدَنا إلى هذه المادّة الكئيبة، هذه الدمعة المتحجّرة التي تتحطّم عليها دموعُنا، نحن مواليد الزّمن، بينما هي العريقة في القِدم، قد سقطت من رعشةِ الربّ الأُولَى؟

مَقَتُّ منتصفَ النهار ومنتصفَ الليل في هذا الكوكب. ضَنِيتُ خلفَ عالَمٍ بلا مناخ، لا مكان فيه للساعات ولا لذلك الخوف الذي يجعلها تتورّم. أبغضتُ تباريحَ الفانِينَ تحت وطأة العُصور. أين اللحظة التي لا غايةَ لها ولا شهوة؟ أين ذلك الشُّعُورُ الأصليّ الذي لا يتأثّر بهواجس السقوط والحياة؟ بحثتُ عن جغرافيا اللاّ شيء. عن بحارٍ مجهولة وعن شمسٍ أخرَى خالِصَةٍ من فضيحة الأشعّة الخصبة. بحثتُ عن هَدْهَدَةِ مُحيطٍ شَكّاكٍ تغرق فيه المُسَلّماتُ والجُزُر، هو سائل المعرفة الشاسع المخدِّر واللذيذ المُنهَك.

هذه الأرضُ - خطيئة الخالق! لكنّي لم أعد أرغب في التكفير عن خطايا الآخرين. أريد أن أشفَى من ولادتي في احتضارٍ خارجَ القارّات، في صحراء سائلة، في غَرَقٍ غيرِ شخصِيّ.»

---------------- ليس الظهورُ المفاجئ لِداءٍ مُعيَّنٍ هو ما يُذكّرنا بهشاشتنا: ثمّة إنذارات أكثر التِباسًا وإرباكًا تَظهَرُ لإبلاغِنَا بقُرْبِ طَرْدِنا من الحضن الزمنيّ. يقتربُ منّا القَرَف، ذلك الإحساس الذي يفصلنا فيزيولوجيًّا عن العالم، فإذا نحن نكتشف كم أنّ صلابةَ غرائزنا أو متانةَ روابطنا قابلةٌ للتدمير. حين نكون أصحّاء، يشْغَلُ لَحْمُنا وظيفةَ الصدى بالنسبة إلى خفقان الكونِ ويتكفّل دَمُنا بترجمةِ إيقاع ذلك الخفقان. أمّا في حالة القرف الذي يتربّص بنا مثل جحيم افتراضيّة قبل أن ينقضّ علينا فجأة، فإنّنا لا نقلُّ انفرادًا في الكُلِّ عن وحشٍ من تَخَيُّلِ عِلْمِ عجائب العزلة.

النقطةُ الحَرِجةُ بالنسبة إلى الحيويّة لا تتمثّل في المرض - الذي هو صراع - بِقَدْرِ ما تتمثّل في ذلك الرعب المُلتَبس الذي ينفر من كلّ شيء ويجرّد الشهوات من القدرة على إنجاب أخطاء نَضِرَة. تفقدُ الحواسُّ نسْغَها وتجفُّ الأوردةُ فإذا الأعضاءُ لا تتبيّنُ إلاّ المسافة التي تفصلها عن وظائفها الخاصّة. يفقد كلّ شيء طعْمَه لا فرق في ذلك بين الأغذية والأحلام. ليس من نكهة متبقّيةٍ للمادّة وليس من لغز في الرؤيا. فإذا فنُّ تذوُّقِ الأكل والميتافيزيقا ضحيّتان بالتساوي لقلّةِ شهيّتنا. نظلّ لساعاتٍ في انتظار ساعات أخرى. في انتظار ساعاتٍ تكفُّ عن الفرار من الزمن. ساعات وفيّة تُقيمُ بنا من جديد في تفاهة الصحّة وفي نسيانِ محاذِيرِها.

(الصحّةُ جَشَعٌ للفضاء وطَمعٌ لا شُعوريٌّ في المستقبل. هي من ثمّ تجعلنا نكتشف كم هو سطحيٌّ مستوى الحياة كما هي، وكم يتنافرُ التوازن العضويُّ والعمقُ الباطنيّ.

يعتمدُ العقلُ في ازدهاره على وظائفنا المشبوهة: إنّه يحلّق بقدر ما يتمدّدُ الفراغُ في أعضائنا. لا شيءَ مُعافى فينا إلاّ ذاك الذي يُتيح لنا نحنُ ألاَّ نكونَ نحنُ على التعيين: قرَفُنا هو الذي يجعلنا نتفرّد. أحزانُنا هي التي تمنحنا اسمًا. خساراتُنا هي التي تتيح لنا امتلاك ذاتنا. نحن لسنا نحن إلاّ بفضل مجموع خيباتنا.)

العقائد اللاشُعوريّة

---------------- نحن قادرون على اكتناهِ **خطأ** كائنٍ مَا وعلى مُكاشَفة ذلك الكائن ببطلان خِطَطِه ومَساعِيه، لكنْ كيف نستطيع انتزاعَهُ من عنادِه في الزمن حين يُخفي تعصُّبًا لا يقلّ تأصُّلاً عن غرائزه ولا يقلّ قدامةً عن أحكامه المُسبقة؟ نحنُ نحملُ في داخلنا كُومةً من المعتقدات واليقينيّات المخزية وكأنّها كنزٌ لا يمكن إنكارُه. وليسَ لأحدٍ حتى لِمَنْ يُفلح في التخلّص منها والانتصار عليها، إلاّ أن يظلّ وهو في صحراء بصيرتهِ متعصّبًا أيضًا: لنفسِه ولكينونته الخاصّة. لقد وصَمَ وساوسَهُ كُلَّها باستثناء الأرض الصالحة لتفتُّحِها. كما خسر كلّ نقاطه الثابتة باستثناء الثباتِ الذي

تنتسب إليه. للحياة عقائد أكثر ثباتًا من اللاهوت، بما أنّ لكلّ كينونةٍ جذورَها الراسخة في معصوميّةٍ ينكسفُ أمامها هذيانُ الجنون أو الإيمان. لا مناصَ للريبيِّ نفسِه عاشقِ شُكوكِه من أن يكشف عن متعصّبٍ للشكوكيّة. الإنسانُ هو الكائن الدغمائيّ بامتياز. وتترسّخُ عقائدُهُ بقدرِ مَا يكتُمُها ويجهلها ويعمل بها.

نحنُ نؤمن بأشياء أكثر بكثير ممّا نظنّ. نَنطوِي على الكثير من اللاتسامُح. نحافظ على الكثير من الاحترازات الدَامِية. نجوبُ العالَمَ مدافعين عن أفكارنا بأكثر الوسائل تطرُّفًا وكأنّنا قلاعٌ متنقّلة لا يمكن اختراقها. كلٌّ يتّخذ من ذاتِه عقيدةً قُصوَى. ليس من لاهوت يحمي إلهه كما نحمي نحن ذاتنا. وإذا عنّ لنا أن نحاصر تلك الذات بالشكوك وأن نضعها موضع السؤال فما ذاك إلاّ على سبيل أناقةِ الكبرياء المزيّفة: الدعوَى مربوحة مسبقًا.

كيف يمكننا الخلاصُ من مُطْلَقِ الذات؟ ينبغي علينا أن نتخيّل كائنًا مُجرّدًا من الغرائز لا يحمل أيّ اسمٍ ولا يعرف شيئًا عن صورته الشخصيّة. لكنّ العالم كلّه يعكس لنا ملامحنا. الليل نفسُه ليس كثيفًا بما يكفي كي يمنعنا من أن نتمرأى فيه. نحنُ حاضرون أكثر ممّا يجب بالنسبة إلينا، ممّا لا يسمح لانعدام كينونتنا قبل الولادة أو بعد الموت بالتأثير فينا إلاّ كفكرةٍ وللحظاتٍ معدودة فحسب. نشعر بحمّى ديمومتنا وكأنّها أبديّةٌ تفسد لكنّها على الرغم من ذلك لا تنضب من حيث مبدأها. لم يُولَد بَعْدُ ذاك الذي لا

يعشقُ نفسَه. حُبُّ الذات شأنُ كُلٍّ حَيّ. وإلاّ فمن أين يجيء الرعب الذي يجتاح أعماقَ الحياة وسطوحَها؟ كلٌّ يرى في نفسه النقطة الثابتة الوحيدة في الكون. وإذا مات أحدهم من أجل فكرة فلأنّها **فكرتُه**، وفكرتُه هي **حياتُه**.

ليسَ في وسْعِ أيّ نقدٍ لأيّ عقلٍ أن يُوقظ الإنسان من «نومه الدغمائيّ». قد يخلخل النقدُ يقينيّات هذا العقل الطائشة المغرقة في الفلسفة، وقد يُحِلُّ بعضَ القضايا الطيّعة محلّ الإثباتات الصلبة، لكن كيف يمكنه بطريقةٍ عقليّة أن يَهُزّ المخلوقَ الناعسَ فوق عقائدِهِ الخاصّة دون أن يتسبّب في هلاكه؟

ازدواجيّة

------------------ ثمّةَ فظاظةٌ قادرةٌ على جعْلنا نُسَلِّمُ بأيّ شيء في العالم، لكنّها ليس قويّةً بما يكفي كي تجعلنا نُسَلِّمُ بالعالَم نفْسِه. هكذا نستطيع أن نتحمّلَ أمراض الحياة فيما نحنُ نرفُضُ الحياةَ. أن نستسلم لاندفاعات الشهوة فيما نحن ننبذُ الشهوة. ثمّةَ في القبُولِ بالكينونة ضَرْبٌ من النّذالةِ لا ننجو منه إلاّ بفضل مكابرتنا وندمنا، وخاصّة بفضل الكآبةِ التي تحفظُنا من الانزلاق نحو الإثبات النهائيّ المنتزَعِ من جُبْنِنا. هل ثمّة ما هو أحقر من أن نقول نعم للعالَم؟ وعلى الرغم من ذلك تَرانَا لا نكفّ عن مضاعفة

هذا القبول، هذا القول الدنيء المكرور، هذا التعهّد بالوفاء للحياة الذي لا ينكرهُ إلاّ كلُّ ما يرفُض الفظاظة الكامنةَ فينا.

في وسْعِنا أن نحيا كما يحيا الآخرون، مُخْفِينَ في الوقتِ نفسِه «**لا**» أكبرَ من العالم: ذاك هو سَرْمَدُ الكآبة...

(لا نستطيع أن نحبّ إلاّ الكائنات التي لا تتجاوز الحدّ الأدنى من الفظاظة الضروريّة للعيش. وعلى الرغم من ذلك فإنّ من الصعب أن نضبط مقدارَ تلك الفظاظة، فضلاً عن أنّنا لا نرى فِعْلاً يستغني عنها. يبرهنُ كلّ الذين لفَظَتْهُم الحياة على أنّهم كانوا أقلّ دناءةً ممَا يجب... في وسْع المنتصر في النزاع مع أقاربه أن يُغادِرَ الزبْلَ أمّا المنهزمُ فعليهِ أن يدفع ثمن الطهارة التي لم يرد تنجيسَهَا. ليس من شيء داخلَ الإنسان أكثر كينونةً وصدقًا من فظاظتِه الخاصّة، منبع كلِّ ما هو حيٌّ بشكلٍ أوَّلِيّ. إلاّ أنّنا من ناحية أخرى نزداد حقارةً بِقَدْرِ ما يتوطّدُ وضْعُنا في الحياة. إنّ الكائن الذي لا ينشرُ من حولهِ إشعاعًا جنائزيًّا مَا ولا يترُكُ خَلْفَهُ أثرًا من كآبةٍ قادمة من عوالم بعيدة، هو كائنٌ يعودُ بالنظر إلى ما تحت عِلْم الحيوان وإلى تاريخ البشريّة تحديدًا.

يبلغُ التعارُضُ بين الفظاظة والكآبة من الصلابة ما يجعل كلّ تبايُنٍ آخر تهويمًا اعتباطيًّا ومُسلِّيًا. حتى التضادُّ الأكثرُ قطْعًا يفقد من حدّتِه بالمقارنة مع هذا التعارض الذي يتصارع فيه، وفق دوزَنةٍ مقدّرةٍ سلَفًا، قاعُنَا القذِرُ ومَرارتُنا الحالِمة.)

-------------- يَذْكُرُ أنّه وُلِد في مكانٍ مَا. أنّه صدّق بأخطاء المَوْلِد. أنّه اقترح مبادئ وأوصَى بحماقاتٍ رَعْناء. وهو خجِلٌ من ذلك، يسعى بجدٍّ إلى إنكار ماضيه وأوطانِه الحقيقيّةِ أو المُتخيَّلة والحقائقِ المنبثقةِ من نخاعه. لن يرتاح إلاّ بعد أن يَقضِيَ على الحماسات الموروثة وعلى آخرِ رُدودِ فِعْلِ المُواطِنِ فيه. كيف يمكن لأعرافِ القلب أن تستمرّ في تقييده، هو الذي يريد التحرّر من سلاسلِ النَّسَب؟ هو الذي ينظر إلى المَثَل الأعلى للحكيم القديم المستخِفّ بكلّ المُدُن فلا يرى فيه سوى صفقة؟ ثمّةَ مَنْ لم يَعُد قادرًا على الانحياز إلى فريقٍ لأنّ البشرَ بالضرورةِ على حقٍّ وعلى باطلٍ في آنٍ، ولأنّ كلّ شيء مُبرَّرٌ وغيرُ معقول في الوقت نفسه. إنّ على مَنْ تَحلَّى بهذه الصفات أن يتخلّى عن اسمه. أن يَدُوسَ برجْلِهِ على هويّته وأن يَبدأَ مرّةً أُخرى حياةً جديدة في السكينة أو القُنُوط. وإلاّ كانَ عليه أن يبتكر نوعًا آخر من العزلة. أن يغترب في الفراغَ وأن يتابع مراحل الانبتات على هوَى المنافي. هكذا يُصبح، وقد أحلّ نفسَه من كلّ حُكْمٍ مُسبَق، الإنسانَ غيرَ الصّالِحِ للاستعمال بامتياز، الذي لا يستنجِدُ به أحد ولا يخشى جانِبَهُ أحد، لأنّه يقبَلُ بكلّ شيء ويرفُضُ كلّ شيء باللامُبالاةِ نفسِها. هو من ثمّ أقلّ خطرًا من حشرةٍ شاردة، لكنّه مُصيبةٌ بالنسبة إلى الحياة، لأنّها سَقَطت من قاموسِهِ صُحبةَ أيّامِ الخَلْقِ السبعة.

وكان في وسع الحياة أن تغفر لهُ لو أنّه أُغرِم على الأقل بالكاوس[١] حيث كانت بدايتُها. لكنّه يُنكِرُ البدايات المحمومة وعلى رأسها بدايتُه، غيرَ محتفظٍ من العالم إلاّ بذاكرةٍ باردة وندَمٍ مُهذّب.

(من مُرُوقٍ إلى مُرُوقٍ تتضاءلُ كينونتُه. هو ذا أكثر التباسًا ووَهْمِيَةً من قياسِ زَفراتٍ فكيف يسَعُه أن يظلّ كائنًا من لحمٍ؟ افتقرَ إلى الدم فإذا هو ينافِسُ الفكرة. تجرّدَ من أسلافه، من أصدقائه، من كلّ الأرواح ومن ذاته. في أوردته المصطخبة سابقًا ينامُ الآن ضوءٌ قادمٌ من عالَمٍ آخر. تحرّرَ مِمّا عاشه وكفَّ عن التطلّعِ إلى ما قد يعيشه، فإذا هو يدمّرُ علاماتِ طُرُقهِ كلّها ويتخلّص من مَعالِمِ كلّ الأزمنة. «لن ألْتَقِيَ نَفْسي من جديدٍ أبدًا» هكذا يحدّث نفسَه، سعيدًا بأن يُصوِّبَ حقْدَهُ الأخير باتّجاهِ نفسِه، وأسْعَدَ بأن يُبِيدَ، فيما هو يغفر لهم، الكائنات والأشياء.)



الظلُّ المُقبِل

---------------- من حقّنَا أن نتخيّلَ زمنًا نتجاوزُ فيه كلّ شيء، حتّى الموسيقى، حتّى الشعر، فإذا نحن نعبُرُ الأيّامَ مُلْتَفِّينَ بكفَنٍ بالٍ، وقد ندّدنا بكلّ التقاليد والنزوات وتبرّأْنَا من

---

(١) ثمّة عبارات أخرى لترجمة Chaos مثل الشواش والعماء والسديم الكونيّ الأوّلي إلخ...

أنفسنا حدَّ المللِ من كلّ قبرٍ معلومٍ. يومَ تعجزُ سونيتةٌ[١] عَن إغرائنا بالبكاء، هي التي ترفعُ برهَافَتِها العالمَ اللفْظِيّ إلى ما فوق روعةِ الكوسموس، ويومَ تنتصر تثاؤباتُنا على عاطفتنا ونحنُ في منتصف سوناتا[٢]، يومَها لن تَقْبلَ بنا حتّى المقابر، هي التي لا تستقبل إلاّ الجثث حديثةَ العهد، التي ما انفكّت مُشربةً بشيءٍ من حرارةٍ وذكرَى من حياة.

قَبْلَ شيخوختنا وبعدَ أن نكون قد تنصَّلْنَا من سَوْرَاتِنا وانحنت ظهورُنا تحت استدراكات الجسد، سيجيء زمنٌ نمشي فيهِ أنصافَ جِيَفٍ وأنصافَ أطياف، وقد كبحْنَا كلّ اختلاجٍ فينا خوفًا من أن نصبح شركاء الوهم. ولأنّنا لم نعرف كيف ننسلخ بحياتنا في سونيتةٍ، ولأنّنا ذهبنا أبعد من الموسيقى أو الموت، فإنّنا سنَجُرُّ أشلاء عفونتِنا عميانًا متعثّرين في اتّجاه خُلودٍ جنائزيّ...

زهْرةُ الأفكار الثابتة

------------ يستمرُّ الإنسانُ في العَمَل والازدهار مادامَ في حمايةِ العَتَه، لكنّه يَضِلُّ ويتهدّم ما إن يتحرّر من طُغيان

(١) سونيتة: هكذا ترجمنا sonnet: قصيدة من أربعة عشر بيتًا. ظهرت في إيطاليا في القرن الثالث عشر وانتقلت إلى فرنسا في القرن السادس عشر.
(٢) سوناتا sonate: معزوفة من حركات لآلة أو أكثر.

الأفكار الثابتة المُخصب. يشرع في القبولِ بكلّ شيء. يشرع في التسامُح لا مع التجاوزات الصُّغْرَى فحسب بل مع الجرائم والفظائع، مع الرذائل والانحرافات. للكلّ في نظَرِهِ ثمنٌ واحد. يتّسعُ تساهُلُهُ المدمِّرُ لنفسِه فيمتدّ إلى كلّ المذنبين والضحايا والجلاّدين. هو من كلّ الأحزاب لأنّه يعتنق كلّ المعتقدات. لقد غَدَا هُلاميًّا ملوّثًا باللامُتناهي حتّى خسرَ «شخصيّته» لافتقارِهِ إلى نقطةٍ مرجعيّة أو فكرةٍ متسلّطة. النظرةُ الكونيّة تصْهرُ كلَّ شيءٍ في المُبْهَم، ولا يستمرّ في التمييز بين الأشياء إلاّ من كفّ عن أن يكون صديقها أو عدوَّها وبات يحمل في داخِلِه قلبًا من شمع يتقولبُ حسبَ الأشياء والأشخاص على السواء. تتوجَّهُ شفقَتُهُ إلى الكينونة ويكتسي إحسانُهُ صبغةَ الشكّ لا صبغةَ الحُبّ. إنّهُ إحسانٌ رَيْبِيٌّ من تبعاتِ المعرفة ويجدُ عُذْرًا لكلّ الانحرافات. أمّا ذلك الذي ينحاز إلى فريق دون آخر ويعيش في جنون القَرار والخِيار فهو لا يكون محسنًا البتّة. إنّه يرتمي في غيبوبة المتناهي قاصرًا عن تبنّي كلّ وجهات النظر منعزلاً في أفق رغباته ومبادئه. وذلك لأنّ المخلوقات لا تزدهر إلاّ إذا أولت الكونَ ظهرَها. أن تكون شيئًا مَا بِلاَ شُروط هو دائمًا نوع من العته الذي لا تتحرّر منه الحياة - زهرة الأفكار الثابتة - إلاّ كي تذوي.

«الكلبُ السماويّ[1]»

------------------ ليس في وسْعِنا أن نعرف ما الذي على الإنسان أن يخسر كي يمتلك الشجاعة على تحدّي كلّ الأعراف. ليس في وسعنا أن نعرف ما الذي كان على ديوجين أن يخسر كي يُصبح الإنسانَ الذي سمح لنفسه بكلّ شيء، والذي تَرْجَمَ إلى أفعالٍ أفكارَه الأكثرَ حَمِيمِيّةً، بوقاحةٍ خارقةٍ لا يقدر عليها إلاّ إلهٌ من آلهة المعرفة، شهوانيٌّ ونقيٌّ في الوقت نفسه. لم يُوجَدْ شخصٌ أكثر صراحةً منه. كان حالةً قصوى من الصدق ونفاذِ البصيرة، ومِثالاً في الوقت نفسِه لما كان في وسعنا أن نكون لو لم يقم النفاقُ والتربيةُ بِكَبْحِ رغباتنا وحركاتنا.

«أَدْخَلَهُ رجُلٌ ذاتَ يومٍ بيتًا فاخِرَ الأثاث وقال له: إيّاكَ أن تبصقَ على الأرض. وكان ديوجين قد رغب في البصاق فبصق في وجه الرجل، زاعِقًا بِهِ أنّه المكان القذر الوحيد الذي عثر عليه ورآه صالحًا لذلك.»

(ديوجين اللائرتيّ.[2])

---

(١) تُنسب هذه العبارة (الكلب السماويّ أو كلب السماء) إلى الشاعر كيركيداس، وهي من قصيدة أنشدها في رثاء ديوجين.

(٢) كاتب من القرن الثالث للميلاد. وهو غير ديوجين الكلبيّ. والفقرة مقتبسة من الكتاب المنسوب إليه: «سِير مشاهير الفلاسفة ومذاهبهم وأقوالهم».

مَنْ ذَا الذي حَلَّ ضيفًا على أحد الأثرياء فلم يأسف لكونه لا يتصرّف في مُحيطٍ من اللُّعاب يرشّ به كلّ ذوي الأملاك في الأرض؟ مَنْ ذَا الذي لم يكظمْ بصْقتَهُ خوفًا من أن يلقي بها في وجه لصٍّ مُحترَم وأَكْرَش؟ نحنُ خجُولون جميعًا ومُحترِسُونَ بشكلٍ مُضحك: الكلبيّةُ ليست مِمّا يُتَعلّمُ في المدرسة، شأنها في ذلك شأن الكبرياء.

«يخبرُنا منيبوس[١] في كتابه «فضيلةُ ديوجين» أنّ هذا الأخير وقع في الأسر وعُرِض للبيع فسُئل عمّا يُتقِنُ فأجاب: القِيادة. وصرخ في مُنادي المزاد: اِسأل إذَنْ مَنْ ذَا الذي يريد أن يشتري لنفسهِ سَيِّدًا؟»

الرجلُ الذي واجهَ الإسكندر وأفلاطون، ومارَسَ العادة السريّةَ علَنًا في الساحة العامّة (متمنّيًا لو كان في وسع الإنسان أن يدلك بطنه بالطريقة نفسها كي يكفّ عن الإحساس بالجوع). صاحبُ البرميل الشهير، صاحبُ المصباحِ ذائع الصيت، الذي كان في شبابه مُزيِّفَ نُقود (هل من شرفٍ أكبر بالنسبة إلى كلبيّ؟)، تُرى أيّ تجربةٍ كانت له مع المُحيطين به؟

---

(١) منيبوس الكلبيّ (Ménippe): من فلاسفة القرن الثالث قبل الميلاد. لُقّب بالمهرّج الجادّ. والفقرة مُقتبسة من كتاب ديوجين اللائرتي.

ليس من شكٍّ في أنّها تجربتنا جميعًا، مع ذلك الفارق المتمثّل في أنّ الإنسان كان مادّةَ تأمُّلِهِ واحتقارِه الوحيدة. لقد تدرّب على تجريده من ثيابه، دون أن يخضع لأيّ تزييف أخلاقيّ أو ميتافيزيقيّ، كي يُبْدِيهِ لنا أكثر عُريًا وفظاعةً ممّا يبدو في المسرحيّات وكُتب الرؤيا.

«إنّه سقراط وقد أصبح مجنونًا» هكذا سمّاه أفلاطون. وكان عليه أن يسمّيه «سقراط وقد أصبح صادقًا». سقراط وقد تخلّى عن الخير والوصفات والمدينة وغدَا أخيرًا عالِمًا نفسانيًّا فحسب. إلاّ أنّ سقراط وإن كان عظيمًا يظلّ اتِّفاقِيًّا ومُعلِّمًا ومثَلاً يُحْتَذَى. وحدَهُ ديوجين لا يقترحُ شيئًا. إنّ أساسَ سلوكهِ وأساسَ الكلبيّة في جوهرها محكومٌ باشمئزازٍ خُصْيَوِيّ من سُخْفِ أن يكون إنسانًا. إنّ من شأنِ المُفكّر الذي يتأمّل بلا وهمٍ في الحقيقة البشريّة، إذَا أرادَ البقاءَ داخِلَ العالَم وألغَى الصوفيّة كمَهْرَب، أن ينتهي إلى رؤيةٍ تختلط فيها الحكمة بالمرارة والمهزلة. وإذا اختار الساحة العامّة فضاءً لوِحْدَتِه، فإنّه سيطلق العنان لقريحته كي يسخر من «أشباهه» أو كي يطوف باشمئزازه. اشمئزاز لم يعد في وسعنا أن نسمح به لأنفسنا في حضور المسيحيّة والبوليس. لقد تكفّلت ألْفَا سَنةٍ من المواعظ والمدوّنات القانونيّة بتحليةِ مرارتنا. ثمّ من ذا الذي سيتوقّف في هذا العالَم العَجْلان كي يردّ على وقاحتنا أو يتلذّذ بنُباحِنا؟ إنّ إطلاقَ كنية **الكلب** على أكبر خبيرٍ بالبشريّة برهانٌ على أنّ الإنسان ما انفكّ يُنكرُ الحقائق بلا هوادة، ولم يملك في أيّ

وقت الشجاعةَ الكافية للقبولِ بصورته الحقيقيّة. لقد ألغى ديوجين من نفسِه كلّ **ادّعاء**. أيّ وحشٍ هو في نظر الآخرين! كي تَحتلّ موقعًا مشرّفًا في الفلسفة ينبغي عليك أن تكون ممثِّلاً، أن تحترمّ لعبةَ الأفكار وأن تتحمّسَ للمسائل الزائفة. ليس على الإنسان بوصفه كذلك أن يكون من **شأنِكَ** بأيّ حال من الأحوال. نقتبس من اللائرتيّ مُجدّدًا: «حين هتف المُنادِي في الألعاب الأولمبيّة قائلاً إنّ ديوكسيبوس انتصر على الرجال، أجابه ديوجين: هو لم ينتصر إلاّ على العبيد، أمّا الرجال فإنّهم من شأني.»

والحقّ أنّه انتصر عليهم كما لم يفعل أحد، بأسلحةٍ رهيبةٍ أكثر من أسلحة الفاتحين، هو الذي لم يملك سوى خُرْجٍ، هو، أكثر الشحّاذين إملاقًا وقدّيسُ الاستهزاء الحقيقيّ. إنّ من واجبنا إكبار المُصادفة التي جعلتْهُ يُولد قبل مجيء الصليب. فمَنْ أدرانَا لو تطعّمت لامُبالاتُه بغِوايةِ خوضٍ مغامرةٍ غير بشريّة، من أدرانا بأنّ تلك الغواية الوبيلة ما كانت لتحرّضه على أن يصبح ناسكًا مَا، قد يتمّ تطويبه فيما بعدُ ليضيع في زحمة أصحاب الغبطة والتقويم؟ عندئذ لا مناصَ لهُ من أن يصبح مجنونًا، هو، الكائن العاديّ بأكثر ما يمكن من عمق، بما أنّه بعيدٌ عن كلّ تعليم وعن كلّ مذهب. كان الوحيد الذي كشف لنا عن صورة الإنسان البشعة. لقد تمّ تشويهُ مزايا الكَلْبِيّة ودَوْسُهَا بواسطة دينٍ مُعادٍ للبداهة. إلاّ أنّ الوقتَ حان كي نواجه حقائق **ابن الربّ** بحقائق هذا «الكلب السماويّ» كما سمّاه أحدُ شعراء عصره.

-----------------ليس مِنْ إلهامٍ إلاّ وهو ناجمٌ عن مقدرةٍ على المغالاة: وما كانت الغنائيّةُ - وعالمُ الاستعارة كلّه - لِتَعْدُوَ أن تكونَ هياجًا مُثِيرًا للشفقة لولا تلك الغلواء التي تنفخ الكلمات حدّ تفجيرها.

عندما تبدو عناصر الكوسموس أو أبعاده أحقر من أن تُستخدم كحدودٍ للمقارنة مع أحوالنا، فإنّ الشِّعرَ لا ينتظرُ، كي يتجاوز مرحلة الكمون والوشاكة، غيرَ شيءٍ من الوضوح في الاضطرابات التي بشّرت بقدومه وساعدت على ولادته.

لا وجودَ لإلهامٍ حقيقيّ لا ينبثق من شُذُوذِ روحٍ أرْحَب من العالَم... نقفُ في الحريق الشفهيّ لأمثال شيكسبير أو شِيلّي[(١)] فنشعر برماد الكلمات، الذي هو خيبةُ خلقِ الأكوان المستحيلِ ورائحتُه.

تتعدَّي الألفاظ بعضها على بعض، كأنّ أيًّا منها غير قادر على بلوغ ما يُضاهي التوسّع الجوّانيّ. إنّها فَتْقُ الصّورة. الانفصامُ

(١) بيرسي بيش شيلي Percy Bysshe Shelley (١٧٩٢-١٨٢٢): واحد من أهمّ شعراء الرومنطيقيّة الإنكليز والعالميّين.

المتسامي لكلماتٍ بائسة وُلِدت من الاستعمال اليوميّ وتمّ الارتقاء بها بمعجزة إلى أعالي القلب.

تتغذّى حقائق الجمال من مبالغات يكشفُ أبسطُ تحليلٍ عن مدى فظاعتها وإثارتها للهزء. الشعر: هُذاء كُوسمُوجُونِيّ[١] للقاموس... هل مزجنا بأكثر نجاعة بين الدجل والنشوة؟ الكذبُ مصدرًا للدموع! تلك هي خديعة العبقريّة وسرّ الفنّ. تفاهاتٌ نُفِخ فيها حتّى باتت تناطح السماء. اللامُحْتَمَل مُوَلِّدًا للأكوان! وذلك لأنّ في داخل كلّ عبقريّ يتعايش مرسيليّ وإله.

عِبادَةُ التعاسة

---------------- نحن مَدينُون للتعاسةِ بِكُلِّ مَا نبنيه أبعَدَ من الكينونة الخام، وبِكُلِّ القُوَى المختلفة التي تمنح العالَمَ سحنةً. التعاسة: مُهَنْدِسُ التنوُّع والعنصُرُ الذي يمكنُ إدراكُهُ في أعمالنا. كلُّ ما لا تشتمل عليه دائرتُها يتجاوَزُنا. وليس من معنًى مُمكن لأيّ حَدَثٍ لا ينتهي بِسَحْقِنا.

ينتظرنا المستقبلُ لِيُضحّي بنا. لا يُسجّل الذهنُ بَعْدَ ذلكَ سوى

---

(١) نسبةً إلى cosmogonie: علم نشأة الكون.

تصدُّع الكينونة ولا تظلّ الحواسُّ تهتزُّ إلاَّ توقُّعًا للشرّ. . . كيف لا نشرعُ منذئذٍ في الانكباب على مصير لوسيل دو شاتوبريان[١] أو الآنسة جنديرود[٢]، مُردّدين مع الأولى: «سأنام على مصيري كما يفعل الميت»، أو سكرانين باليأس الذي غرز خنجره في قلب الأخرى؟

ليس البشرُ، باستثناء بعض نماذج الكآبة الشاملة وبعض الانتحارات غير المتماثلة، سوى دُمًى متحرّكةٍ محشوّةٍ بكريّاتٍ حمراء لإنجاب التاريخ وتكشيراته.

نحنُ عبَّادُ التعاسة، حين نتّخذ منها عاملَ الصيرورة وكُنهها، فإنّنا نسبح في نقاوة القدر المحتوم، في فجر الكارثة، في جهنّم وَلُود. . . أمّا حين نخشَى أن نعيش بَعْدَها وقد خُيّل إلينا أنّنا استنفدناها، فإنّ الكينونة تَكْمدُ وتكفّ عن كلّ صيرورة. فإذا نحن نخاف أن نتكيّف مع الأمل من جديد، أن نخون تعاستَنا، أن نخوننا. . .

---

(١) لوسيل دو شاتوبريان Lucile de Chateaubriand (١٧٦٤-١٨٠٤): الأخت الكبرى للكاتب المعروف فرانسوا روني دو شاتوبريان. عاشت حياةً شقيّة وتوفّيت في ظروف غامضة والأرجح أنّها انتحرت.

(٢) كارولين فون جنديرود Karoline von Gunderode (١٧٨٠-١٨٠٦): شاعرة ألمانيّة من رموز المدرسة الرومنطيقيّة. وضعت حدًّا لحياتها بواسطة خنجر في أعقاب خيبة عاطفيّة.

-------------- إنّه هناك، في أتون الدم، في مرارةِ كلّ خليّة، في رعشة الأعصاب، في تلك الصلوات المعكوسة التي تنفثُ الكراهية، وحيثما أُتيح لهُ أن يصنعَ من الرعب رفاهية. هل أسمح لهُ بتقويضِ ساعاتي في حين أنّي قادرٌ بالتواطُؤِ مع خرابِي، على أن أتقيّأَ آمالي وأن أتنازَلَ عن نفسِي؟ هُوَ ذَا - مثل مُستأجِرٍ قاتل - يُقاسِمُنِي سريري ولحظات نسياني وليالي سَهَرِي. كي أخْسَرَهُ أحتاج إلى خسارةِ نفسي. وكيف يسعني أن أحمل المزيد من الأعباء والظلمات، حين لا يكون لديّ سوى جسد واحد وروح واحدة، الأوّل أثقل ممّا يجب والثانية أكثر غموضًا ممّا يجب؟ كيف يسعني أن أجُرَّ قدميَّ في زمنٍ أسود؟ أحلمُ بدقيقةٍ ذهبيّة خارج الصيرورة. أحلم بدقيقة مشمسةٍ متعاليةٍ على تباريح الأعضاء وعلى ميلوديا تحلُّلِها.

كيف تستمع إلى خلجات الاحتضار والفرح التي تتغلغل في أفكارك دون أن تخنق الدخيل؟ وهَبْ أنّكَ فَعَلْتَ فإنّك لن تفعلَ إلاّ عن طريق محاباةٍ غير مجدية لنفسك. لقد أصبح الآن اسْمَكَ المُستَعار. لَنْ تُكرِهَهُ على شيء دون أن تتعرّض للعقاب. لماذا تخاتل عند اقتراب الفصل الأخير؟ لماذا لا تهجم على اسمك؟

(سيكون من الخطأ التامّ الاعتقادُ بأنّ «الوحي» الشيطانيّ

حُضُورٌ لا ينفصلُ عن دَيْمُومَتِنا. ومع ذلك فإنّه ما إن يأخُذَنا حتّى نعجز عن تخيُّل كميّة اللحظات المحايدة التي عشناها قبلَه. أن نتضرَّعَ إلى **الشيطان** يعني أن نلوّن بفَضْلَةٍ من التيولوجيا حماسةً ملتبسة ترفضُ كبرياؤنا تقَبُّلَها كما هي. لكن من ذا الذي يظلُّ بِمَنْأًى عن مثل هذه المخاوف في حضْرَةِ أمير الظلمات؟ تحتاج كبرياؤنا إلى اسمٍ. تحتاج إلى اسمٍ كبير، لتعميدِ حيرةٍ ما كانت لِتُثِيرَ غير الشفقة لو أنّها لم تنجم إلاّ عن الفيزيولوجيا. يبدو لنا الشرحُ التقليديّ أكثرَ مداعبةً لغرورنا. فَضْلَةُ التيولوجيا تليقُ بالفكر...

هكذا يتحتّم علينا كي نُخفِي مرضَنا المُباشِرَ أكثر ممَا يجب، أن نلجأ إلى كيانات أنيقة وإن كانت بالية. كيف يمكننا التسليم بأنّ دُواراتنا الأكثر غموضًا ليست ناجمة إلاّ عن وعكات عصبيّة، في حين يكفي أن نفكّر في الشيطان داخلنا أو خارجنا كي ننتعش فورًا؟ أسلافُنا هم الذين أورثونا هذا النزوع إلى إضفاء مسحةٍ موضوعيّة على أمراضنا الحميمة. الميثولوجيا طبعت دمَنا والأدب غذّى فينا الميل إلى **الإفيهات**...)[1]

(١) فضّلنا استخدام هذه العبارة لترجمة effet: لكثرة تداولها عربيًا خاصّة في سياق المسرح، بمعنى المؤثّرات الأسلوبية.

مَسْخرةُ

«الحياة الجديدة»

---------------- لقد سُمِّرْنَا في أنْفُسِنَا حتى فقدنا القدرة على الابتعاد عن الدرب المحفور في فِطرِيّةِ يأسنا. هل نُعفِي أنفسنا من الحياة لأنّها ليست عنصرَنا؟ لم يُخَوَّل أحدٌ الحَقَّ في توزيع شهادات اللا كينونة. علينا أن نستمرّ في التنفّس. في الإحساس بالهواء يحرق شفاهنا. في مُراكمة الحسرات وسطَ واقعٍ لم نرغب فيه. علينا أن نتخلّى عن إيجاد أيّ تعليل للعلّة التي تسهرُ على هلاكنا. تُباغِتُنا فتراتُ الزمن كما يفعل الخنجر، وتستبدّ الرغباتُ بِلَحْمِنا فيرفض أن يتحجّر. كيف يسعنا حينئذ أن نواجه أيّ لحظة تُضافُ إلى مصيرنا؟ بواسطة أيّ حيلة نعثر على قوّة الوهم التي تزيّن لنا البحث عن حياة أخرى، جديدة؟

ذلك لأنّ البشر الذين يلقون نظرة على أنقاضهم السابقة، يتخيّلون تلافيًا للأنقاض اللاحقة، أنّهم قادرون على بداية شيء جديد جذريًّا. يعقدون مع أنفسهم ميثاقًا غليظًا، وينتظرون معجزة تخرج بهم من الهوّة التافهة التي ألقاهم فيها القدَر. لكن لا شيء يحدث. يظلّون كلّهم كما هم، دون أن يتبدّل فيهم شيء سوى تفاقُم ذلك النزوع إلى السقوط الذي هو علامتهم. نحن لا نرى حولَنا إلاّ قرائح وهِمَمًا متدهورة: **يَعِدُ** كلُّ إنسانٍ بكلّ شيء. لكنّ هذا الإنسان لا يعيش إلاّ ليعرف هشاشة وَمْضَتِهِ وافتقار الحياة إلى

العبقريّة. تتمثّلُ أصالةُ كلّ كينونة في دمارِهَا الخاصّ. إزهار صيرورتنا: مسار مَجيدٌ في الظاهر لكنّه يقود إلى الفشل. ازدهارُ مَلَكاتِنا: تمويهٌ للغنغرينا المتفشّية فينا... تحت الشمس يتغلّب ربيعٌ من الجِيَف. الجمالُ نفسُه ليس سوى الموت يتبختر في البراعم...

لم أعرف حياةً «جديدة» إلاّ كانت وهميّةً وفاسدةَ الجذور. لقد رأيت كلّ بشر يتقدّم في الزمن كي ينعزل في اجترارٍ قَلِق، ساقطًا في نفسِهِ من جديد، وليس له من أمارات التجدُّد إلاّ التكشيرة المفاجئة لآماله الشخصيّة.

المأزق الثُّلاثيّ

---------------- يكتشف العقلُ **الهويّةَ** والروحُ **السأمَ** والجسدُ **الكسَل**. إنّه مبدأ الثبات نفسِه مُعبَّرًا عنه بطُرُقٍ مختلفة وفْق أشكال التثاؤب الكونيّ الثلاثة.

تبرّرُ رتابةُ الكينونة النظريّةَ العقلانيّة وتكشفُ لنا عن كونٍ قانونيّ، كلّ شيء فيه مُتَوَقَّعٌ مضبوط، لا تعكّر تناغمه همجيّةُ أيِّ مفاجأة.

أمّا إذا اكتشفَ العقلُ نفسُهُ التناقضَ، والروحُ نفسُها الهذيانَ، والجسدُ نفسُهُ الهيجانَ، فما ذلك إلاّ لإنتاج وهْمِيّاتٍ جديدة، وللتهرُّب من كونٍ متماثل بوضوحٍ مفرط. فإذَا النظريّةُ اللا عقلانيّة هي التي تنتصر. يكشف ازهرار اللا معقولات عن كينونةٍ يبدو أمامها كلّ ضوحٍ في الرؤيةِ غايةً في الفقرِ المدقع. إنّه عدوانٌ دائمٌ لِمَا لا يُتَوَقَّع.

بين هذين المنْزَعيْن يَبْسُطُ البشَرُ لُبْسَه: لا يعثرُ على **مكانِهِ** في الحياة ولا في الفكرة فيعتقد أنّهُ منذورٌ للاعتباطيّ. إلاّ أنّ سُكْرَهُ بِكَوْنِهِ حرًّا ليس سوى تَقَلْقُلٍ داخل قَدَرٍ محتوم. فليس شكل مصيره أقلّ ضَبْطًا من شكل سُونِيتةٍ أو كوكب.

كوسموجونيا[1] الرغبة

------------------ عشتُ الحياةَ واختبرتُ كلّ الحجج المضادّة لها. جرّدتُها من كلّ طعومها لأُدْرِكَ عُرْيَها متمرِّغًا في وَحْلِها. عرفتُ الميتافيزيقا ما بَعْدَ الجنسيّة. خواءَ الكون المولودِ بلا طائل. وذلك العرَقَ الذي يتبدّد في بَرْدٍ سحيقٍ أسبَق من سَوْرات المادّة. أردتُ أن أكون وفيًّا لمعرفتي. أن أُرْغِمَ الغرائز

(١) كوسموجونيا cosmogonie: علم نشأة الكون.

على الإغفاء. ولاحظتُ ألاَّ فائدة من استخدام أسلحة العدَم إذا لم يكن في الوسع توجيهها نحو الذات. لأنّ انفجار الرغبات في غمرة المعارف التي تُنْكِرُها، يُنتِج نزاعًا مُريعًا بين عقْلِنا المُعادي للخلْق والباطنِ اللاعقلانيّ الذي يربطنا به.

إنّ من شأن كلّ رغبةٍ أن تُهينَ مجموعَ حقائقِنا وأن تضطرّنا إلى إعادة النظر فيما أنكرناه. نُمْنَى بهزيمةٍ عَمَلِيّةٍ لكنّ مبادئنا لا تتغيّر. تمنّينا أن نكفَّ عن كوننا أبناء هذا العالَم، وها نحن نرضخ للشهوات مثل ناسِكين ملتبِسين، سادة الزمن وعبيد الغُدَد. إلاّ أنّها لعبة لا حدّ لها. كلّ شهوةٍ من شهواتنا تعيد إبداعَ العالم وكلّ فكرةٍ من أفكارنا تدمّره... في حياةِ كلّ يوم تتعاقبُ نشأةُ الكون وقِيامَتُه. نحن، كمبدعين وهدّامين يوميّينَ، نمارسُ الأساطير الأبديّة على مستوى متناهٍ في الصِّغر، وكلٌّ لحظةٍ من لحظاتنا تستشرف وتعيد إنتاج مصير البزْرِ والرماد المنذور للسرمديّ.

تأويل الأفعال

--------------- ما كان لأحدٍ أن ينهض بأدنى فعلٍ لولا إحساسه بأنّ ذاك الفعل هو الواقع الوحيد الأوحد. هذه العماية هي المبدأ الذي لا جدالَ فيه لكلّ ما هو موجود، وأساسُه المطلق. ولا يُثبت من يُجادل فيه سوى أنّه ***أقلّ وجودًا***، وأنّ

الشكّ نسَفَ حيويّته... إلاّ أنّ عليه أن يشعر من وسط شكوكه ذاتها، **بأهميّة** تقدُّمه نحو النفي. معرفة ألاّ شيء يستحقّ العناء يتحوّل ضمنيًّا إلى عقيدةٍ ومن ثمّ إلى إمكانيّة فعل. وذلك لأنّ أدنى وُجودٍ يفترض عقيدة مكتومة. إنّ أصغرَ خطوة، وإن كانت تجاهَ ما يُشبه الواقع، هي ارتدادٌ عن العدم. التنفُّسُ ذاتُهُ ناجمٌ عن تعصّبٍ جَنينِيّ، شأنه في ذلك شأن كلّ مساهمةٍ في الحركة... لا يقوم الإنسان بكلّ ما يقوم به من أفعال، بدايةً من التسكّع وصولاً إلى ارتكاب المجازر، إلاّ لأنّه عاجزٌ عن إدراك لاَ مَعْناهَا: كلُّ ما يُنجَزُ في الأرض ناجم عن وهم بالامتلاء في الفراغ، عن وهمٍ بعمْقِ اللا شيء...

باستثناء خلق العالم وتدميره، تتساوى الأفعال كلّها في البطلان.

الحياةُ بلا موضوع

------------------ أفكار محايدة شبيهة بعيون جافّة. نظرات كئيبة تجرّد الأشياء من كلّ تضريس. فحصٌ للذات يختزل المشاعر في ظواهر الانتباه. حياةٌ ضبابيّة، بلا دموع ولا ضحكات. - من أين لك بِنسغٍ؟ بحيويّة ربيعيّة؟ وكيف يمكنك تحمُّل هذا القلب المستقيل، وهذا الزمن المهدود أكثر ممّا يتيح له مدّ فُصوله نفسِها بخميرة النموّ والانحلال؟

حين تكون قد رأيتَ في كلّ قناعةٍ دنَسًا وفي كلّ ارتباطٍ تدْنيسًا، فإنّك تفقد الحقَّ في انتظار مصيرٍ يُعدّله الأمل، هنا أو في مكان آخر. عليك أن تختار منبرًا مثاليًّا معزولاً بشكلٍ مُضحك، أو كوكبًا هزليًّا متمرّدًا على المجرّات.

يجرّد الحزنُ حياتَك من كلّ إحساسٍ بالمسؤوليّة، فإذا هي تسخر من لحظاتها، في حين أنّ الحياة هي تقوى الديمومة، هي الإحساس بأبديّة راقصة، هي الزمن متجاوزًا نفسَهُ ومُنافسًا الشمس.

أَسِيدِيَا[1]

---------------- ألاَ يُذكِّرُكَ خُمولُ أعضائك وذهولُ مَلَكاتِك وابتسامتك المتحجّرة تلك، بضجَرِ الأديِرة؟ بالقلوب التي أقفرت من الربّ؟ بجفاف الرهبان وبلاهتهم وهم يتماقَتُونَ في حمّى نشوة الاستمناء؟ لستَ سوى راهبٍ خلْوٍ من الفرضيّات الإلَهيّة، خلوٍ من زَهْو الرذيلة الانفراديّة.

الأرضُ والسماءُ جدرانُ حُجرتك، وفي الهواء الذي لا يحرّكُهُ نَفسٌ، لا سيادةَ إلاّ لغياب الصلاة. أنت منذورٌ لساعات بطالةِ الأبديّة، للوقوف على محيط الرعدات، وللرغبات العَفِنة التي

(١) ACEDIA مرضٌ يجمع بين خمول الجسم ووهن الأعضاء وطيش العقل وقرف النفس وغلبة الحزن وسواد النظرة وسأم الحياة، ونتيجته في السياق اللاهوتيّ إضعاف الحسّ الدينيّ.

تتفسّخُ مع اقتراب الخلاص، لذلك تتحرّك في اتّجاه حُكْمٍ لا أبّهة فيه ولا احتفاء، بينما لم تتخيّل أفكارك جلالاً عدا جلالِ الموكب الوهميّ للرجاء.

في الماضي، كانت الأرواح تنطلق بفضل الآلام في اتّجاه القبّة الزرقاء. أمّا أنت فتصطدم بقِبابك، وتسقط من جديد في العالم مثل بُويبٍ خفيٍّ بلا إيمان، متسكّعًا في الشارع، الذي هو رهبانيّةُ الفتيات الضالاّت، ورهبانيّةُ هلاكك.

مساوئ الشجاعة والخوف

---------------- أن تخاف يعني أن تفكّر دائمًا في نفسك وأن تعجز عن تصوُّرِ مجرًى موضوعيّ للأشياء. الإحساس بالرهيب، الإحساس بأنّ كلّ شيء يحدثُ ضدّك، يفترضُ وُجود عالمٍ تمّ خَلْقُهُ دون مخاطِرَ عديمة الاكتراث. الخوّاف - ضحيّة ذاتيّةٍ متضخّمة - يعتقد أنّ أحداثًا مُعادِية تستهدفه أكثر من بقيّة البشر. عندَ هذا الخطأ يلتقي الشجاعَ الذي لا يرى في المقابِل وحيثما سار إلاّ كلّ منعةٍ من الأذَى. كلاهُما يبلغ الدرجة القصوى من وعيٍ مزهُوٍّ بنفسه: هذا يتآمر عليه كلّ شيء والآخر يناسبُه كلّ شيء. (ليس الشجاع سوى فَيّاشٍ يعتنق الإنذار ويهرب في اتّجاه الخطر.) يستقرّ كلاهما في مركز العالم، أحدهما بطريقة سلبيّة، والآخر بطريقة إيجابيّة. لكنّ وَهْمَهُمَا واحدٌ لأنَّ لمعرفتِهِمَا نقطة

انطلاق واحدة: الخطر بوصفه الواقع الوحيد. أحدهما يخافه والثاني يبحث عنه. ليس في وسعهما تصوُّرُ احتقارٍ واضحٍ للأشياء، لذلك هما ينسبان كلّ شيء إليهما. إنّهما مضطربان أكثر ممّا يجب (وليس من شرّ في العالم إلاّ وهو ناجم عن الإفراط في الاضطراب، وعن زخمِ قصص البسالة والجبن.) من ثمّ، فإنّ هذين المتشابهين المتضادّين المثاليّين، هما عامِلَا كلّ خلل وكلّ تشويش يطرأ على سير الزمن. إنّهما يلوّنان عاطفيًّا أدنى تصوُّرٍ لأيّ حدث، ويعرضان نواياهما المحمومة على كونٍ مخزٍ لا يمكن تحمّله، ما لم يستسلم إلى بعض القرف الهادئ. الشجاعةُ والخوفُ قُطْبَا المرَضِ نفسه، الذي يتمثّل في إيلاء الحياة أكثر ممّا يجب من الدلالة والخطورة. إنّ الافتقار إلى المرارة اللامبالية هو الذي يصنع من البشر دوابّ طائفيّة. لا يرتكب أصغر الجرائم وأكبرها إلاّ أولئك الذين يأخذون الأمور على محمَل الجِدّ. وحدَهُ اللامُبالِي ليس ولوعًا بالدم، وحدَهُ ليس مجرمًا...

إزالةُ السُّكْر

---------------- للكائنات همومٌ مكشوفة ترتسم واضحةً وضوح محيط هذه الصفحة. ما الذي يسعك أن تُدرج فيها إن لم يكن قرَفَ الأجيال المترابطة مثل القضايا ضمن حتميةِ القياس العقيمة؟

ليس من شكٍّ في أنّ المغامرة الإنسانيّة ستعرف حدًّا يمكننا تصوّره دون أن نكون من معاصريه. وإذا كنّا قد أتمَمْنَا في قرارة أنفُسِنا طلاقَنا مع التاريخ، فإنّ من غير المجدي تمامًا أن نشهدَ لحظَتهُ الختاميّة. ليس علينا إلاّ أن ننظر إلى الإنسان المُقابل لنا كي ننفصل عنه وكي نكفّ عن التحسّر على خِدَعِه. آلافُ السنين من العذاب التي كان في وسعها أن تُذيب الحجَر، لم تُفلح إلاّ في إعدام الإحساس لدى هذا العابر الفولاذيّ، هذا النموذج الفظيع من التلاشي والتصلّب، الذي يهزّه جنون لا طعم له، وإرادةٌ في الوجود هي في الوقت نفسه رائغةٌ لا تُدْرَك وقليلةُ الحياء. حين ندرك ألاّ وجود لموضوع بشريّ موافقٍ للاتناهي، وألاّ وجود لحركة تستحقّ العناء، فإنّ القلبَ يكفّ عن استخدام دقّاته لإخفاء فراغه. يتشابه البشر داخل مصير متماثل وعبثيّ، مثلما تتشابه الكواكب - أو صلبان المقبرة العسكريّة - بالنسبة إلى العين اللامُبالية. من بين كلّ الأهداف المقترحة على الكينونة، والتي يمكن إخضاعها للتحليل، أيُّها ينجو من أن يكون مُضحِكًا أو جنائزيًّا؟ أيّها لا يكشفُنا لنا تافهين أو مشؤومين؟ وهل ثمّة سحرٌ وحيد يمكنه أن يخدعنا بعد ذلك؟

(ما إن تُستَبْعَدَ من كلّ تقادُمٍ مرئيّ، حتى تُصبح غَيْرَ قانونيٍّ ميتافيزيقيًّا، شأنك في ذلك شأن الشيطان. أنت ذا خارج نظام العالم. وما دمتَ لا تعثر لك فيه على موقع فإنّك تنظر إليه دون أن

تتعرّف عليه. ينتظم ذهولك في ردّ فعل، بينما تظلّ دهشتُك المنتحبةُ متسمّرةً أبدًا في الفراغ. الأحاسيس التي تنتابك لم يعد يُثيرُها شيء لذلك تكفُّ عن التجاوب مع الأشياء. هكذا تتجاوزُ حلمَ ملاك الكآبة نَفْسِه، وتتحسّر على أنّ دُورِرْ[1] لم يسقم من الحبّ أمام عينين أكثر ذهولاً...

حين يبدو كلّ شيءٍ، بما في ذلك الرؤيةُ الأكثر نُبْلاً، ملْموسًا أكثر ممّا يجب، موجودًا أكثر ممّا يجب، وحين يضنيك العذاب جرّاءَ مُبْهَمٍ لا ينتمي لا إلى الحياة ولا إلى الموت، وحين يغدو كلّ اتّصال بالكائن اغتصابًا للروح، فإنّ هذه الأخيرة، وقد ابتعدت عن طائلة القضاء الكونيّة وباتت بلا حسيب تحتكم إليه ولا قانون تخرج عليه، تصبحُ - بفضل الحزن - قادرةً على التنافس مع القدرة الكليّة الإلهيّة.

مَسارُ الكُرْه

------------------ أنا لا أكره أحدًا، إلاّ أنّ الكراهية تُلوّثُ دمي وتحرق هذه الجلدة التي عجزَتْ عن دَبْغِها السنوات.

---

(١) ألبرت دورر Dürer (١٤٧١-١٥٢٨): الرسام الألماني ورائد الحفر على الخشب في عصره. والملاك الذي يذكره سيوران عنصر من عناصر لوحة ملانخوليا (أو كآبة) التي تعدّ من روائع دورر.

كيف يسعُ أحكامًا مَا، قاسيةً كانت أم معتدلة، ترويض حزنٍ بشِعٍ وصرخة مسلوخ؟ أردتُ أن أحبّ الأرض والسماء بمنجزهما وحماستهما، لكنّي لم أجد فيهما إلاّ ما يذكّرني بالموت: الأزهار، الكواكب، الوجوه. - رموز الذبول تلك! لحود افتراضية لكلّ القبور الممكنة! لا شيء ممّا يُخلَق في الحياة ويمنحها نُبْلها، إلاّ وهو يتقدّم في اتّجاه خاتمة مريعة أو تافهة. لقد تسبّب هيجان العواطف في فواجع لم يجرؤ على تصوُّرها أيّ شيطان. هل صادفتك روح مضطرمة؟ إذَنْ ثق بأنّك ستكون ضحيّتها في نهاية المطاف. حيثما سار أولئك الذي يؤمنون **بحقيقتهم** - وهم الوحيدون الذين تحتفظ ببصمتهم ذاكرة البشر - فإنّهم يتركون وراءهم طرقًا مزروعة بالجثث. والغلبة العليا في هذا المجال لأولئك الذين ألّهتهم البشريّة، على حساب أكثر القتلة تفانيًا في تعطّشهم للدماء. إنّ للأديان من الجرائم، عند جرد الحساب، أكثر ممّا لأشدّ الطغاة دمويّة.

مَقموعٌ كُلُّ من يقترح عقيدةً جديدةً في انتظار أن يُصبح من القامعين. تبدأ الحقائق بنزاعٍ مع البوليس وتنتهي بالاعتماد على البوليس. لأنّ من شأن كلّ فكرةٍ لا معقولةٍ نتعذّب من أجلها أن تنحطُّ إلى حالةٍ قانونيّة، تمامًا كما يؤول كلّ شهيدٍ إلى فقرات في المدوّنة القانونيّة، إلى غثاثات الرزنامة أو إلى جدول أسماء الشوارع. في هذا العالم تصبح السماءُ نفسُها *سُلطة*. ولَكَمْ رأينا عهودًا لم تعش إلاّ تحت نير تلك السلطة، وعصورًا وُسطى أكثر سخاء بالحروب من أكثر المراحل انحطاطًا، وحملات صليبيّة

بَهِيمِيّة، مُرَوْنَقة زُورًا بِطِلاءٍ من الجليل، تبدو غزواتُ الهون[1] بالقياس إليها طيشَ عصاباتٍ سافلة.

تنحطُّ الأعمال البطوليّة الأكثر طهرانيّة حين تتحوّل إلى نشاطٍ عموميّ. يُلطّخُ التكريسُ الإكليلَ الأكثر رفعة. ملاكٌ يحرسه جندرميّ - هكذا تموتُ الحقائق وتنفقُ الحماسات. يكفي أن تظهرَ ثورةٌ وأن تجد لها مشايعين متحمّسين، يكفي أن تنتشر بشارةٌ وأن تحتكرها مُؤسّسة، كي نرى الاضطرابات التي كانت في السابق انفراديّة، تتدنّس في وُجودٍ مُرغَم على البغاء، بعد أن آلت عن طريق القسمة إلى مستجدّين في العقيدة حالمين. أرُوني شيئًا واحدًا في عالَمنا الأرضيّ، كانت بدايته جيّدة ولم تكن عاقبته وخيمة. الخفقات الأكثر شموخًا تغرق في بالوعة، حيث تكفّ عن الاختلاج وكأنّها بلغت نهايتها الطبيعيّة. على هذا السقوط تتأسّس مأساة القلب ويتأسّس الاتّجاه السلبيّ للتاريخ. ليس من «مثَلٍ أعْلَى» يتغذّى في بداياته من دماء المتعصّبين له، إلاّ وهو يهترئ ويتلاشى حين يتبنّاه الحشد. هكذا يتحوّل جرن الماء المُقدّس إلى مِبْصَقة. إنّه الإيقاع الحتميّ لِـ«التقدّم».

على مَنْ نَصُبُّ جامَ كراهيتِنا في مثل هذه الظروف؟ لا أحد يتحمّل مسؤوليّةَ أن يَكون، فضلاً عن مسؤوليّة أن يكون على ما هو

---

(١) الهون (Huns): شعب من الرحّل ظهر في آسيا الوسطى بين القرنين الرابع والسادس للميلاد. عُرفوا بغاراتهم الشرسة على الإمبراطوريّة الرومانيّة الشرقيّة وعلى بلاد الغال بقيادة ملكهم أتيلا.

عليه. يُصابُ كلٌّ منّا بالكينونة فيتحمّل تبعاتها مثل الدابّة. هكذا تتضخّم الكراهية في عالمٍ ليس فيه إلاّ ما يُكره، فإذا هي أوسع من العالم، وتتجاوز موضوعَها فإذا هي تُلغي نفسَها.

(لا تتجلّى النقطة السفلى لحيويّتنا عن طريق ما يعتري أعضاءنا من وَهَنٍ مريب أو اعتلال واضح الأسباب. كما أنّنا لا نتبيّنها من خلال الوساوس أو تقلّبات ميزان الحرارة. - لكن يكفينا الشعور بتلك النوبات التي لا تفسير لها من الكراهية والشفقة. تكفينا تلك النوبات من الحمّي التي لا يمكن قياسها، كي نفهم أن توازننا في خطر. أن نكره كلّ شيء وأن نكره أنفُسنا، في فَوْرةٍ من السُّعار الكانيباليّ. أن نشفق على الجميع وعلى أنفسنا. - حركتان متناقضتان في الظاهر لكنّهما متماثلتان أصْلاً، لأنّنا لا نُشفق إلاّ على ما نرغب في إزالتهِ وعلى ما لا يستحقّ الوجود. وفي هذه الاختلاجات، فإنّ من يخضع لها، والكون الذي تتوجّه إليه، منذوران إلى الهياج المدمّر الرؤوف نفسه. حين تعترينا الرحمة فجأة، ودون أن نعرف السبب، فذلك لأنّ كلال الأعضاء يُنذر بانزلاقٍ خَطِر، وحين تلتفت هذه الرحمة الغامضة، والكونيّة، تجاه الذات، فهذا يعني أنّنا في وضعيّة الإنسان الأخير. إنّ الضعف البدنيّ الهائل هو الذي يُنتج هذا التضامن السلبي مع الأشياء في الكره أو الشفقة. وسواء ظهر هذان العارضان بشكل متوازٍ أو متعاقبٍ فإنّهما ليسا مجرّد أعراض غير مؤكّدة، بقَدْرِ ما أنّهما علامات صريحة على حيويّة متناقصة يُهيّجها كلّ شيء. - بدايةً من

الكينونة التي لا فواصل فيها بين الأشياء وُصولاً إلى دقّة كياننا الشخصيّ.

إلاّ أنّه لا ينبغي أن نخدع أنفسنا: هذه النوبات هي الأوضح والأكثر غُلُوًّا، لكنّها ليست الوحيدة: كلُّ شيءٍ باثُولُوجيًا، بدرجاتٍ متفاوتة، باستثناء اللامُبالاة.)

«القوْمُ الهالِكون»[1]

---------------- يا لها من فكرةٍ غريبة أن تُقَسَّم الجحيمُ إلى حَلَقات وأن تتنوّعَ كثافةُ النيران وتتراتبَ درجاتُ العذاب حسب كلّ قسم! المهمّ أن تكونوا هناك. الباقي مجرّد زخارف، أو حُروق. في المدينة العُليا أيضًا - وهي تصوُّرٌ مُسبق أكثر لطفًا للمدينة السفلى، عِلْمًا بأنهما تابعتان لنفس السيّد - ليس المهمّ أن تكونوا شيئًا مَا - ملِكًا، بورجوازيًّا، عاملاً يوميًّا - بل المهمّ أن تنخرطوا فيها أو أن تتملّصوا منها. وسواء ساندتُم هذه الفكرة أو تلك وحصلتم على موقع أو كنتم من الزواحف، وما دامت أفكارُكم وأفعالكم تخدم شكلاً حقيقيًّا أو مُتخيَّلاً من أشكال المدينة، فأنتم عبَدَتُها وسُجَناؤُها. قد يختلف وجه الاهتمام بها بين

---

(١) القوم الهالكون (la perduta gente): العبارة من الكوميديا الإلهيّة لدانتي، الأنشودة الثالثة. ترجمة كاظم جهاد. نشر المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (سلسلة روائع الأدب العالميّ - اليونسكو). ٢٠٠٢.

أكثر المُستَخْدَمِين خُمولاً والفوضويّ الأكثر اندفاعًا، إلاّ أنّ كلاًّ منهما يعيش تبعًا لها. كلاهما *مُواطِنٌ* في باطِنه، وإن كان أحدهما يفضّل شِبْشِبَهُ والآخرُ قنبُلتَه. إنّ «حلقات» المدينة الأرضيّة، شأنها في ذلك شأن المدينة التحتِيّة، تحبسُ الكائنات داخل طائفة ملعونة، وتقودها في موكب الآلام نفسه، حيث لا فائدة من البحث عن فويرقات. إنّ من شأن كلّ من يمنح موافقته على المسائل البشريّة، مهما كان شكلها، ثوريّة كانت أم محافظة، أن يفنَى بتلذُّذٍ يدعو إلى الرثاء. إنّه يخلط بين نَبالَتِهِ وسُوقيّتِهِ في بلبلة الصيرورة...

بالنسبة إلى الكائن غير الموافق، الأدنى من المدينة أو الأبعد، والذي ينفرُ من أن يتدخّل في مجرى الأحداث كبيرِها وصغيرِها، فإنّ طرائق الحياة المشتركة تبدو له محتَقرةً كلّها بنفس الدرجة. ليس في وسع التاريخ أن يمثّل في نظره سوى أهميّةٍ باهتة لخيبات متجدّدة وخِدَعٍ مُتَوَقَّعة. أمّا ذاك الذي عاش بين الناس، ***ومازال ينتظر حدثًا وحيدًا غير مُتَوقَّع***، فإنّه لم يفهم ولن يفهم شيئًا أبدًا. إنّه ناضج بالنسبة إلى المدينة: يجب أن يُمنَح كلّ شيء، كلّ المناصب وكلّ التشريفات. ذاك هو شأن كلّ البشر. - وذاك ما يفسّر طول عمر هذه الجحيم الأرضيّة.

—————— كيف يسعنا ألاّ نحبّ الحكمة الخريفيّة للحضارات الرّخْوة الفاسدة؟ الرعبُ الذي ينتاب اليونانيَّ، وكذلك الرومانيَّ المتأخّر، أمام نضارة أبناء الأصقاع الشماليّة القصوى وردودِ فعْلهم، ناجمٌ عن الاشمئزاز من أضواء الفجر ومن حماقات الصحّة ومن الهمجيّة الفيّاضة بالمستقبل. إنّ مُجاورة السكوثيّ[1] تُكدّرُ الفسادَ البَهِيّ لكلّ نهايةِ خريفٍ تاريخيّ. ليس من المُتاح لحضارةٍ أن تنطفئ في احتضار بلا نهايةٍ مُحَدّدة. ثمّة قبائل تحوم في الجِوار مُشْتَمّةً روائح الجثث المُعطّرة... هكذا يتأمّل المتحمّسُ للغروب فَشَلَ كلّ رهافة والتقدُّمَ الصّفِيقَ للحيويّة، فلا يبقى لديه ما يقطفُ من مُجمَل الصيرورة إلاّ بعض النّوادر... فإذَا نسَقُ الأحداث عاجزٌ عن البرهنة على شيء. وإذَا البطولاتُ الباهرة تنضَمُّ إلى الخرافات وكُتُب المختصرات. وإذَا لاَ أحدَ يهتمُّ بالأعمالِ المجيدةِ السابقة والرجال الواقفين وراءها، إلاّ بسبب الأقوال التي توّجَتْهَا. الويلُ للفاتح المُجرّد من مَلَكةِ الأدب! يسوع نفسُهُ، على الرغم من أنّهُ ضِمْنيًّا دكتاتورٌ منذ ألفيّتين، لم ينطبع في ذاكرة مريديه وخصومه إلاّ بفضل تلك النُّتَف من العبارات

---

(١) السكوثيّ (le scythe): المنتمي إلى السكوثيّين، وهم شعب أغلبه من الرحل المنحدرين من أصول إيرانيّة. نزحوا من سهول أوراسيا حتى استقرّوا في شبه جزيرة القرم (أوكرانيا اليوم). ظهرت إمبراطوريّتهم حوالي القرن السابع قبل الميلاد، وأفلت في القرن الثاني للميلاد.

المتناقضة التي تحفُّ بحياتهِ المُمَسرحة بمهارة. من الذي يستمرّ في السؤال عن شهيدٍ إن لم يتفوّه ذاك الشهيدُ بكلمة ملائمةٍ لعذابه؟ نحن لا نحفظُ ذكرى الضحايا السابقين أو الراهنين إلاّ إذا خلّدَ كلامُهم الدّمَ الذي ضرَّجهُم. لم تبقَ من ذكرى للجلاّدين أنفسهم إلاّ بقدْر ما كانوا مُمثّلين: لولا التماعاتُ المُهرّج الدمويّ التي نُسِبت إليه لنُسِيَ نيرون منذ وقت طويل.

لا يكبّ أشباهُ الميت على تمتماته استجلاءً لرغباته الأخيرة، بقدْرِ ما يفعلون اقتناصًا لقولٍ مأثور يستشهدون به فيما بعد إِحياءً لذكراه. وإذا كان المُؤرّخون الرومان لا يغفلون البتّةَ عن وصف احتضار أباطرتهم، فما ذاك إلاّ ليُضمِّنُوا ذلك الوصْفَ حكمةً أو صرخةً ندّت أو يُفترض أن تكون قد ندّت عنهم. يصحّ ذلك في شأن كلّ احتضارٍ وإن كان احتضار شخصٍ عاديّ. كون الحياة لا تعني شيئًا فهذا أمر يدركه أو يشعر به الجميع: فَلْيَتمّ على الأقلّ إنقاذها عن طريق حيلةٍ لَفْظِيّة. عبارةٌ في منعطفات حياتهم - هو ذا تقريبًا كلّ المطلوب من الكبار والصغار. ما إن يُخلّوا بهذا الاقتضاء أو بهذا الواجب حتّى يهلكوا إلى الأبد. وذلك لأنّنا نغفر كلّ شيء، حتى الجرائم، شَرْطَ أن تتقادمَ وأن يتمّ *التعليق* عليها بشكلٍ ممتع. ذاك هو الغفران الذي يجود به الإنسان على التاريخ ككلّ، حين لا يعثر هذا الإنسان على معيارٍ آخر مُؤثِّرٍ فعّال، وحين يختصرُ البطلانَ العامَّ فلا يجد لنفسه كرامةً سوى كرامةِ أديبِ الفشل وإستطيقيّ الدم.

في هذا العالَم حيث تختلط الآلام وتتلاشى، لا سيادةَ إلاّ للعبارة.

---------------- يَحسُنُ بالفيلسوف المتخلّي عن أنساقه وخرافاته، إذا ظلّ مُثابرًا على السير في دروب العالَم، أن يُحاكِيَ بِيرُووِيّةَ[١] الرّصيف التي تتجلّى لدى أقلّ المخلوقات دُغمائيّةً: بائعة الهوى. إنّها منفصلةٌ عن كلّ شيء منفتحةٌ على كلّ شيء، تتكيّف مع مزاج الزبون وتتبنّى أفكاره، تُغيّرُ نبرتَها وملامحَها عند كلّ مناسبة، مستعدّة لأن تكون حزينة أو مرحة، دون اكتراث، مغدقةً تأوّهاتها لدواعٍ تجاريّة، ملقيةً على جارها المقابل والصادق نظرة فطِنةً كاذبة، - وهي من ثمّ تقترح على العقل نموذجًا للسلوك ينافس سلوك الحكماء. أن تكون بلا قناعات تجاه البشر وتجاه الذات، ذاك هو الدرس الرفيع الذي يُقدّمه البغاء، أكاديميّةُ الوعي المتجوّلةُ على هامش المجتمع والفلسفة. «لقد تعلّمتُ كُلَّ ما أعرف في مدرسة البغايا». هكذا يحسن القولُ بالمفكّر الذي يقبل بكلّ شيء ويرفض كلّ شيء، إذا هو تخصّص اقتداءً بهنّ، في الابتسامة المُتعَبَة، وإذا لم يعد البشرُ بالنسبة إليه سوى زبائن، وإذا غدت أرصفةُ العالَم السُّوقَ التي يبيع فيها مرارَته، على غرار زميلاته اللواتي يبعن أجسادهنّ.

---

(١) البيرُووِيّة (pyrrhonisme): مذهب الفيلسوف اليوناني بيرو (أو بيرون) الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، وكان ريبيًّا مطلقًا ينكر وجود الحقيقة.

هاجسُ الجوهريّ

----------------- يبدو كلّ استفهام عَرَضِيًّا هامشيًّا، فيشرع العقلُ في البحث عن مسائل تظلّ تتّسع باستمرار، حتى يحدث له ألاّ يصطدم في مساره بأيّ موضوع، عدا عقَبةٍ غير متعيّنةٍ في المكان، تتمثّل في الفراغ. من ثمّ يُصبح الاندفاع الفلسفيُّ الملتفتُ حصريًّا ناحيةَ ما لا يُدرَك، عرضةً للإفلاس. إنّه يفرض على نفسه أكثر من ضيقةٍ مُخَلِّصةٍ لفرط ما يقلّب من الأشياء والذرائع الزمنيّة. وعلى الرغم من بحثه عن مبدأ أكثر فأكثر عموميّةً، فإنّه يهلك ويُلغي نفسَهُ في ضبابيّة الجوهريّ.

لا ينجح في الفلسفة إلاّ الذين يتوقّفون في الوقت المناسب، راضِينَ بمستوًى معقول من الحيرة، حدًّا ورفاهية. ليس من مسألةٍ استُنْفِدتْ إلاّ أفضت إلى الإفلاس وتركت الذهن في حالة عجز. لا مسائل ولا حلول في فضاء بلا أُفق. تنقلبُ المسائل على الذهن الذي تفتّق عنها فإذا هو ضحيّتها. وإذا الأشياء كلُّها معاديةٌ له: عزلتُه، جرأتُه، المُطلَقُ المُبهَم، الآلهةُ التي لا يمكن التحقُّقُ منها، والعدمُ الجلِيّ. الويل لِمَنْ لا يتوقّف عندَ لحظةٍ مُعيّنة من الجوهريّ. يؤكّد التاريخ أنّ المفكّرين الذين ارتقوا سُلّمَ الأسئلة حتّى أقصاه ووضعوا القدَمَ على الدرجة الأخيرة، درجة اللامعقول، لم يتركوا للأجيال التالية إلاّ نموذجًا للعقم. أمّا زملاؤهم الذين توقّفوا عند منتصف الطريق فقد أخصبوا مجرى

التفكير، وكانوا في خدمة أشباههم، وأورثوهم بعضَ الأنصاب المنحوتة بإتقان، بعضَ الخرافات المصقولة، بعضَ الأخطاء المَخْفِيَّةِ في هيئة مبادئ، ومنظومةً لإنتاج الرجاء. لو استسلموا إلى مخاطر نداء الأقاصي، لَجَعَلهُم استخفافُهم بالزلاّت الخيّرة، مضرّين بالآخرين وبأنفسهم. - فإذا هم باحثون مُفسدون ومنبوذون عقيمون، هواة دوار لا طائل من ورائه، مُطارِدُو منامات ليس من الجائز الحلمُ بها.

وحدَها الأفكارُ المستعصية على الجوهريّ قادرةٌ على التأثير في البشر. ما شأنهُم بمنطقةٍ من مناطق الفكر ينهار فيها حتى ذاك الذي يصبو إلى اتّخاذها مقرًّا، عن نزوع طبيعيّ أو عن ظمَإٍ مرَضِيّ؟ مَا مِنْ تَنَفُّسٍ في ميدانٍ لا علاقةَ له بالشكوك المألوفة. وإذا أمكن لبعض العقول اتّخاذ موقع خارج دائرة الاستفهامات المُتّفَق عليها، فما ذاك إلاّ لأنّ غريزةً متجذّرة في أعماق المادّة، أو آفةً منبثقةً من مرضٍ كونيّ، استحوذت عليهم، وقادَتْهُم إلى نمطٍ من التأمّل الذي بلغَ حدًّا من التطلّب والشساعة، بدَا لهم حِيالَهُ الموتُ نفسُه بلا أهميّة، وعناصرُ القدر هُراءً، وجهازُ الميتافيزيقا عاديًّا ومشبوهًا.

عن هذا الهوس بالحدّ الأخير وعن هذا التقدُّم في الفراغ ينجرُّ أكثر أشكال العُقْم خطورة. عُقْمٌ يبدو العدمُ بالقياس إليه وَعْدًا بالخصوبة. ليس على الشخص ***المتطلّب*** فيما يقوم به - في عمله

أو في مغامرته - إلاّ أن ينقل ولعه ***بالشيء الكامل*** إلى مستوى الكونيّ، حتى يفقد كلّ قدرة على إنجاز عمله أو حياته.

الحيرةُ الميتافيزيقيّة شرطٌ من شروط الحِرَفِيّ شديد الوسوسة الذي لا موضوع له إلاّ ***الكينونة***. ذاك الذي ينتهي به التحليل إلى استحالة إنشاء أو إكمال مُنَمْنَمَةٍ عن الكون.

الفنّان الذي يتخلّى عن قصيدته وقد أسخطه فَقْرُ الكلمات هو صورةٌ مُسبقة عن الفكر الساخط في مُجمَلَ ما هو كائن.

العجز عن ترتيب العناصر - وهي لا تقلّ خلُوًّا من المعنى والمذاق عن الكلمات التي تعبّر عنها - يُفضي إلى اكتشاف الفراغ. هكذا يلوذ النّظّامُ بالصمت أو بألعاب لغويّة مستغلقة.

في الكون يُمنى العقلُ المتطلّب أكثر ممّا ينبغي بهزيمة مماثلة لهزيمة مالارميه أمام الفنّ. إنّه الذعر الذي ينتابنا أمام موضوع لم يعد موضوعًا، ولم نعد قادرين على معالجته، لأنّنا، من حيث الكمال، تجاوزنا حدوده.

إنّ على الذين يتعالون بمهنة الكينونة ولا يمكثون ***داخل*** الواقع الذي يتعهّدونه، أن يتصالحوا مع اللاجوهريّ وأن يتراجعوا ليصطفّوا داخل المهزلة الأبديّة، أو أن يرضوا بكلّ تبعات شرطِ

مُفارق، وهو إمّا زيادةٌ نافلة وإمّا تراجيديا، تبعًا لكوننا نشاهده أو نعانيه.

سعادةُ الوَرَثة

------------------ هل ثمّةَ تلذُّذٌ مُرْهَفُ اللُّبْسِ أكثر من شُهُودِ انهيارِ أسطورة؟ أيّ تبذيرٍ للقلوب من أجل ولادتها! أيّ إفراطٍ في التعصّب من أجل فرض احترامها! أيّ رعبٍ وُوجه به المشكّكون فيها، وأيّ إهدارٍ للرجاء من أجل رؤيتها تهلك! لا يزدهر الذكاء إلاّ في المراحل التي ترى العقائد تذبلُ فتتراخى فصولُها وتعاليمُها وتلين قواعدُها. نهاياتُ المراحل هي فردوسُ العقل الذي لا يستعيد دورَهُ ونزواتِه إلاّ داخل جسم في ذروة التحلّل. وعلى من ابتلاهُ سوءُ الطالع بالانتماء إلى مرحلة إبداعٍ وخصوبة أن يتحمّل حدود تلك المرحلة وقدامتَها المتأصّلة. سيظلّ عبدَ رؤيةٍ أحاديّة تحبسه في أُفقٍ مسدود. الفتراتُ التاريخيّة الأكثر خصوبةً كانت في الوقت نفسه الفترات الأقلّ قابليّةً للتنفُّس. كانت تلك اللحظات تهبط كالنعمة على العقل الساذج وكالمُصيبة على المولع بالمساحات الفكريّة. ليس للحريّة مدًى إلاّ لدى الورثة العقيمين خائبي الأمل، لدى عُقول المراحل المتأخّرة، المراحل التي يتفّتُ أسلوبها فإذا هو لا يلهمنا إلاّ مُجاملةً ساخرة.

الانتماءُ إلى كنيسةٍ غير واثقة من ربّها - بعد أن فرضته في السابق بالنار والدم - ذاكَ ما ينبغي أن يكون الغاية المثلى لكلّ ذهنٍ ثاقب. ما إن تصبح الأسطورة فاترة شفّافة وما إن تغدو المؤسّسة التي تسندها متسامحةً متفهّمة، حتّى تكتسب المسائل مرونةً رائقة. إنّ ضُعْفَ الإيمان وتدنّي حيويّته يرسّخان فراغًا ليّنًا في الأرواح، ويجعلانها أكثر قابليّة للتأثّر، دون أن يسمحا لها بالمزيد من العمى أمام الخرافات التي تتربّص بالمستقبل وتكدّره. وحدَهَا تُهدهدُ العقل، سكراتُ موت التاريخ، تلك التي تسبق حماقةَ كلّ فجر...

الجسارةُ القُصوَى

---------------- لو صحّ أنّ نيرون قال: «سعيدٌ أنت يا بريام إذ شهدتَ خراب بلادك»، فإنّ علينا الإقرار له بفضل الارتفاع إلى أسمى التحدّيات، إلى آخر أقانيم الحركة الجميلة والتفاصُح المرعب. بعدَ مِثْلِ هذه العبارة اللائقة حدّ الروعة بفم إمبراطور، من حقّنا التفاهة، بل لعلّنا مرغمون عليها. من ذا الذي في وسعه الطمع في المغالاة بعد ذلك؟ كلُّ ما يطرأُ على سوقيّتنا من أعراض تافهة يضطرّنا إلى الإعجاب بهذا القيصر الغاشم المتصنّع، (خاصةً وقد عرف خَبَلُه مجْدًا أكبر ممّا عرفته زفراتُ ضحاياه، ما دام التاريخ المكتوب يتساوى في لا إنسانيّته مع الأحداث التي تقف

وراء كتابته). كلّ *الوضعيّات* بالقياس إلى وضعيّاته تبدو تقليدًا مُضحكًا. وهَبْ أنّه أحرق روما شغفًا بالإلياذة، هل حظِيَ إطلاقًا أثرٌ فنيٌّ بتكريم *ملموسٍ* أكثر من ذاك؟ هو في كلّ الأحوال، النموذج الوحيد للنقد الأدبيّ *المتحرّك*، وللحكم الجماليّ *الناشط*.

لا يكون أثرُ الكتاب فينا حقيقيًّا إلاّ حين نشعر بالرغبة في مُحاكاة قصّته، أي بالرغبة في أن نقتل إذا كان البطل يقتل، وأن نغار إذا كان غيورًا، وأن نمرض ونشرف على الموت إذا كان يتعذّب أو يحتضر. إلاّ أنّ هذا كلّه يظلّ افتراضيًّا بالنسبة إلينا نحن، أو ينحطُّ إلى كلماتٍ ميتة. وحدَهُ نيرون اتّخذَ الأدبَ فُرجةً. لقد كتبَ تقاريره برماد معاصريه وعاصمته...

كان لابدّ لهذه الأقوال والأفعال من أن تُقال وتُنجَز لمرّةٍ على الأقلّ. لقد تكفّل بذلك مجرمٌ. قد يكون لنا في ذلك بعض العزاء، بل يجب أن يكون، وإلاّ كيف نستعيد مسارنا العاديّ وحقائقنا البارعة الرصينة؟

صورةُ الفاشل

---------------- يظلّ يكرّر وقد أقرفه كلُّ فعلٍ: «الحركة، يا لها من حماقة!». لا تزعجه الأحداث بقدر ما تزعجه فكرة المساهمة فيها. وهو لا يهتزّ إلاّ للإشاحة عنها.

لقد دمّرت تكشيراتُه الحياة من قبل أن يستنفد نسغَها. إنّهُ كَنَسِيُّ شوارع يستمدّ من التفاهة الكونيّة مبرّرًا لهزائمه. يحرصُ على ألاَّ يرى أهميّةً لأيّ شيءٍ كان، وينجح في ذلك لكثرة البراهين التي تقف إلى جانبه. هو المنتصر دائمًا في معركة الحجج، المهزوم دائمًا في العمَل: إنّه على «صواب». ينبذُ كلّ شيء وينبذه كلّ شيء. لقد فهم قبل الأوان كُلَّ ما يجبُ ألاّ يُفهَم كي نحيَا. ولمّا كانت موهبتُه على بيّنةٍ أكثر ممّا ينبغي من وظائفه الخاصّة، فقد أهدرها خوفًا من أن تُصرَّفَ في بلاهة الإبداع.

هو ذَا يخجل ويزهو بجودة عُقمِه، حاملاً صورةَ ما كان في وسعه أن يكون، مثل الوصمة ومثل الإكليل، غريبًا إلى الأبد عن الغوايات الساذجة، ومحرَّرًا وحيدًا من بين أقنان الزمن. إنّه يستمدّ حريّته من كثرة الأعمال التي عجز عن إتمامها. إنّه إلهٌ لامُتناهٍ ومثير للرثاء، لا يحدّهُ خلق، ولا يعبده مخلوق، ولا يراعيه أحد. ردّ عليه الآخرون الازدراء الذي انهال به عليهم. فإذا هو لا يكفّر إلاّ عن الأفعال التي لم يقم بها، على الرغم من أنّ عددها يفيض على حسابات كبريائه الجريحة. لكنّه في النهاية، على سبيل العزاء، وفي ختام رحلةٍ بلا ألقاب، يحمل لاجدواه كأنّها تاج.

(«ما الفائدة من ذلك؟» - تلك حكمة الفاشل المتصالح مع الموت. . . أيّ حافزٍ هو حين نشرع في الخضوع لهاجسه! وذلك لأنّ الموت يثرينا قبل أن يثقل علينا، وتتضاعفُ قُوانا عند

الاحتكاك به، قبل أن يُعمِلَ فينا قُوّتَهُ التدميريّة. إنَّ بداهةَ لا جدوَى كلِّ جهد، وذلك الإحساس بأنّنا جثّة قادمة، يَمْثُلانِ في الحاضر، ويَحجبان عنّا أُفُقَ الزمن، وينتهي بهما ذلك إلى تخدير أفكارنا وآمالنا وعضلاتنا، الأمر الذي يجعل ذلك الفائض من الاندفاع الذي أثاره فينا هاجسنا الجديد، - يتحوّل - حين يترسّخ نهائيًّا في العقل - إلى رُكُودٍ بالنسبة إلى حيويّتنا. هكذا يحثّنا هذا الهاجس على أن نكون كلّ شيء ولاشيء.

يُفتَرَضُ عادةً أن يضعنا الموتُ أمام الخيار الوحيد الممكن: الدير أو الحانة. أمّا ونحن لا نستطيع الفرار منه لا عن طريق الأبديّة ولا عن طريق المُتَع، أمّا ونحن مُطارَدُون في منتصف حياتنا، بعيدون عن السماء بُعْدَنَا عن الرعاعيّة، فإنّ الموتَ يحوّلنا إلى ذلك النوع من الأبطال المتفسّخين، الذين يَعِدُون بكلّ شيء ولا يحقّقون شيئًا: عاطلون عن العمل يلهثون في الفراغ. جيف عموديّة يقتصر نشاطها الوحيد على التفكير في أنّها قد تكفّ عن الكينونة...)

شروطُ التراجيديّ

------------- أيُّ بطلِ تراجيديا رائع كان يمثّله يسوع، لو أنهى مسيرتَه على الصليب ولم يلتزم بالانبعاث! إنّ بُعْدَهُ

الإلَهِيّ ضيّعَ على الأدب موضوعًا جديرًا بالإعجاب. من ثمّ هو يُقاسِمُ *العادلين* كافّةً مصيرَهم المتواضع جماليًّا. وهو على غرار كلّ ما يتأبّد في قلوب البشر، وعلى غرار كلّ ما يصبح عرضةً للعبادة ولا يموت فورًا، لم يسمح قطُّ برؤية النهاية الكاملة التي تميّز مصيرًا تراجيديًّا. كان ينبغي من أجل ذلك ألاّ يتبعه أحدٌ وألاّ يرتفع به التجلّي إلى مَجْدٍ غيرِ مشروع. ليس أغرب على التراجيديا من فكرة الفِداء والخلاص والخلود. - يقعُ البطلُ ضحيّةَ أفعالِهِ دون أن يُمنح الفرصةَ لِتَحاشِي موته عن طريق نعمةٍ خارقة. ليس في وسعه أن يظلّ *واضِحَ المَعالِم* في ذاكرة البشر، ولا سبيلَ لاستمراره ككينونةٍ، إلاّ باعتباره **مشهدَ** عذاب. ولمّا كان بلا مريدينَ فإنّ مصيره العقيم لا يخصب شيئًا باستثناء خيال الآخرين. ماكبث ينهار بلا أمل في الافتداء. ليس من *مَسْحةٍ أخيرة* في التراجيديا...

خاصّةُ كلّ عقيدة أن تتجنّبَ ما لا يمكن إصلاحُه، حتى حين يكون مآلها الفشل. (ماذا كان شيكسبير لِيصْنَعَ بِشهيد؟) البطلُ الحقيقيُّ يحارب ويموت باسم مصيره لا باسم عقيدة. كينونتُهُ تلغي كلّ تفكير في الهرب. الطّرُقُ التي لا تقوده إلى الموت بالنسبة إليه طُرُقٌ مسدودة. هو يشتغلُ على **سيرتِه**. يعتني بخاتمتها ويبذل، غريزيًّا، كُلّ ما في وسعه لإنشاء وقائع وخيمةِ العواقب. ولمّا كان المحتومُ نسْغَه فإنّ من شأن كلّ مَخْرَجٍ أن يصبح خيانةً لهلاكه.

من ثمّ لا يعتنقُ رجُلُ القدَر أيّ عقيدةٍ مهما كانت. لو فعَلَ

لأَخْلَفَ نهايتَه. وليس مِثْلُهُ مَنْ يرْفَعُ عينيه إلى السماء لو ثُبِّتَ على صليب: إنّ تاريخه الخاصّ هو مُطلَقُه الوحيد، كما أنّ *إرادَتَهُ* التراجيديا هي رغبتُه الوحيدة. . .

الكذبة الكامنة

-------------------- أن نعيش يعني أن نؤمن وأن نأمَل - أن نكذب على الآخرين وعلينا. لذلك كانت أصدقُ الصُّوَرِ على الإطلاق، التي تمّ إبداعها تمثيلاً للإنسان، صورةُ الفارس ذي الوجه الحزين[1]، ذاك الذي نراه حتى في أكثر الحكماء اكتمالاً. تشتركُ واقعةُ الصليب المُؤلمة، مع الأخرى الأكثر فخامة التي تُوِّجت بالنيرفانا، في الطبع الوهميّ نفسه، وإن كانتا قد حظيتا بصفةٍ رمزيّة لم تحظَ بها فيما بعد مغامراتُ الفارس المسكين. ليس النجاح في متناول كلّ الناس. خصوبةُ أكاذيبهم متفاوتة. تنطلي هذه الخدعة فتُنتِج عقيدةً أو أسطورة وحشدًا من المتحمّسين، وتنكشف الأخرى فإذا هي لا شيء سوى نظريّةٍ أو قصّةٍ أو هذيان. وحدَها الأشياء الجامدة **لا تضيف** شيئًا إلى ما هي عليه. الحجَرُ لا يكذب. إنّه لا يعني أحدًا. بينما الحياةُ تخترعُ دون توقُّف. الحياةُ *روايةُ* المادّة.

---

(١) أحد ألقاب دون كيخوته.

غُبارٌ مُولَعٌ بأشباح - ذاك هو الإنسان. ولعلّ أفضل تجسيد لصورته المطلقة، المثاليّة، في دون كيخوته كما يراه إسخيلوس...

(إذا كانت الحياة تحتلّ المرتبة الأولى في سلّم الأكاذيب فإنّ الحبّ يتلوها مباشرة، باعتباره كذبةً داخل الكذبة. إنّه تعبيرٌ عن موقعنا الهجين، ومن ثمّ، هو يحيطُ نفسه بعدَّةٍ من الغبطة والعذاب، بفضلها نعثر على بديلٍ لنا في غيرنا. عن طريق أيّ حيلةٍ تتمكّنُ عينانِ من الانحراف بنا عن عزلتنا؟ هل ثمّة إفلاسٌ للعقل أكثر إذلالاً من هذا؟ الحبّ يُخدِّرُ المعرفة. المعرفةُ اليقِظة تقتُل الحبّ. ليس في وسع الوهم الانتصارُ إلى ما لا نهاية، حتى وهو متنكّرٌ في مظهرِ أكثر الأكاذيب إثارةً. وبالإضافة إلى ذلك، مَنْ ذَا الذي يملك وهمًا صلْبًا بما يكفي، كي يعثر لدى الآخر على ما بحَثَ عنه عبثًا في نَفْسِه؟ هل تستطيع حرارةُ الأحشاء أن تمنحنا ما عجز عنه الكونُ كلُّه؟ وعلى الرغم من ذلك فهذا هو أساس ذلك الشذوذ العاديّ، والخارق: أن نكون اثنين لحلّ الألغاز - أو بالأحرى لتعليقها. أن ننسى بفضل أكذوبةٍ تلك القصّة التي تسبح فيها الحياة. أن نملأ الفراغ الشامل بهديلٍ مُضاعَف. ثمّ - ويا لها من محاكاةٍ للوجد - أن نَغرقَ أخيرًا في عرَقِ شريكةٍ ما...)

قُدوم الوعي

---------------- كم كان على غرائزنا أن تكلَّ وكم كان على عَمَلِها أن يَلِين، قبْلَ أن يبسط الوعيُ سيطرَته على مُجْمل أفعالنا وأفكارنا؟

لقد انجرَّ كلُّ إرجاءٍ لنشاطنا الحيويّ وكلُّ فشلٍ لنا في الراهن، عن أوّل ردّ فعلٍ طبيعيّ كَبَحْناه.

ليس الإنسان - هذه البهيمة ذات الرغبات المتأخّرة - سوى عدمٍ واعٍ يشمل كلّ شيء ولا يشمله شيء. يسهر على كلّ شيء ولا يتصرّف في شيء.

بالقياس إلى ظهور الوعي تبدو بقيّةُ الأحداث ذات أهميّة ضئيلة أو منعدمة. إلاّ أنّ هذا الظهور المناقض لمعطيات الحياة، يمثّل هجمةً خطرة على العالم المتحرّك. فضيحةً في البيولوجيا لم يسمح شيء بتوقّعها: الآليّة الطبيعة لم تنمّ قطُّ عن احتمال ظهور حيوانٍ يندفع خارج المادّة. غوريلاّ يخسر شعره ويعوّضه بمُثُل. غوريلاّ بقفّازات، ينحت آلهةً ويضاعف من تكشيراته ويعبد السماء. - كم كان على الطبيعة أن تتعذّب وكم عليها أن تتعذّب من جديد أمام مثل هذه السقطة! وذلك لأنّ الوعي يذهب بنا بعيدًا ويسمح بكلّ شيء.

الحياةُ مُطلَقٌ بالنسبة إلى الحيوان. وهي مُطلَقٌ وذريعةٌ بالنسبة إلى الإنسان. ليس من ظاهرة في تطوّر الكون أهمّ من تلك الإمكانيّة الخاصّة التي أتاحت لنا أن نحوّل الأشياء كلّها إلى ذرائع. أن *نلعب* بمشاريعنا اليوميّة وغاياتنا النهائيّة. أن نضع على صعيدٍ واحد، وبألوهيّةِ نزوة، إلهًا ومكنسة.

ولن يتخلّص الإنسان من أسلافه - ومن الطبيعة - إلاّ حين يقضي في داخله على كلّ آثار ما هو غير مشروط. حين لا تبدو له حياته وحياة الآخرين سوى مجموعة خيوط يشدُّها كي يضحك في تسليةٍ من تسليات نهايات الزمن. عندئذ يصبح ***الكينونة*** الخالصة. يكون الوعي قد لعب دوره...

غرورُ الصلاة

--------------- نقف على نهاية المونولوغ، على تُخوم العزلة، فنقوم - لافتقارنا إلى مُخاطَبٍ آخر - باختراع الإله، ذريعةً قصوى للحوار. ما دمتُم تُسمّونه فإنّ خبَلَكم مخفيّ جيّدًا وكلّ شيء أمامكم مباح. المؤمن الحقيقيّ يختلف بالكاد عن المجنون، لكنّ جنونه شرعيٌّ مقبول. لو كانت ضلالاتُه خالصةً من كلّ إيمان لانتهى به الأمر إلى مأوى المجانين. لكنّ الإلهَ يحضن تلك الضلالات. يجعلها شرعيّة. يبدُو غرورُ الفاتحين باهتًا

بالقياس إلى زَهْوٍ تقيٍّ يتوّجه إلى الخالق. ما الذي يُتيح كلّ هذه الجرأة؟ وكيف يكون التواضع فضيلةَ المعابد، إذا كان في وسع عجوزٍ هرمةٍ تتصوّرُ اللامتناهي في متناولها، أن تبلغ عن طريق الصلاة جسارةً لم يحدث يومًا أن ادّعاها أيّ طاغية؟

أضحّي بمُلْك العالمِ مُقابِل لحظةٍ واحدة تنضمُّ فيها يداي تضرُّعًا للمسؤول الأكبر عن كلّ ألغازنا وسخافاتنا. عِلْمًا بأنّ هذه اللحظة تمثّل الصفة العاديّة - وما يشبه الزمن *الرسميّ* - لأيّ مؤمن. لكنّ المتواضع الحقيقيّ يقول لنفسه باستمرار: «أمّا وأنا أكثر تواضعًا من أن أصلّي وأكثر جمودًا من أن أجتاز عتبة كنيسة، فإنّي أقنَعُ بظلّي ولا أرغب في استسلام الربّ لصلواتي.» وهو يردّ على الذين يقترحون عليه الخلود: «غُروري قابلٌ للنضوب محدود الموارد. أنتم تتوهّمون الانتصار على أنَاكُمْ باسم الإيمان، والحقّ أنّكم ترغبون في تخليد أنَاكُمْ في الأبديّة، بما أنّ الديمومة الحاليّة لا تكفيكم. إنّ زَهْوَكُم لَيتفوّقُ في تفنُّنِه على كلّ طموحات العصر. هل ثمّةَ حلمٌ بالمجد لا يبدو بالقياس إلى حُلمِكُم خديعةً ووَهْمًا؟ ليس إيمانُكم سوى هذيانٍ بالعظمة تتغاضى عنه المجموعة لأنّه يسلك دروبًا مُقنّعَة. لكنّ غُبارَكُم هو هَوَسُكُم الوحيد. اشتدَّ نهَمُكُم إلى اللا زمنيّ فإذا أنتم تقمعون الزمن الذي ينثر ذلك الغبار. وحدَها الآخرةُ رحْبَةٌ بما يكفي لاحتواء شهواتكم. الأرضُ ولحظاتُها تبدو لكم هشّةً أكثر ممّا ينبغي. لقد تفوّقت الأدْيرةُ في جنونِ العَظَمة على كلِّ ما تصوّرَتْهُ يومًا حُمَّى القصور الفخمة.

مُخْتَلٌّ عقليًّا كلُّ مَنْ لا يَقْبَلُ بعَدَمِه. والمُؤمنُ أقلُّ الجميعِ استعدادًا لهذا القبول. تُرعِبُنِي إرادةُ الديمومة حينَ تمضي بعيدًا إلى هذا الحدّ. أرفضُ الوقوع في الغواية الوخيمة لِأنا غير متعيّنٍ. أريدُ أن أتمرّغ في قابليّتي للموت. أريد أن أظلّ ***عاديًّا***.

(إلهي، امنحني القدرة على عدم الصلاة أبدًا. جنّبني حماقةَ العبادة. أبعِد عنّي غواية الحبّ هذه التي قد تسلّمني إليك إلى الأبد. ليمتدّ الفراغُ بين قلبي والسماء. لا أرجو البتّة أن تعمر صحاريّ بحضورك، ولا أن أن تخضع لياليّ لجبروت نورك، ولا أن تذوب سِيبيرياتِي[١] تحت شمسك. أريد ليديّ - وأنا الوحيدُ أكثر منك - أن تبقيا طاهرتين، على العكس من يديك اللتين لوّثهما نهائيًّا عجْنُ الطين والتدخّل في شؤون العالَم. لا أطلُبُ من قدرتك الكليّة البلهاء إلاّ احترام عزلتي وتباريحي. لا حاجة لي بكلماتك، وأخشى الجنون الذي قد يزيّن لي الاستماع إليها. هبني المعجزةَ الملتقطةَ قبْلَ اللحظة الأولى. ذلك السلام الذي لم يسعكَ تحَمُّلُه، والذي دفعك إلى تدبير ثغرةٍ في العدم، لافتتاح سوق الأزمان هذه، وللحكم عليّ بِالكَوْن - بِذُلِّ الكينونة وعارِها.)

(١) جمع سيبيريا: المنطقة الروسيّة المعروفة بشدّة بردها وكثرة ثلوجها.

ليبيمانيا[1]

---------------- لماذا لا تملك القوّة الكافية للتملّص من فَرْضِ التنفّس؟ لماذا تستمرّ في مُعاناة هذا الهواء المتجمّد الذي يحصر رئتيك ويرتطمُ بِلَحْمِكَ؟ كيف تهزمُ هذه الآمال المُبهَمة وهذه الأفكار المتحجّرة، فيما أنت تحاكي بالتناوب وحدةَ الحجر وعُزلةَ بصقةٍ متجمّدة على أطراف العالم؟ أنت أكثر بعدًا عن نفسك من بعدكَ عن كوكب لم يُكتَشَف بعدُ، وأعضاؤكَ الملتفتةُ ناحية المقابر تحسد المقابرَ على حيويّتها.

هل تقطع أوردتك لتفيض على هذه الورقة التي تغيظك مثلما تغيظك الفصول؟ يا لَها من مُحاولةٍ مثيرةٍ للسخرية! لقد أوقف دمُكَ مجراه بعد أن محت لونَهُ الليالي البيضاء... ما مِنْ شيء يوقظ فيك العطشَ إلى الحياة والموت، ذاك الذي أخمدَتْهُ السنوات، وصدّتهُ إلى الأبد تلك المنابعُ المُجرّدة من الخرير والمجد التي يستقي منها البشر. أنتَ ذا جهيضٌ بشفتين صامِتتَيْنِ جافَّتَيْنِ، لا تنفكُّ تُقيم فيما وراء ضجيج الحياة والموت، وحتى فيما وراء ضجيج الدموع...

(تتمثّل عظمةُ القدّيسين الحقيقيّة في تلك القدرة - التي لا تفوقُها أُخرى - على هزيمةِ الخوف من إثارة السخرية. ليس في

---

(١) ليبيمانيا (lypémanie): مرض نفسي أهمُّ أعراضه الاكتئاب الحادّ وعدم الرغبة في شيء. فضّلنا إدراج العبارة كما أوردها سيوران.

وسعنا البكاء دون إحساس بالخزي. أمّا هم فإنّهم يلتمِسُونَ «مِنّةَ الدموع». ثمّةَ بحثٌ عن الشرف في «جَفافِنا» يجعلنا نقف مُتفرّجين على مرارتنا اللامتناهية المضغوطة، وعلى سيَلانِنا الذي لا يحدث. إلاّ أنّ وظيفة العينين ليست الإبصار بل البكاء. وكي نبصر حقًّا علينا أن نغمضهما. ذاكَ شرطُ الوَجْد. شرطُ الرؤية الكاشفة الوحيدة. بينما يُستنزَفُ الإدراكُ في ***وَهْمِ سَبْقِ الرُّؤية***[1]، وفي المتعذِّرِ إصلاحُهُ ***المعروفُ*** منذ الأزل.

بالنسبة إلى الشخص الذي توقّع كوارث العالَم الباطلة، ولم تَمُدَّهُ المعرفة إلاّ بما يؤكّد خيبةَ أملٍ فِطريّة، فإنّ الوساوس التي تمنعه من البكاء هي التي تُقوِّي صِلتَهُ بالمنذورين إلى الحزن. وإذا كان يحسد القديسين على معجزاتهم، بشكلٍ مَا، فليس ذلك بسبب اشمئزازهم من المظاهر أو بسبب شهيّتهم المتعالية، بقَدْرَ ما هو بسبب انتصارهم على الخوف من إثارة السخرية. ذلك الخوف الذي لا يستطيع هو أن يتملّص منه، والذي يحتجزهُ فيما دُونَ الدموع وصفاقتِها الخارقة.)

---

(١) وَهْمُ سَبْقِ الرؤية (le déja vu): بدت لنا هذه الصيغة أفضل من مثيلاتها (الديجا فو، ما شوهِدَ من قبل، إلخ.)

--------------- نردّدُ ألف مرّة في اليوم: «لا قيمة لشيء في هذا العالم الأسفل». نجد أنفُسنا باستمرار في نفس النقطة. ندوّم مثل الخذروف... إذ لا مجال لتقدُّمٍ ولا مكان لنتيجةٍ في فكرة بُطلانِ كلّ شيء. ومهما جازفنا بالإيغال في هذا الاجترار فإنّ معرفتنا لا تنمو البتّة. هي واسعةٌ ضَحْلةٌ في وضعها الراهن بِقَدْرَ اتّساعها وضحالتها لحظةَ انطلاقها. إنّها وقْفةٌ في العُضال. جُذامٌ في الذهن. كَشْفٌ عن طريق الذهول. أبلهٌ معتوه يتعرّض إلى إشراقة ويستقرّ فيها دون أيّ وسيلة لمُغادرتها والعودة إلى شرطهِ الغائم والمُريح، تلك حالُ كلّ من يجد نفسه منخرطًا رغمًا عنه في إدراك التفاهة الكونيّة. تخلّت عنه لياليه، وكأنّه فريسة وضوحٍ يخنقه، فإذا هو لا يجد ما يصنع بهذا النهار الذي يرفض أن ينتهي. متى يكفّ النور عن إرسالِ أشعّتهِ الضارّةِ بذكرى عالمٍ ليليّ سابقٍ على كلّ ما كان؟ كم هي غابرةٌ تلك الفوضى المريحةُ الهادئة لِما قَبْلَ الخلْق المرعب، أو تلك الأكثر لطفًا، فوضى العدَمِ الذهنيّ!

دفاعًا عن الفساد

--------------- لو وضعنا على هذه الكفّة من الميزان الشرَّ الذي أهاله «الأنقياء» على العالم، وعلى الكفّة الأخرى الشرَّ

الآتي من أولئك البشر الذين لا مبدأ لهم ولا رادع، إذَنْ لمال عَمُودُ الميزان ناحية الكفّة الأولى. تنصبُ كلّ صيغةٍ من صِيَغِ الخلاص مقصلةً في الذهن الذي يقترحها. إنّ كوارث العصور الفاسدة أقلّ خطورةً من النكبات التي تتسبّبُ فيها العصورُ المضطرمة. الوحلُ أَطْيَبُ من الدم. وثمّةَ رغدٌ في الرذيلة أكثر ممّا في الفضيلة، وإنسانيّةٌ في الانحلال أكثر ممّا في الصرامة. الإنسان الذي يحكُم دون أن يؤمن بشيء: هو ذا نموذجٌ مثاليٌّ لفردوسِ الانحطاط، ولحلٍّ مُطْلَقٍ للتاريخ. الانتهازيّون أنقذوا الشعوب، والأبطالُ دمّروها. أن تشعر بأنّك معاصرٌ لا للثورة، بل لفوشي وتاليران[1]: لم يفتقر تقلُّبُ هذين إلاّ إلى قَدْرٍ إضافيٍّ من الحزن كي يقترحا علينا ضربًا من فنِّ العيش.

إلى العصور المنحلّة يعود الفضلُ في تعرية جوهر الحياة، وفي جعلنا نكتشف أنّ كلّ شيء مسخرة أو مرارة، وأنْ ليسَ من حَدَثٍ يستحقّ التجميل، فهو بالضرورة بغيض. الأكذوبة المُزَيّنة للعصور الكبرى، لهذا القرن، لهذا الملك أو ذاك البابا... لا تتجلّى «الحقيقة» إلاّ لحظة تنسى العقول الهذيان البنّاء، فتسمح لنفسها

---

(١) فوشي (١٧٥٩-١٨٢٠) Joseph Fouché: رجل السياسة الفرنسي الذي اشتهر بتلوّنه وتقلّبه وعرف كيف يظلّ قريبًا من السلطة أثناء الثورة وتحت نابليون. تاليران (١٧٥٤-١٨٣٨) Talleyrand: يعتبره الكثيرون أفضل ديبلوماسيّ عرفته فرنسا على مدى تاريخها. يُلَقّب بالديبلوماسيّ الشيطان. انقلب على كلّ الأنظمة التي خدمها باسم الدفاع عن مصالح الدولة الفرنسيّة.

بالانزلاق على انحلال الأخلاق والمُثُل العليا والمعتقدات. أن تعرف يعني أن *تبصر*. وليس أن تأملَ أو أن تعمَل.

لا شيءَ يُضاهي الغباءَ الذي يميّز ذُرَى التاريخ عَدَا غباوة صانعيه. الافتقارُ إلى حِدّة الذكاء هو الذي يقود صاحبه حتى نهاية أفعاله وأفكاره. يستنكفُ ذو الذهن الثاقب من التراجيديا وذروةِ المجد: تغيظُه النكباتُ وأكاليلُ الغار بقدر ما يغيظه الابتذال. ***الذهابُ أبعَدَ ممّا يجب*** يعني بالضرورة تقديم برهان على رداءة الذوق. الذوّاقةُ يستفظع الدم والرائع والأبطال... إنّه لا يقدّر بَعْدُ غيرَ الهَزّالِين...

الكونُ المتقادم

------------- لِمَسارِ الشيخوخة في الكون اللفظيّ إيقاعٌ متسارع أكثرَ من نظيره في الكون الماديّ. تُكَرَّرُ الكلماتُ أكثرَ ممّا يجب فتُنهَكُ وتموت، بينما تُمثّلُ الرتابةُ قانون المادّة. لابدّ للذهن من معجَمٍ لا مُتناهٍ، إلاّ أنّ وسائله مقتصرة على ألفاظ معدودة ابتذَلَها الاستعمال. هكذا أخذَ *الجديدُ*، وقد استلزَم تراكيب غريبة، يُرغم الكلمات على أداء وظائف غير مُتوَقّعة: ***باتت الأصالة مختَزَلَةً في تعذيب النعت وفي تنافُرٍ إيحائيّ للاستعارات***. ضعوا الكلمات في مكانها: إنّها المقبرة اليوميّة للكلام. كلُّ ما هو

مُكَرّسٌ في اللغة يمثّلُ موتَ اللغة. الكلمةُ المُتوَقَّعة كلمةٌ هالِكة. وحدَهُ استخدامُها المتصنَّع ينفخ فيها حيويّةً جديدة، في انتظار أن يتبنّاها المُشْتَرَك فيبْلِيها ويلوّثها. الذهنُ *مُتَحذْلِقٌ* أو لا يكون، بينما تسترخي اللغة في بساطة أدواتها التي لا تتغيّر.

إنّ ما نُسمّيه حياتَنا بالقياس إلى الحياة المُجرّدة، هو إبداعٌ مستمرّ لأنماطٍ رائجة(١)، بمساعدة الكلام المُستخدم بشكلٍ اصطناعيّ. إنّها تكاثُرٌ لِتفاهاتٍ كان ينبغي علينا، لولاها، أن نَقْضَى في تثاؤبٍ قد يبتلع التاريخ والمادّة.

إذا كان الإنسان يبتكر ضروبًا من الفيزياء الجديدة، فليس قصْدَ الوصول إلى شرحٍ معقول للطبيعة، بقدْرِ ما هو قَصْدَ التخلُّص من سأمِ الكون المفروغ منه، المعتاد، المتصلّب حدَّ الابتذال، الذي يَنسبُ إليه، اعتباطًا، من الأبعاد ما يُوازي النُّعوتَ التي نلقيها على شيء جامد، سئمنا من رؤيته ومن تَحَمُّلِهِ كما كانت تراه وتتحمّلهُ غباوةُ أسلافنا أو سابقينا القريبين.

الويل لمن يفهم هذه المسخرة فيبتعد عنها. سيكون قد داس عندئذٍ على سرِّ حيويّته - وسيذهب للّحاقِ بالحقيقة الثابتة الخالية من كلّ زينة، حقيقة أولئك الذين نضبت فيهم منابع الحذلقة، وشحُب لديهم الذهن لانعدام التصنُّع.

---

(١) هكذا رأينا ترجمة عبارة vogue.

(إنّه لَمِنَ الشرعيِّ جدًّا تصوّرُ اللحظة التي تكفُّ فيها الحياة عن تمثيل الموضة، ويعفّي عليها الزمن، شأنها في ذلك شأن القمر أو السلّ بعد الإسراف الرومنطيقيّ في استعمالهما. ستذهب عندئذ لتتويج المفارقة التاريخيّة للرموز المُعرّاة والأمراض التي أُسقطت عنها أقنعتها. ستعود من جديد إلى ***نفسِها كما هي***: داء بلا أمجاد. محتوم بلا أُبّهة. وإنّها لَلحظةٌ متوقَّعةٌ جدًّا، عندها لا رجاءَ ينبثق من القلوب، وعندها تصبح الأرض في برودة المخلوقات، وعندها لا حلم يأتي لتجميل الشساعة العقيمة. ستشعر الأرض بالخجل يوم ترى الأشياء كما هي. لن تجد الحياةُ أيّ رأفةٍ أمام محكمة العقل، في غياب نسْغ الأغلاط والخِدَع. إلاّ أنّ العقل نفسه سيتلاشى في نهاية الأمر. إنّه مُجرّد ذريعةٍ في العدم، حيث الحياة مُجرَّدُ حُكْمٍ مُسْبق.

يتماسك التاريخ ما دامت تحومُ فوق موضاته الانتقاليّة التي تمثّل الأحداثُ ظلالها، موضةٌ أخرى أشمل، كأنّها من الثابت. لكن أين نبحث لنا عن موارد، حين ينكشف ذلك الثابت أمام الجميع بوصفه مجرّد نزوة، وحين يصبح فهْمُ خطإٍ أن نحيا مِلْكيّةً مُشتَرَكة وحقيقةً إجماعيّة، (أين نبحث لنا عن موارد) كي نُنتج أو حتى كي نرسم ملامح الصيغة الأولى لفعلٍ، أو لِشبْهِ حركة؟ عن طريق أيّ فنٍّ نعيشُ بَعْدَ غرائزنا بعيدةِ النظَر وقُلوبِنا الواعية؟ عن طريق أيّ أعجوبة نرُدُّ إلى الحياة غوايةً قادِمةً في كونٍ متقادم؟)

--------------- لم أعد راغبًا في التعاون مع النُّور وفي استخدام رطانة الحياة. ولن أقول ثانيةً «أنا موجود» دون أن يحمّر وجهي خجلاً. إنّ قلّة حياء النَّفَس وفضيحةَ التنفُّس مرتبطتان بالإفراط في استعمال فعلٍ مُساعد...

لقد ولّى ذلك الزمن الذي كان فيه الإنسان يفكّر في نفسه بعباراتٍ فَجْرِيّة. هو ذَا مُنفتحٌ على واجبه الحقيقيّ، واجبِ أنْ يَدْرُسَ هلاكَهُ وأن يهرع إليه... هو ذَا على عتبة عصْرٍ جديد، عصرِ *الشفقةِ على الذات*. وهذه الشفقةُ سُقوطُهُ الثاني الأكثر وضوحًا وإذلالًا من سُقوطه الأوّل. إنّه سقوط بلا افتداء. عبثًا يُعاينُ الآفاق حيث يظهرُ ألْفُ مُخَلِّصٍ ومُخَلِّص. مُخلِّصُو مَهْزلةٍ يفتقرون هم أنفُسُهم إلى من يعزّيهم. هو ذَا يُشيحُ عنهم كي يستعدّ، في روحِه المتفحّمة، لعذوبة أن يتفسّخ... ثمّ ها هو وقد بلغ قرارةَ خريفِه، يتردّدُ بين **المظهر** و**اللاشيء**، بين شكلِ الكينونة الخادع وغيابِ الكينونة: رجْرَجة بين وهمين...

يملأُ الوعيُ الفراغَ الذي يعقب تآكُلَ الوجود بفعل الذهن. لابدّ من غشاوةِ مؤمنٍ أو غبيٍّ للاندماج في «واقعٍ» لا يلبث أن يتلاشى ما إن يقترب منه أدنَى شكّ، أقلُّ بُعْدِ احتمالٍ، أو هبّة حيرة - وكُلُّها بداءات تمثّلُ تصوّرًا مسبقًا للوعي، وتنجح متى تمّ

إنماؤها، في إنتاجِه وتعيينِه وإثارتِه. بتأثيرٍ من هذا الوعي، من هذا الحضور العُضال، يتمكّنُ الإنسان من أهمّ امتيازاته: امتياز أن يَهْلَك. - هو يُفسِدُ نسْغَ الطبيعة بصفته مريضَ الطبيعة الشرفيّ. يدمّر حيويّة الحشرات بصفته رذيلتها المُجَرَّدة. يذبل الكونُ عند الاحتكاك به ويحزم الزمن حقائبه. ما كان في وسعه أن يتحقّق - وأن ينزلَ المنحدر - إلاّ على أنقاض العناصر. ما أن ينجز عمله حتى ينضج للزوال: ترى على كم من قرنٍ بعدُ سيمدّدُ حشرجته؟

المُفكِّرُ العَرَضِيّ

«الأفكار بدائلُ الأحزان.»

مارسيل بروست



المُفَكِّرُ العَرَضِيّ

---------------------- أعيش في انتظار الفكرة. أشعرُ بقرب ظهورها. أحصرها. أضع يدي عليها - ولا أستطيع صياغتها. إنّها تُفلتُ منّي. هي ليست ملْكِي بعدُ. هل أكون قد حملتُ بها في أثناء غيابي؟ وكيف يسعني، بعد أن كانت وشيكةً ومُبهَمة، أن أجعلها حاضرةً وضّاءةً في احتضار العبارة الذي يمكن أن يُدرِكهُ العقل؟ أيُّ وضْعٍ عليَّ أن أتمنّاه كي تتفتّح - وتضمحلّ؟

أنا فيلسوفٌ مُضادّ، من ثمّ أنا أمقتُ كلّ فكرةٍ تافهة: لستُ حزينًا على الدوام إذَنْ فأنا لا أفكّر على الدوام. كُلّما نظرتُ إلى الأفكار بَدَتْ لي بلا جدوى أكثرَ من الأشياء. لذلك لم أحبّ إلاّ هذَيانَات المرضَى الكِبار، اجترارات الأرق، ومَضاتِ الفزع العُضال والشكوكَ التي تخترقها الزفرات. إنّ حصيلةَ الضوء والعتمة التي تنطوي عليها الفكرة هي الأمارةُ الوحيدة على عُمقِها. كما أنّ نبرة مَرَحِها اليائسة هي علامةُ فتنتِها. كم ليلةً بيضاء يُخفي

ماضيك الليليّ؟ - هكذا ينبغي علينا أن نخاطب كلّ مُفكّر. ليس لِمَنْ يُفكِّرُ متى أرادَ شيءٌ يقوله لنا. هو أعلى من تفكيره - أو بالأحرى مُجانِبٌ له -. وهو غير مسؤول عنه، غير ملتزم به، ولا ربح له ولا خسارة في المخاطرة بدخول معركةٍ لا يكون فيها عدُوَّ نفسِه. إنّ الإيمانَ بالحقيقة لا يُكلّفُهُ شيئًا. لكنّ الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى العقل الذي كفّ عن اعتبار ***الحقّ والباطل*** من الخرافات. يُقوّضُ هذا العقلُ كلّ المعايير، فإذا هو ***يُعاين نفْسَه*** كالمُعاقين والشعراء. يُفكّر عَرَضِيًّا. يكتفي بمَجْدِ وعكةٍ أو هذيان. أليس عُسْرُ الهَضْمِ أغْنَي بالأفكار من استعراضٍ للمفاهيم؟ اضطراباتُ الأعضاء هي التي تحدّد خصوبةَ الفكر. لن يكون في وسع مَنْ لا **يحسّ** بجسده أن يتصوّر فكرًا حيًّا. وعبثًا يظلّ ينتظر المفاجأة المناسبة من عائقٍ مَا...

تَظهَرُ الأفكارُ في كنف اللامبالاة الوجدانيّة. إلاّ أنّه يتعذّر على أيّ فكرة أن تتّخذ شكْلاً. سيكون على الحزن أن يقترح مناخًا لتفتُّحها. هي في حاجةٍ إلى جرسٍ مَا وإلى لونٍ مَا كي تهتزّ وتتوهّج. أن يطُول بنا العُقْم يعني أن نترصّد الأفكار. أن نرغب فيها دون أن نتمكّن من توريطها في صيغة. إنّ «فُصول» الفكر مشروطة بإيقاعٍ عضويّ. لا يتوقّفُ على «أنَايَ» أن أكون ساذجًا أو كلبيًّا: ***أفكاري هي سفسطاتُ حماساتي أو حزني***. أنا موجود، أحسُّ وأفكّر على هوى اللحظة - ورغمًا عنّي. يُكوّنني الزمن فأعارضه عبثًا - وأكون. يَجري حاضري غيرُ المرغوب فيه،

ويُجريني. ولمّا كنتُ غير قادر على قيادته، فإنّي أكتفي بالتعليق عليه، عبدًا لأفكاري، لاعبًا بها كأنّي مهرّجٌ لدى المحتوم.

مزايا الوَهَن

------------------- الشخصُ الذي لا يتخطّى البتّة صِفتَهُ كنُسخةٍ جميلة أو كنموذجٍ مُكتمِل، والذي تمتزج كينونته بمصيره الحيويّ، هو شخصٌ يضعُ نفسَهُ خارج الفكر. تقف الذكوريّةُ المثاليّة حائلاً دون إدراك الفُويرقات، فتؤدّي إلى فقدان الشعور *بالخارق اليوميّ*، الذي يستمدُّ منه الفنُّ جوهَرَه. كلّما كنتَ *طبيعيًّا* أكثرَ أصبحتَ فنّانًا أقلّ. لقد قام عالَمُ الأساطير وفنتازيات الميثولوجيا بعبادة القوّة المتجانسة، غير المُمَيّزة، غير الشفّافة. حين أقبل اليونانيّون على التأمُّل النظريّ، حلّت عبادةُ الغُلام المُصاب بالأنيميا محلَّ عبادة العمالقة، والأبطالُ الذين كانوا مُغَفّلين رائعين في أيّام هومير، أصبحوا بفضل التراجيديا حامِلِي هموم وشكوكٍ متنافية مع طَبْعِهم الفظّ.

ينجمُ الثراءُ الباطنيّ عن صراعات يتمّ تَعَهُّدُها داخل الذات. غير أنّ الحيويّة التي تتصرّف في نفسها بشكل كامل، لا تعرف إلاّ الصراع الخارجيّ والتكالُبَ على الموضوع. تتواجه نزعتان داخل الذَّكَرِ الذي تكفي جرعةٌ من الأنوثة لتوتير أعصابه: ينزعُ ما هو

مُستكينٌ فيه إلى إدراك عالـمٍ كاملٍ من التخلّي، وينزع ما هو متعجرف فيه إلى تحويل إرادته إلى قانون. وطالما لم تفسد غرائزه فإنّه لا يهمّ إلاّ النوع. لكنّه يُصبح *فاتحًا* ما إن يتسرّب إلى غرائزه شيء من عدم الرضى الخفيّ. عندئذ يقوم الفكر بتزكيته وشرحه وتبريره، وإدراجه في سلك الحمقى الممتازين، قبل أن يتركه لفضول التاريخ - إنّه استقصاء الحمق السائر...

ليس في وسعِ مَنْ لا يمثّل وُجودُهُ مرضًا نشيطًا وخاملاً في آن، أن يستقرّ وسط المشاكل وأن يعرف مخاطرها. الظرفُ المناسب للبحث عن الحقيقة أو العبارة موجودٌ في منتصف المسافة بين الرجل والمرأة: ثغراتُ الفحولة هي مقرّ الفكر... وإذا كانت الأُنثَى «الخالصة» المنزّهةُ عن كلّ شذوذ جنسيّ أو سيكولوجي أفرغَ باطنيًّا من دابّة، فإنّ الذَّكَرَ الخالص يستنفد صفة «الغبيّ». - تأمّلوا في أيِّ كائنٍ شدَّ انتباهَكم أو أثار حماستَكم: ثمّة في آلِيّتِهِ شيءٌ اختَلّ *لصالحِه*. نحنُ نحتقر مُحقّين أولئك الذين لم يستفيدوا من عيوبهم ولم يستغلّوا قُصورهم ولم يغتنوا من خساراتهم. كما أنّنا نحتقر كلّ إنسانٍ لا يُعذّبُهُ أن يكون إنسانًا أو أن يكون فحسب. هكذا لا يسعنا أن نسلّط على أحدٍ إهانةً أبلَغَ من أن نسميّه «سعيدًا»، كما لا يسعنا أن نتملّقه بأكثر من أن ننسب إليه «رصيدًا من الحزن». وذلك لأنّ البهجة ليست على صلةٍ بأيّ فعلٍ مُهمّ، ولأنْ لا أحد يضحك حين يكون وحيدًا، باستثناء المجانين.

«الحياةُ الباطنيّة» خاصيّةُ المُرْهَفين، المعرّضين لِصَرَعٍ بلا سُقوطٍ ولا لُعاب. الكائنُ النقيُّ بيولوجِيًّا يحترز من «العمق». يعجز عنه. يرى فيه بعدًا مشبوهًا يضرّ بتلقائيّة الأفعال. هو مصيبٌ في ذلك. مع الانطواء على الذات تبدأ مأساة الإنسان - يبدأ مجدُهُ وانحطاطُه. ما أن ينعزل عن الدفْق الغُفْل لسيلان الحياة المنفعيّ حتّى يتحرّر من ***الغايات الموضوعيّة***. تظلّ الحضارة ***مُصابةً*** مادَامَ المُرهَفُون يُعطون فيها المَثَل. لكنّها بفضلهم تكون قد انتصرت نهائيًّا على الطبيعة - وتنهار. أعلى نموذجٍ للرهافة هو ذاك الذي يجمع في ذاته بين المتحمّسِ والسفسطائيّ، فإذا هو يكفُّ عن اعتناق ميوله ويتعهّدها دون أن يؤمن بها. إنّه وهَنُ المراحل الآفلةِ، كُلّيُّ العِلْم، الذي يسبق كسوف الإنسان.

يتيح لنا المُرهَفُون أن نلمحَ تلك اللحظة التي ينوءُ فيها البوّابُون بهواجس المولعين بالجمال. لحظةَ تحني الشكوكُ ظُهورَ الفلاّحين فيفقدون القدرة على الإمساك بالمحراث. لحظةَ تبدو الكائنات كلّها فريسةَ بُعْدِ النظر ومُفرَغةً من الغرائز، فإذا هي تنطفئ دون أن تستطيع التأسُّفَ على ليل أوهامها المزدهر.

طُفيلِيُّ الشعراء

------------------ ***I*** - لا شأن لحياةِ الشاعرِ ببلوغ الغاية. إنّه يستمدّ مقدرَتَهُ من كلّ ما لم يشرع فيه، من كلّ اللحظات

المُشبَعةِ بما لا يُطال. وهَبْ أنّه شعر بمساوئ الكينونة؟ سيجعلُ ذلكَ قدرتَهُ على التعبير أقْوَى، ونَفَسَهُ أطْوَل.

السيرةُ لا تكون شرعيّةً إلاّ إذا أظهرت للعيان مُرونَةَ المصير وكميّةَ المتغيّرات التي يتضمّنها. لكنّ الشاعر يتبع خطًّا محتومًا لا يُلَيِّنُ صرامتَهُ شيء. مآلُ الحياة أن يرثها المُغَفّلون. وتعويضًا لهم عن الحياة التي لم يعيشوها، تَمَّ اختراعُ سِيَر الشعراء.

الشعرُ يعبّر عن جوهر ما لا يمكننا امتلاكُه. دلالته القُصوى استحالةُ كلّ «فِعْلِيّة». الفرحُ ليس عاطفةً شعريّة (بَيْدَ أنّه ينتمي إلى قِطاعٍ من الكون الغنائيّ، تجمع فيه الصدْفةُ بين الصبابات والحماقات في حزمةٍ واحدة.) هل رأينا إطلاقًا نشيدًا من أناشيد الأمل لا يُوَلِّدُ إحساسًا بالضيق وربّما بالغثيان؟ وكيف نتغنَّى بالحضور في حين أنّ *المُمكِنَ* نفسهُ مَشُوبٌ بمسحةٍ من السوقيّة؟ التنافُرُ كاملٌ بين الشعر والرجاء. يقع الشاعرُ من ثَمَّ ضحيّة تحلُّلٍ محموم. من ذا الذي يجرؤ على التساؤل كيف أحسّ بالحياة، في حين أنّه لم يكن حيًّا إلاّ عن طريق الموت؟ ما إن يقع الشاعر في غواية السعادة حتّى ينتمي إلى الكوميديا... إلاّ أنّه ما إن يتغنّى بالغبطة – هذا التوهّج الشهوانيّ للتعاسة – فيما النيرانُ تنبثق من جراحه، حتى يتخلّص من شبهة السوقيّة اللصيقة بكلّ نبرةٍ إيجابيّة. ذاك هولدرلين لاجئًا إلى يونانٍ من أحلام، مغيّرًا وجهَ الحب عن طريق نشوات أكثر نقاء، نشوات الوهم.

ما كان الشاعرُ لِيَختَلِفَ عن فارٍّ بغيضٍ من الجنديّة، لو أنّه لم يحمل معه شقاءه في أثناء فراره. إنّه على العكس من الصوفيّ أو الحكيم، لا يستطيع أن يفلت من نفسه ولا يستطيع أن يفرّ من مركز وسواسه الخاصّ: سوراتُ وَجْدِه نفسُها لا علاجَ لها، وهي علاماتٌ منذرة بالكارثة. ولمّا كان عاجزًا عن تخليص نفسه، فإنّ كلّ شيء بالنسبة إليه مُمكنٌ باستثناء حياته.

II - هي ذي طريقتي في التعرُّف على الشاعر الحقيقيّ: أُقبِلُ عليه، أعيشُ طويلاً في عُمْقِ أثَرِه، فإذا **شيءٌ *مَا*** يتغيّر فِيّ: لا يتعلّقُ الأمر بميولي أو أهوائي بقَدْرِ ما يتعلّقُ بدَمِي نفسِه، كأنّ داءً خفيًّا يتسلّل إليه ليُحرّف مجراه وكثافته ونوعَه. فاليري وستيفان جورج[١] يتركاننا حيث اقتربنا منهما، أو يجعلاننا أكثر تطلُّبًا على المستوى الشكليّ للفكر. إنّهما عبقريّان لا نحتاج إليهما، وما هما في النهاية سوى فنّانَيْن. أمّا شيلي، أمّا بودلير، أمّا ريلكه، فإنّهم يتدخّلون في أعمق أعماق كِيانِنا، الذي يُلْحِقُهُم به كما يفعل بعَيْبٍ خلْقِيّ. في جوارهم يتَقَوَّى الجسد ثمّ يرتخي ويتفتّت. لأنّ الشاعر عامِلُ دَمار. فيروس. مرضٌ متنكّر. وعلى الرغم من أنّه غامضٌ بشكل رائع حتّى الآن، فهو أكبر خطرٍ على كريّاتنا الحمراء. أن نعيش بالقرب منه؟ يعني أن نحسّ بالدم يتضاءل. أن نحلم بفردوس للأنيميا، وأن ننصت في الأوردة إلى الدموع تسيل...

---

(١) ستيفان جورج (١٨٦٨-١٩٣٣): شاعر ومترجم ألمانيّ من أعلام «الرمزيّة» ومن دُعاة «الفنّ للفنّ». ناهض النازيّة وهاجر إلى سويسرا.

III - يسمح لك البيتُ بكلّ شيء. في وسعك أن تسكب فيه دموعك وخزيك ونشواتك وشكاواك تحديدًا، بينما يمنعك النثر من أن تفيض بما في سرّك، وأن تنتحب. النثر يقتضي حقائق أخرى: قابلة للضبط، مُستَنتَجة، وموزونة. ومع ذلك ماذا لو سرقنا حقائق الشعر؟ لو نَهَبْنا مادّتَهُ وجرؤنا جرأةَ الشعراء؟ لماذا لا ندسّ في الخطاب وقاحاتهم وإهاناتهم؟ تكشيراتهم وزفراتهم؟ لماذا لا يسعنا إطلاقًا أن نكون متحلّلين متعفّنين، جُثثًا، ملائكةً أو شياطين في كلام العامّة، وأن نخون بطريقةٍ مثيرة للشفقة هذا القدْرَ الهوائيّ المشؤوم من التهويم؟ الحقّ أنّنا نتعلّم شجاعةَ الإدراك والجرأةَ على أن نكونَ أنفُسنا في مدرسة الشعراء أكثر ممّا نتعلّمهما في مدرسة الفلاسفة. «تأكيداتهم» يمتقع لها أكثر أقاويل السفسطائيّين القدامى وقاحةً وغرابة. لا أحد يتبنّاها: هل ظهَرَ إطلاقًا مفكّرٌ واحدٌ ذهَبَ إلى حيث ذهب بودلير، أو تجاسر على أن يضع في نسقٍ إحدى ومضات **لير** أو عبارةً **لهاملت**؟ قد يكون نيتشه قبل نهايته، لكنّه ظلّ للأسف متشبّثًا بنبرات النبيّ! ماذا لو بحثنا ناحية القدّيسين؟ ربّما وجدنا ضالّتنا في بعض اندفاعات تيريزا الأفيليّة أو أنجيل دوفولينيو[1]... إلاّ أنّنا نعثر لديهما أكثر ممّا ينبغي على الإله، هذا الخُلْفُ *المعزّي*، الذي يحطُّ من نوعيّة شجاعتهما فيما هو يدعمها. ليس من شأن الإنسان التجوالُ بلا قناعات وحيدًا

---

(١) القديسة تيريزا الأفيليّة Thérèse d'Ávila (١٥١٥-١٥٨٢): الراهبة الكرمليّة الإسبانيّة (سبق التعريف بها). أنجيل دو فولينيو Angèle de Foligno (١٢٤٨-١٣٠٩): قديسة فرانسيسكانيّة إيطاليّة.

وسط الحقائق، ولا هو من شأن القدّيس، إلاّ أنّه قد يكون أحيانًا من شأن الشاعر. . .

أتخيّل مفكّرًا يهتف في حركة عُجْب: «وددتُ لو أنّ شاعرًا اتّخذ له مصيرًا من أفكاري!» إلاّ أنّ أمنيته لن تصبح شرعيّة إلاّ إذا أطال معاشرة الشعراء، ونهل منهم مُتعًا من اللعنات، وأعادَ إليهم بشكل مُجَرَّدٍ وكامل، صورةَ انحطاطهم الخاصّ وهذياناتهم الخاصّة. - وعليه بشكل خاصّ، أن ينهار على عتبة الغناء، وأن يُجرّب وهو دون مستوى الإلهام، ***الحسرة على أنّه ليس شاعرًا***، والحسرةَ على أنّه لم يُطلَعْ على «علم الدموع»، وعلى نكبات القلب، وعلى العربدات الصوريّة، وعلى خلود اللحظة. . .

حلمتُ مرارًا عديدةً بِغُولٍ كئيبٍ واسعِ العلم، متضلِّعٍ في كلّ اللغات، قريبٍ من كلّ الأبيات ومن كلّ الأرواح، يهيم على وجهه في العالم لينتشي بالسموم، بالحماسات، بالنشوات، عبر بلاد فارس والصين، وعبر أصقاع الهند الهالكة وأوروبا المحتضرة. - حلمتُ مرارًا عديدةً بصديقٍ للشعراء، يكون قد عرفهم كلّهم بسبب اليأس من أن يكون واحدًا منهم.

مِحَنُ الغَريب

--------------- هو ذا يجوب شوارع الغرب منحدرًا من بعض القبائل منكودة الحظّ. لقد عشق أوطانًا متتالية حتى فقد الأمل في وطن. إنّه بلا فاعليّة، بلا اسم، بلا حيويّة، وقد تجمّد في غروب لا زمنيّ، مواطنًا للعالم - ولِلاَعالَم -. الشعوبُ التي لا قدَر لها لا تستطيع توفير قَدَرٍ لأبنائها، هؤلاء الذين يتعطّشون إلى آفاق أخرى، فيتعلّقون بها ويستنفدونها بعد ذلك، كي ينتهي بهم الأمر هم أيضًا إلى أطيافٍ لإعجابهم وقُنوطهم. لا يجدون ما يحبّون في أوطانهم، فيوجّهون حبّهم إلى مكانٍ آخر، إلى أصقاع أخرى، حيث يُدهِشُ حماسُهم السكّانَ الأصليّين. الإفراطُ في استثارة المشاعر طريقٌ إلى تهرئتها وتلَفِها... وكان الغريب الذي تبدّد في كلّ هذا العدد من الطرقات يصرخ: «لقد صنعتُ لِي ما لا يُحصَى من الأصنام، ونصبتُ في كلّ مكان أكثرَ ممّا يجب من المذابح، وجثوتُ أمام حشْدٍ من الآلهة. الآن وقد أنهكتني العبادةُ أجِدُني أهدرتُ حصّةَ الهذيان التي كانت من نصيبي. لا حيلةَ لأيٍّ كان إلاّ من أجل مُطلَقاتِ رعاعِه. الروحُ كالبلاد لا تزدهرُ إلاّ داخل حدودِها: أنا ذا أدفع الثمن لأنّي اجتزتُها، لأنّي اتّخذتُ من اللامتعيّن وطنًا ومن المعبودات الأجنبيّة دِينًا، لأنّي ركعتُ أمام القرون التي أقصت أسلافي. لم يعد في وسعي أن أحدّد من أين جئت. أنا في المعابد بلا عقيدة، في المُدنِ بلا هِمّة، بالقرب من أشباهي بلا فُضول، وعلى الأرض بلا يقين. - اعطوني رغبةً **مُحَدّدة** وسأقلبُ العالَم. خلّصوني من خزيِ هذه الأفعال التي

تدفعني كلّ صباح إلى الانخراط في كوميديا الانبعاث وتدفعني كلّ مساء إلى الانخراط في كوميديا القبر. ولا شيء بينهما سوى هذا العذاب في كفَنِ السأم... أحلمُ بأنْ أُريد - ويبدو لي أنّ كُلَّ ما أريدُ لا يُقَدّرُ بِثمَن. أنا ذا أتوجّهُ بلا غاية، كالونداليّ الذي أضنته الكآبة، أنا بِلا أنَا، ناحيةَ عُزلةٍ لم أعد أعرف ما هي... من أجل اكتشافِ إلَهٍ مهجور، إلهٍ مُلحدٍ هو نفسه، والنوم في ظلِّ آخرِ شكوكه ومعجزاته.»

سأمُ الفاتِحين

---------------- ثقُلَت باريس على نابليون، باعترافه، ثِقَلَ «معطفٍ من رصاص». تسبّب ذلك في هلاك عشرة ملايين إنسان. تلك حصيلة «مرض القرن» حين يُصبح وكيلَهُ المدعُوُّ روني من على صهوةِ حصان[١]. وُلِد هذا المرض في بطالة صالونات القرن الثامن عشر، في ميوعةِ أرستقراطيّةٍ عاقِلَةٍ أكثر ممّا ينبغي، وأحدث دمارًا في أعماق الريف: كان على الفلاّحين أن يدفعوا ضريبة الدم مُقابل عالمٍ من الحساسيّة غريبٍ على طبيعتهم، وتبعتهم في ذلك قارّةٌ بأكملها.

---

(١) روني (René) بطل روية شاتوبريان التي تحمل نفس الاسم. وهي من جملة الروايات التي أتاحت لشاتوبريان أن يصبح الناطق باسم المُصابين بمرض الاكتئاب الذي سمّاه الرومنطيقيّون «مرض القرن».

الطبائعُ الاستثنائيّة التي يتسرّب إليها السأم، تشعر بالقرف من كلّ مكان، ولأنّها مسكونة بمكانٍ آخر مُؤبّد، فإنّها لا تستغلّ حماسات الشعوب إلاّ من أجل مُضاعفةِ مقابرها.

زعيمُ العصابة هذا الذي ما انفكّ يبكي على فيرتر وأوسيان[1]، هذا الأوبرمان[2] الذي ما انفكّ يعرض فراغه على الفضاء والذي لم يعرف الاسترخاء، حسب جوزفين، إلاّ مرّاتٍ قليلة، كان قد كُلِّف بمهمّةٍ سريّة تتمثّل في إخلاءِ الأرض من سكّانها. ما من مصيبة أفدح على البشر من الفاتح الحالِم. لكنّ ذلك لا يمنعهم من أن يُسرعوا إلى تقديسه، مفتونين كما هم بالمشاريع الغريبة والمُثُل المؤذية والطموحات الوخيمة. لم يحدث قطُّ لإنسان رشيدٍ أن يكون موضوع عبادة، أو أن يترك اسمًا، أو أن يطْبَعَ بِبَصْمَتِهِ حدَثًا واحدًا. يظلّ الحشدُ ساكنًا أمام التصوّر الواضح أو الأيقونة الشفّافة، لكنّه يتهيّج حول ما لا يمكن التحقُّق منه، وحول الألغاز المزيَّفة. هل مات أحدٌ أبدًا باسم الانضباط؟ يرفعُ كلّ جيلٍ نُصُبًا لِجَلاّدي الجيل الذي سبقه. لكن لا شيء يقلّل

---

(١) فيرتر Werther: بطل رواية غوته المعروفة. أوسيان Ossian: شاعر سلْتِيّ من القرن الثالث يُفترَضُ أنّه مؤلّف مجموعة من القصائد الملحميّة، نشرها الشاعر الاسكتلانديّ جيمس ماك فيرسون بين سنتي ١٧٦٠ و١٧٦٣، وسرعان ما ذاع صيتها في كامل أوروبا. ويُقال إنّ نابليون ضمّها إلى مكتبته المحمولة في حملته على مصر.

(٢) أوبرمان Obermann: بطل رواية لنفس الاسم لإيتيان بيفار دو سينانكور (Etienne Pivert de Senancour). نشرت سنة ١٨٠٤ دون نجاح يُذكر، لكنّ بطلها سرعان ما أصبح علامة من علامات ميلانخوليا القرن.

من صحّة كون الضحايا قَبِلُوا بأن يُضحَّى بهم، ما داموا قد آمنوا بالمجد، وبِنَصْرِ الواحد، وبهزيمة الجميع. . .

لم تعبد البشريّة إلاّ أولئك الذين تسبّبوا في هلاكها. لا وجود في التاريخ للقواعد التي تتيح للمواطنين أن يموتوا بهدوء. كما لا وجود للأمير الحكيم، فقد كان دائمًا محلّ احتقار رعاياه. الحشدُ يحبّ الرواية حتى حين تكون على حسابه، لأنّ فضيحة الأخلاق تشكّل نسيج الفضول البشريّ والمجرى التحتانيّ لكلّ حدث. الزوجة الخائنة والزوج المخدوع يَمُدّان الكوميديا والتراجيديا وربّما الملحمة أيضًا، بمعظم مواضيعها. ولمّا لم يكن للاستقامة سيرة ولا سحر، فإنّ ضجّة العار وحدها هي التي ما انفكّت تسلّي وتثير الفضول منذ الإلياذة وصولاً إلى الفودفيل. من ثمّ كان من الطبيعيّ أن تَمنحَ الشعوبُ نفسَها فريسةً للفاتحين وأن تريد منهم أن يدوسوها. وكان من الطبيعيّ ألاّ يبقى ذكرٌ لأيّ أمّة لا طُغاةَ فيها، وأن تكون حصيلةُ المظالم التي يرتكبها شعبٌ مَا، العلامةَ الوحيدة على حضوره وعلى حيويّته. الأُمّة التي تكفُّ عن انتهاك الحرمات أمّةٌ في ذروة الانحطاط. إنّ عدد انتهاكاتها هو الذي يتيح لها أن تكشف عن غرائزها وعن مستقبلها. انظُرُوا بدايةً من أيّ حربٍ كفّت عن ممارسة ذلك النوع من الجرائم على نطاق واسع: ثَمَّ تعثرون على أول رموز أفولها. انظُرُوا بدايةً من أيّ لحظة أصبح الحبّ بالنسبة إليها مَراسِمَ وأصبح السريرُ شرطًا من شروط الرعشة، ثَمَّ تتحقّقون من بداية قصورها ونهاية إرثِها الهمجيّ.

التاريخُ الكونيّ: تاريخُ الشرّ. إزاحةُ الفواجع من صيرورة البشريّة تساوي تصَوُّرَ طبيعةٍ بلا فُصول. اِمتَنِعْ عن المساهمة في إحدى الكوارث ولن تلبث أن تتلاشى دون أن تترك أثرًا. نحن نَهُمُّ الآخرين عن طريق الشقاء الذي نُشيعُ من حولنا. «لم أتسبّب في عذاب أحد!» - هُتافٌ بات غريبًا إلى الأبد على مخلوقٍ من لحم. نتحمّس لشخصيّة من الحاضر أو الماضي، فنطرح على أنفسنا بطريقة لا واعيةٍ هذا السؤال: «كم عدد الكائنات التي تسبّب في شقائها؟» من يدري إن لم يكن كلّ منّا طامعًا في أن يحظَى بقتل أشباهه كلّهم؟ لكنّ هذه الحظوة موزّعة على قلّةٍ من الناس، ودون أن يتمّ ذلك بشكلٍ كامل. بفضل هذا التقييد وحدَهُ نفهمُ لماذا ظلّت الأرض مأهولة حتى الآن. نحن القتَلةُ غيرُ المباشرين، نُشكّل كُتلةً متجمّدة، حشْدًا من المواضيع قبالةَ فعَلةِ الزمن الحقيقيّين، قبالةَ المجرمين الكبار الذين نجحوا.

لكن ليكُن لنا بعض العزاء في أنّ نسلنا القريب أو البعيد سينتقم لنا. إذ ليس من الصعب أن نتصوّرَ لحظةَ يأخذ البشر في ذبح بعضهم البعض، قرفًا من أنفسهم، ويخرجون إلى الشارع ليروّوا عطشهم إلى الدم، فإذا الحلمُ المدمّر المتواصل عبر كلّ هذا العدد من الأجيال، مأثرة الجميع...

------------------ بحثتُ عن الشكّ في كلّ الفنون، فلم أعثر عليه فيها إلاّ متنكّرًا مُخالِسًا، مُفلِتًا من فترات استراحة الإلهام، منبثقًا من الاندفاع المُسترخي. إلاّ أنّي أحجمتُ عن البحث عنه - حتى على هذه الصورة - في الموسيقى. إنّه عاجز عن الإزهار فيها. الموسيقى تجهل السخرية. لذلك هي لا تنجم عن مكر العقل، بل عن لطائف السذاجة الرقيقة أو الحادّة - حماقةُ الرائع طيشُ اللامتناهي - ولمّا لم يكن للطرفة معادل صوتيّ، فإنّ من الاستنقاص من قيمة الموسيقيّ أن ننعته بالذكيّ. هذه الصفة تحطُّ من قدره، وهي غير مقبولة في هذه الكوسموجونيا الخاملة، حيث يمكنه أن يرتجل أكوانًا، شأنه في ذلك شأن إلهٍ أعمى. لو كان واعيًا بموهبته وعبقريّته لهلك غرورًا، لكنّه غير مسؤول عنهما. لقد وُلِدَ في مهبط الوحي وهو من ثمّ لا يستطيع أن يفهم نفسه. على المصابين بالعقم أن يتأوّلوه. إنّه ليس ناقدًا، كما أنّ الإله ليس لاهوتيًّا. الموسيقى حالةٌ قُصوى من الوهم والمُطْلَق. خيالٌ واقعيّ إلى أبعد حدّ. أكذوبة أكثر صدقًا من العالم. من ثَمَّ هي تخسَرُ مكانَتَها في نظَرِنا ما إن ننفصل عن الخلْق، جافّين أو مُكتئبين، وما إن يِبدو لنا باخ نفسُهُ إشاعةً تافهة. - تلك أقصى نقطةٍ في عدم اشتراكنا في الأشياء، في برودنا وسقوطنا. ***التكشير في غمْرةِ الرائع*** - الانتصار التهكُّمِيّ ***للمبدأ الذاتيّ***، وحلقة وصْلِنا بالشيطان! هالكٌ ذاك الذي لم تعد لديه دموعٌ للموسيقى، وذاك

الذي لم يعد يستمرّ في العيش إلاّ على ذكرى الدموع التي ذَرَفها: ستكون البصيرةُ العقيمة قد قضت لديه على الوجد - من حيث كانت تنبثقُ عَوالِم...

الإنسان الآليّ

---------------- أتنفّسُ بناءً على حُكمٍ مُسبق. وأتأمّل رعشة الأفكار فيما يبتسم الفراغُ لنفسه... لا مَزيدَ من العَرَق في الفضاء. لا مزيدَ من الحياة. يمكن لأقلّ بذاءةٍ أن تجعل الحياةَ تظهر من جديد: ثانيةٌ من الانتظار كافيةٌ لذلك.

نشعر بأنفسنا ونحن نكون، فنُكابدُ إحساسَ مخبول مبهور يُفاجئ خَبَلهُ الخاصّ ويحاول عبثًا أن يمنحه اسمًا. يُوهِنُ التعوُّدُ دهشتَنا من كينونتنا، فنكونُ ونتجاهل الأمر، مستعيدين موقعنا في ملجأ الكائنين.

أنا مُمتثل للأعراف والتقاليد، أعيش أو أحاول أن أعيش بدافع المحاكاة، بدافع احترام قواعد اللعبة، بدافع القرف من الأصالة. أستسلم استسلامَ إنسانٍ آليّ: أتظاهرُ بما يُشبه الورع وأضحك على ذلك في السرّ. لا أخضع للأعراف إلاّ من أجل التخلّي عنها في الخفاء. أرِدُ في كلّ السجلّات لكن دُونَ إقامةٍ في

الزمن. أحفظ ماء الوجه في حين يكون من الضروريّ إراقته. . . الإنسانُ الذي يحتقر كلّ شيء مُطالَبٌ بالظهور في مظهر الوجاهة المثاليّ، كي يوقع نفسَه والآخرين في الخطأ. هكذا يسهل عليه إنجاز مهمّته كحيٍّ *مُزَيَّف*. ما الجدوى من عَرْضِ انحطاطِه ما دام قادرًا على التظاهر بالازدهار؟ تفتقر الجحيم إلى آداب التكلُّف: إنّها الصورةُ الحادّةُ لإنسانٍ صريحٍ وغير مُهَذّب. إنّها الأرض وقد صِيغت مُجَرّدةً من كلّ هواجس الأَناقة والمُجاملة.

أقبلُ الحياةَ بدافع الأدب: التمرُّدُ الدائمُ قلّةُ ذوقٍ شأنه في ذلك شأن التسامي بالانتحار. ننفجرُ في العشرين من العمر على السماوات وعلى القذارة التي تتستّر عليها، ثمّ نملّ من ذلك. الوِضْعةُ التراجيديّة لا تليق إلاّ بمراهَقةٍ مُطَوَّلة ومثيرة للاستهزاء، لكن لابدّ من ألف اختبار قبل الوصول إلى مَسْرَحةِ الزُّهْد.

الإنسان المتحرِّر من كلّ مبادئ التعامُل والذي لا يتوفّرُ على أيٍّ من مواهب الممثلّ، هو النموذج الأوّل للحظّ السيّء والمخلوق الشقيُّ بشكلٍ مثاليّ. لا جدوى من إنشاء هذا النمط من الصراحة: ***الحياة لا تُطاق إلاّ بِقدْرِ ما نضع فيها من خداع***. يتسبب مثل ذاك النمط في خراب مفاجئ للمجتمع، لأنّ «عذوبة» الحياة المشتركة تكمن في استحالة إطلاق العنان لَلامُتناهِي نوايانا المبيّتة. لا يطيق بعضنا بعضًا إلاّ لأنّنا كلّنا دجّالون. الشخص الذي لا يقبلُ بالكذب لن يلبث أن يرى الأرض تتهاوى من تحت قدميه: نحن مُكرَهون

بيولوجيًّا على الزّيف. مَا من بطلٍ أخلاقيّ إلاّ وهو صبيانيّ أو عقيم أو غير أصيل، لأنّ الأصالة الحقيقيّة هي الاتّساخُ بالغِشّ، وبكياسة الإطراء علنًا والثلب سرًّا. لو كان في وسع أشباهنا الاطّلاع على آرائنا فيهم، لشُطبت من المعجم وإلى الأبد عبارات الحبّ والصداقة والإخلاص. ولو امتلكنا الشجاعة الكافية لمواجهة الشكوك التي نحملها باحتشام تُجاه أنفسنا، إذنْ لكفّ أيٌّ منّا عن قول «أنا» دون أن يخجل. المهزلة تقود كلّ ما يحيا منذ ساكن الكهوف إلى الشكّاك. ولمّا كان احترام المظاهر وحده يفصلنا عن الجِيَف، فإنّ من المهلك أن نمعن النظر في عمق الأشياء والمخلوقات: بنْيَتُنَا لا تتحمّل إلاّ جرعةً معيّنة من الحقيقة. . .

لنحتفظ في قرارة أنفسنا بيقينٍ أرفع درجةً من كلّ ما عداه: لا معنى للحياة **ولا يمكنها** اكتسابُ معنى. لو أنّ كشْفًا مفاجئًا أقنعنا بالعكس، إذنْ لتوجّب علينا أن نقتل أنفسنا فورًا. قد نستمرّ في التنفّس بعد غياب الهواء، إلاّ أنّنا نختنق فورًا لو سُحبت منّا فرحةُ البُطلان. . .

في الكآبة

------------------ نعجز عن التخلّص من الذات فنتلذَّذُ بافتراس أنفسنا. عبثًا نلوذ بسيّد الظلال، بموزّعِ لعنةٍ مُعيّنة: نحنُ

مرضى بلا مرَض، ومنبوذون بلا نقيصة. الكآبة هي **حالُ الأنانيّة وهي تحلم**. ما من موضوع بعدُ خارج الذات، ما من دافع للكراهيّة أو الحبّ، بل السقوطُ نفسُهُ في وحلٍ خامل، التقلُّبُ نفسُهُ لهالِكٍ بلا جحيم، التكرارُ نفسُهُ لِسَوْراتِ الحرص على الهلاك... وإذا كان الحزنُ يكتفي بإطارٍ مُرتَجل، فإنّ الكآبة تحتاج إلى فائضٍ من الفضاء، إلى مشهدٍ من اللامتناهي تنشرُ فيه مَلاحتَها المتجهّمة الغامضة، ودَاءَهَا الفالِت الذي أوجَلَهُ أن يزول، فإذا هو يخشى حَدًّا لانحلالِه وتذبذُبِه. تتفتّح الكآبة - أغرب أزهار عزّة النفس - وسطَ السموم التي تستخرج منها نسغها وحيويّةَ كلّ حالات ضعفها. إنّها تتغذّى بمَا يُفسدها، وهي من ثمّ تُخفِي تحت اسمها الرخيم، كبرياء الهزيمة والرثاءَ للذات...

شهيّةُ التفوّق

------------------- القيصر أقرب إلى رئيس بلديّة إحدى القُرَى، منه إلى عقلٍ في غاية الصحو لكنّه مُجرّدٌ من غريزة السيطرة. الأمر المهمّ هو القيادة: أغلب البشر يطمحون إلى ذلك. وسواء بين يديك إمبراطوريّة أم قبيلة أم أسرة أم خادم، فإنّك تعرب عن موهبتك كطاغية، مَجيدٍ أو كاريكاتوريّ: عالمٌ كامل أو شخص واحد تحت إمرتك. هكذا تُحَدّدُ سلسلة النكبات الناجمة عن الحاجة إلى التفوّق... نحن لا نخالط إلاّ مرْزُبانات: كلٌّ -

حسب إمكاناته - يبحث له عن حشْدٍ من العبيد أو يقتصر على واحد. لا أحد يكتفي بنفسه: أكثرهم تواضعًا يعثر دائمًا على صديق أو على صاحبة كي يكشف عن حلمه بالنفوذ. المُطيع لن يلبث أن يُطاع بدوره، مُتحوّلاً من ضحيّة إلى جلاّد: تلك هي الرغبة القصوى للجميع. وحدهم الشحّاذون والحكماء لا يشعرون بها. هذا إن لم يكونوا أكثر مهارةً في التمثيل...

شهيّةُ القوّة تسمح للتاريخ بأن يتجدّد مع بقائه هو نفسه تمامًا. تحاول الأديان مُقاومة هذه الشهيّة فلا تنجح إلاّ في استثارتها. لو أتيح للمسيحيّة بلوغ الغاية لأصبحت الأرض صحراء أو فردوسًا. ثمّة ملمحٌ ثابت ومضمونٌ مُماثل تحت الأشكال التي قد يتّخذها الإنسان، توضّح لماذا نحن نتحرّك داخل دائرةٍ على الرغم من كلّ مظاهر التغيّر، ولماذا كان التاريخ ليتلاشى على الفور لو أنّ تدخّلاً خارقًا أفقدَنا صِفتَنا كوُحوشٍ أو كدُمًى متحرّكة.

حاوِلُوا أن تكونوا أحرارًا: ستموتون جوعًا. المجتمعُ لا يتحمّلكم إلاّ إذا كنتم على التوالي خانعين ومستبدّين. إنّه سجن بلا حُرّاس - لا مهرب منه إلاّ إلى الهلاك. إلى أين نمضي حين لا نستطيع العيش إلاّ في المدينة دون أن تكون لدينا الغرائز الضروريّة لذلك، وحين لا نملك ما يكفي من الجرأة كي نتسوّل فيها، ولا ما يكفي من التوازن كي نتعاطى الحكمة؟ - نحن في نهاية الأمر نمكث هناك مثل الجميع، متظاهرين بالانهماك في أمورنا. نختار

هذا الحدّ الأقصى بفضل موارد الخديعة، حيث إنّ التظاهر بالحياة أقلّ إثارةً للسخرية من ممارسة الحياة.

تظلّ المدينة تحت طائلة كانيباليزم مُقنّع، ما ظلّ البشرُ مولعين بها. الغريزةُ السياسيّة هي النتيجة الطبيعيّة للخطيئة والتجسّد الفوريّ للسقوط. يفترض أن يُكَلّفَ كلٌّ بعزلتهِ لكنّ كُلاًّ يُراقب عزلة الآخرين. للملائكة وقُطّاع الطرق قادتُهم: كيف يمكن للمخلوقات الوسيطة - سُمْك البشريّة - ألا يكون لهم قادتهم؟ جرّدوهم من رغبتهم في أن يكونوا عبيدًا أو طغاةً ولن تلبثوا أن تدمّروا المدينة في طَرْفةِ عين. لقد خُتِم ميثاقُ القِرَدة إلى الأبد وأخذ التاريخ يتابع مجراه، زمرة لاهثة بين الجرائم والمنامات. لا أحد يستطيع إيقافه. حتّى الذين يمقتونه يساهمون في مسيرته...

موقعُ الفقير

--------------- الملاّكون والشحّاذون: فئتان تتعارضان عند كلّ تغيير، عند كلّ فوضى مُجدِّدة. احتلّتا الطرفين المتقابلين لسلّم المجتمع فإذا هما تخافان كلّ تغيير، سواء نحو الأفضل أو نحو الأسوأ. لقد استقرّتا بنفس الطريقة، إحداهما في الرخاء والأخرى في العوَز. بينهما يُوجَدُ - العرَق الغُفل، أساسُ المجتمع - أولئك الذين يتحرّكون، يكدّون، يثابرون ويُنَمُّونَ عبثيّةَ

الرجاء. مِنْ فَقْرِ الدم لديهم تتغذّى الدولة. ما من مضمون وما من حقيقة لفكرة المواطن لولاهم، شأن البذخ أو الاستعطاء: الأثرياء والمتشرّدون هم طفيليّات الفقير.

إذا كان للبؤس ألف علاج، فإنّ الفقر لا علاج له. كيف يمكن إنجادُ من يصرّون على عدم الموت جوعًا؟ الإله نفسُهُ لا يستطيع تعديل مصيرهم. بين المحظوظين ولابسي الأطمار ينتشر أولئك الجوعى الجديرين بالاحترام، الذين استغلّتهم الأبّهةُ والأسمال، ونهبهم أولئك الذين قرفوا من كلّ جهد، فاستقرّوا كلٌّ حسب حظّه أو ميلِه، في الصالون أو في الشارع. وهكذا تتقدّم الإنسانيّة: ببعض الأثرياء وبعض الشحّاذين - وبكلّ فقرائها....

وُجوهُ الانحطاط

«لا أستطيع أن أُبْعِدَ كُلَّ تَعَبِ
الشُّعُوب المنسيّةِ عن جُفونِي
ولا أنْ أُجَنِّب الرُّوحَ المُروّعةَ
السُّقوطَ الصّامِتَ للنُّجوم البعيدة.»

هوغو هوفمانستال[1]

---

(١) هوغو هوفمانستال Hugo von Hofmannsthal (١٨٧٤-١٩٢٩): شاعر نمساويّ. أحد مؤسّسي مهرجان سالزبورغ.

------------- ما إن تُصبح الحياةُ هاجِسَها الوحيدَ حتّى تَشرعَ الحضارةُ في الانحطاط. المراحلُ المتقدّمة تهتمُّ **بالقيم** في ذاتِها، وما الحياةُ سوى وسيلةٍ لتحقيقها. لا **يعرف** الفردُ أنّه يعيش، بل **يعيش** - عبدًا سعيدًا للأشكال التي يقوم بتوليدها والاعتناء بها وعبادتها. تسيطر عليه الانفعاليّة وتُشبِعُه. ما مِنْ إبداعٍ بعيدًا عن موارد «العاطفة»، تلك الموارد المحدودة، التي تبدو على الرغم من ذلك غَيْرَ قابلةٍ للنُّضوب، في عين من لا يشعر إلاّ بغِناهَا: هذا الوهم **يُنتِجُ** التاريخ. مع الانحطاط لا يسمح الجفاف العاطفيّ إلاّ بطريقتين للشعور والفهم: الإحساس والفكرة. غير أنّ الانفعاليّة، هي طريقنا إلى الانكباب على عالم القِيَم، وإلى بثّ حيويّةٍ في المقولات والمعايير. يقتصر نشاطُ الحضارات في مراحلها الخصبة على إخراج الأفكار من عَدَمِها ***المُجَرَّد***، وعلى ***تحويل المفاهيم إلى أساطير***. العبورُ من الفرْد الغُفْل إلى الفرد الواعي لم يُنجَزْ بعدُ، إلاّ أنّه يبدو أمرًا لا مفرّ منه. قومُوا بِقَيْسِه: في اليونان من هومير إلى السفسطائيّين، في روما من الجمهوريّة

القديمة المتقشّفة إلى «حكمة» الإمبراطوريّة، في العالم الحديث من الكاتدرائيّات إلى دانتيلاً القرن الثامن عشر.

ليس في وسع أمّةٍ أن تُبدِع إلى الأبد. إنّها مدعوّة إلى إنشاء عبارةٍ ومعنًى لمجموعةٍ من القيم، لن تلبث أن تنفَدَ مع الروح التي أنجَبَتْها. يستيقظ الفرْدُ من سُباتٍ مُنتِج فيبدأ عهْدُ الوعي: إذَا الجموع لا تعالج سوى مَقولات فارغة. وإذا ***الأساطير تستعيد هيئتها كمفاهيم***: إنّه الانحطاط. وسرعان ما تُظهر التّبِعاتُ وَقْعَها: يريد الفرْدُ أن يعيش ويحوّل الحياة إلى غاية، مرتقيًا إلى مرتبة الاستثناء الصغير. تُشكِّل حصيلة تلك الاستثناءات عجز الحضارة، فإذا هي مُقدّمة لاندثارها. الجميع يبلغون الرِّقّة. - لكن أليست تلك حماقة المُغفّلين المُشِعّة وهي تُنجِزُ عَمَلَ المراحل الكُبرَى؟

يؤكّد مونتسكيو أنّ الجيش الرومانيّ في نهايات الإمبراطوريّة لم يعد متكوّنًا إلاّ من الخَيّالة، لكنّه يغفل عن إطلاعنا على السبب. لنتخيّل الجنديَّ الرومانيّ المُشْبَع بالمجد والمال والخلاعة، بعد أن جاب ما لا يُحصَى من الأقطار وخسِر عقيدته وهِمَّتَهُ في الاحتكاك بهذا القَدْر من المعابد والرذائل، لنتخيَّلْهُ ***راجِلاً***! لقد غزَا العالَمَ وهو من المُشاة ليَخسَرَهُ وهو من الفرسان. - في كلّ رخاوة يتجلّى عجزٌ فيزيولوجيّ عن المزيد من التصديقِ بأساطير المدينة. الجُندِيُّ المُحَرَّرُ والمُواطِنُ الواعِي يستسلمان لِلهمَجِيّ. ***اكتشافُ*** الحياة يُفنِي الحياة.

حين يهبُّ شعبٌ كاملٌ بدرجات متفاوتةٍ إلى ترصُّدِ أحاسيس غير معهودة، وحين يعمدُ عن طريق دقائق الذائقة إلى تعقيد ردود أفعاله، فإنّه يكون قد ارتقى إلى مستوًى من التفوُّقِ المُمِيت. ليس الانحطاط سوى الغريزة وقد تلوّثت بفعل الوعي. هكذا لن نكون مفرطين مهما فعلنا في تقدير أهميّةِ فنِّ تذوّق الطعام بالنسبة إلى وجود المجموعة. فعلُ الأكل *الواعي* ظاهرةٌ إسكندريّة. الهمجيُّ يتغذَّى. الانتقائيّةُ الفكريّة والدينيّة، والبراعة الجنسيّة، والرؤية الجماليّة - والهَوَسُ العالِمُ بالطعام الفاخر، كلُّها علامات مختلفة لشكلٍ واحد من التفكير. حين كان غافيوس أبيشيوس[1] يطوف بسواحل إفريقيا بحثًا عن جراد البحر، دون أن يستقرّ في مكان لأنّه لم يجد ما يلائم ذوقه، فإنّه كان معاصرًا لأرواحٍ حائرة ما انفكّت تعبد مجموعةَ الآلهة الغريبة دون أن تجد فيها ما يُغْنِي أو يريح. *أحاسيس غير معهودة - آلهة أسطوريّة متنوّعة*، ثمار متوازية للجفاف نفسه، لنفس الفضول الذي بات بِلاَ دافعٍ باطنيّ. ظهرت المسيحيّة: إلهٌ واحد وصيام. هكذا بدأ عصْرٌ من المُبتَذلِ والجليل.

يموت الشعب حين يفقد القدرة على ابتكار آلهة أخرى، أساطير أخرى، حماقات أخرى... تشحب أصنامُه وتتلاشى فينهل من أماكن أخرى ويجد نفسَهُ وحيدًا أمام وُحوشٍ مجهولة.

---

(١) غافيوس أبيشيوس Gavius Apicius، أحد وجهاء الرومان، من مواليد ٢٥ ق.م، ينسب إليه أوّل كتاب في فنّ تذوّق الطعام.

إنّه الانحطاط دائمًا. لكن ما إن ينتصر أحدُ هذه الوحوش حتى يتحرّك عالَمٌ آخر، خَشِن، مُظْلِم، غير متسامح، إلى أن يستنفد إلهه ويتحرّر منه. وذلك لأنّ الإنسان لا يكون حُرًّا - وعقيمًا - إلاّ في المسافة التي يموت خلالها الآلهة، ولا يكون عبدًا - ومبدعًا - إلاّ خلال المسافة التي تطغى فيها الآلهة وتزدهر.

أن يتأمّل المرء أحاسيسه - أن **يعرف** أنّه يأكل - تلك لحظةُ وعيٍ يتخطّى بفضلها أحدُ الأفعال البسيطة غايتَهُ المباشرة. هكذا ينمو إلى جانب القرف الذهنيّ، قرفٌ آخر أعمق وأخطر: يُقبل من الأمعاء لينتهي به الأمر إلى أفدح أشكال العدميّة، عدميّة التّخمة. لا يمكن لأكثر الاعتبارات مرارة أن تُقارَنَ في آثارها بالمشهد الذي يعقب مأدبةً فاخرة. الوجبةُ التي تتجاوز من حيث الديمومة بضع دقائق، ومن حيث الأطباق القدْرَ الضروريّ، تُفتّت كُلّ يقينٍ لدينا. الإفراطُ الطبْخِيّ والشِّبَع دَمّرَا الإمبراطوريّة بقسوةٍ أشدّ من تلك التي أبدتها الطوائف الشرقيّة والمذاهب اليونانيّة سيّئة الهضْم. لا نشعر برعشةٍ شكوكيّةٍ حقيقيّة إلاّ حول مائدة عامرة. وربّما اقتضى الأمرُ بعد كلّ هذا الإفراط أن تُقَدّم «مملكة السماء» كغوايةٍ أو كمفاجأة منحرفة بشكل لذيذ في رتابة الهضم. يبحث الجوع في الدين عن طريق للخلاص، ويبحث الشِّبَعُ عن سُمّ. ***الخلاص*** بفضل فيروسات، والخلطُ بين الصلوات والرذائل، قبل الفرار من العالَم والتمرّغ فيه عن طريق الفعل نفسِه... تلك هي حصيلة المرارات والإسكندرانيّة.

ثمّة *تَمامٌ في النّقصان* داخِلَ كلّ حضارةٍ نضجت أكثر ممّا يجب. تَلِينُ الغرائز. تتمدّد الملاذُّ حتى تكفّ عن التطابُق مع وظيفتها البيولوجيّة. تُصبحُ المتعةُ غايةً في ذاتِها، فإذَا إطالَتُها فنٌّ وإرجاءُ الأورغازم تقْنِيةٌ وممارسةُ الجنس علم. الطرائقُ والإيحاءاتُ المأخوذةُ من الكتب لمضاعفة مسالك الرغبة. الخيالُ الذي يُعَذَّبُ من أجل تنويع مُقدّمات الاستمتاع. الفكرُ الذي يُقْحَمُ بدورِهِ في مجالٍ غريبٍ عن طَبيعته ويُفْتَرَضُ ألاَّ يدخل في دائرة تأثيره. - كُلُّها أعراضُ إفقار الدم والعقلنة المَرَضِيّة للجسد. ما إن يُتَصَوَّرَ الحُبُّ *كطَقْسٍ* حتّى يِصبح العقل سيّدًا على إمبراطوريّة الحماقة. تتأذّى الحركاتُ التلقائيّة من جرّاء ذلك، فإذا هي تفقدُ، وقد كُبِحتْ، تلك اللهفةَ على إفساح المجال لاعوجاج شائن. تصبح الأعصابُ مسرحًا للتوتّر والارتعاش بَعِيدِ النّظَر. ويمتدُّ *الإحساسُ* أخيرًا إلى ما بعدَ ديمُومته الخام بفضل مهارة مُحترِفَيْن اثنين في تعذيب المتعة المُصْطَنَعة. *إنّه الفردُ وهو يخدعُ النوع*. إنّه الدم وقد بات أكثر فُتورًا من أن يستمرّ في تدويخ العقل. إنّه الدم وقد قامت الأفكار بتبريده وترقيقه. *الدم العقلانيّ*...

الغرائزُ وقد نهشتها المحادثة...

لم يتمخّض الحوارُ يومًا عن شيء هائل أو مُثِير أو «عظيم». لو لم تَتَسَلَّ البشريّةُ *بمناقشة* قُدراتها الخاصّة لما تجاوزت يومًا رؤية هومير ونماذجه. لكنّ الجدَلَ دمّرَ عفويّة ردود الأفعال ونضارةَ الأساطير، بعد أن اختَزَل البطل في نسخةٍ مهزوزة. لِأَخِيلاَتِ اليوم

أكثرُ من كَعْبٍ يخشونَه. . . الهشاشةُ التي كانت في السابق جزئيّةً وبلا عواقِبَ تُذكَر، أصبحت اليوم ماهيّةَ كلِّ مخلوق وامتيازَهُ اللعين. نفَذَ الوعيُ إلى كلّ مكان وأصبح يُقيم حتّى في النخاع. من ثمّ لم يعد الإنسان يعيش في الكينونة بل أصبح يعيش في **نظريّة** الكينونة. . .

لن يستطيع الشخص الواعي الذي يسيطر على أفعالِه ويفهم نفسَه ويشرحها ويبرّرها، أن يقوم بأيّ حركة جديرةٍ بالذكر. ***السيكولوجيا*** قبْرُ البطل. لقد أفلحت آلاف السنوات من الدين والاستدلال العقليّ في إضعاف العضلات والقرار والاندفاع المُغامِر. كيف يسعنا ألاّ نحتقر مشاريع المجد؟ ما من فعلٍ لا تتحكّم فيه لعنة الفكر المضيئة إلاّ وهو يمثّل أثرًا باقيًا من غباء الأسلاف. لم تُختَرَع الإيديولوجيات إلا لتُسبغَ بريقًا على المضمون الهمجيّ المستمرّ عبْرَ القرون، ولتخفي الميول القاتلة المشتركة بين البشر كافّة. نحن اليوم نقتُلُ باسم شيء مَا ولم نعد نجرؤ على القتل بشكلٍ عفويّ. حتّى إنّ الجلاّدين أنفسهم باتوا مُلزَمين بالاستناد إلى دوافع. ولمّا كانت البطولة قد عفّى عليها الزمن، فإنّ كلّ من يشعر بغواياتها يحلّ في الحقيقة مسألة أكثر ممّا يستكملُ تضحية. لقد تغلغل ***التجريدُ*** في الحياة وفي الموت، واستولت «العُقَدُ» على الصغار والكبار. ***من الإلياذة إلى السيكوباثولوجيا***، - لكن ذاكَ كلُّ طريقِ الإنسان. . .

الشّفَقُ في الحضارات المتقدّمة في السنّ علامةٌ على عقوبة

نبيلة. أيُّ إحساسٍ لذيذٍ بالسخرية يُفترض أن ينتابها وهي ترى نفسها تُقصَى من الصيرورة، بعد أن حدّدت طيلة قرونٍ قواعدَ السلطة ومعاييرَ الذوق! مع كلّ واحدةٍ منها ينطفئُ عالَمٌ بِأسْرِه. أحاسيسُ اليونانيّ الأخير والرومانيّ الأخير! كيف يسعنا ألاَّ نقع في حبّ مشاهد الغروب الكبرى؟ فتنةُ الاحتضار التي تحيط بحضارةٍ ما، بعدَ أن كانت قد تناولت كلّ المسائل وأبدعت في تشويهها، تملك من المغريات أكثر ممّا للجهل المختوم الذي انطلقت منه.

تمثّلُ كلُّ حضارةٍ إجابةً على الاستفهامات التي يطرحها الكون، لكنّ اللغز يظلّ كاملاً، - فتأتي حضارات أخرى بضروب جديدة من الفضول لتتجاسر عليه، بنفس اللاجدوَى، بما أنّ كُلاًّ منها ليس سوى ***نسَقٍ من الأخطاء***...

نُنجِبُ قِيمًا في لحظات الأوج، لنلغيها في لحظات الأفول، وقد بلِيَت وانهزمت. فتنة الانحطاط - مراحل تصبح فيها الحقائق بلا حياة... وتتكدّس مثل الهياكل العظميّة في الروح المشغولة الجافّة، في مَعْظَمَةِ الأحلام...

كم يعزّ عليّ فيلسوفُ الإسكندريّة ذاك المُسمّى أولمبيوس، الذي ما إن سمع صوتًا ينشد هلّلويا في السيرابيوم[1]، حتى هاجَرَ

---

(١) السيرابيوم Sérapéon: معبد بمدينة الإسكندريّة مُخصّص لإله الوحدانيّة سيرابيس.

إلى الأبد. حدَثَ ذلك في أواخر القرن الرابع: كانت حماقةُ الصليب الجنائزيّة قد شرعت بعدُ في إلقاء ظلالها على الفكر.

قريبًا من ذلك العصر كان في وسع نحْوِيٍّ يُدعَى بالاداس أن يكتب: «لم نعد نحن اليونانيّين سوى رماد. وقد وُورِيَتْ آمالُنا التراب تمامًا كآمال الموتى.» وكان ذلك صحيحًا بالنسبة إلى كلّ عقول ذلك الزمان.

عبثًا استماتَ أمثالُ سيلسوس وفرفوريوس الصوريّ ويوليان المرتدّ[١] في التصدِّي لِغَزْوِ هذا الجليل السديميّ الذي تطفح به الدياميس. لقد حفَرَ الرُّسُلُ سِماتِهم في الأرواح وأمعنوا في تخريب المُدُن. هو ذا عصر القُبْحِ الكبيرِ يبدأ: هيستيريا لا توصَف تُغطّي العالم. لقد قام القدّيس بولس[٢] – أعظم داعيةٍ انتخابيّ في

(١) سيلسوس Celse (القرن الثاني): الفيلسوف اليونانيّ الذي كان من كبار خصوم المسيحيّة. فرفوريوس Porphyre (٢٣٤-٣٠٥): تلميذ أفلوطين وصاحب الكتاب المعروف «ضدّ المسيحيّين». يوليان المرتدّ Julien l'apostat (٣٣١-٣٦٣): سمّي قيصرًا لمدّة عشرين شهرًا وحاول إعادة رما إلى تعدّد الآلهة تصدّيًا للمسيحيّة.

(٢) القديس بولس أو بولس الرسول Saint Paul: أهمّ قادة الجيل المسيحيّ الأوّل.

التاريخ - بجولاتِه، مُجتاحًا برُسُلِه الضَّوْءَ الشفقيّ القديم. مصروعٌ ينتصر على خمسة قرون من الفلسفة! العقل محجوزًا لدى آباء الكنيسة!

وإنّي لَأبحثُ عن التاريخ الأكثر إذلالاً لكبرياء العقل، وأتصفّحُ جدْوَلَ سورات التعصّب، فلا أجدُ شيئًا يُقارَنُ بسنة ٥٢٩، تلك التي أُغلِقَت فيها مدرسةُ أثينا تبعًا لأمْرٍ من جستينيان[١]. أُلغِيَ الحقُّ في الانحطاط رسْميًّا فأصبح ***الإيمان*** فريضة... إنّها اللحظة الأكثر إيلامًا في تاريخ الشكّ.

ما من موردٍ آخر غير إرادة التفتّت للشعب الذي يخلو دَمُهُ من كلّ حكم مُسبق. إنّه يودّع الأهواء والإسراف الغنائيّ والعاطفيّةَ والعماية، مُحاكيًا الموسيقى، تلك المادّة التي تُعلّم الذوبان. لن يستطيع بعدَ الآن أن يعبد دون سخرية: ***الإحساس بالمسافات*** سيغدو نصيبَهُ إلى الأبد.

الحُكمُ المسبق حقيقةٌ عضويّةٌ كاذبةٌ في ذاتِها لكنّها مُتَناقَلةٌ ومُراكَمَةٌ عبْر الأجيال: لا يسعنا التخلُّص منها دُونَ عواقب. الشعبُ الذي يتخلّى عن أحكامه المسبقة دون تردّد، يُنكِرُ نفسَهُ تِباعًا إلى حينِ لا يجد شيئًا آخر يُنكره. تتطابقُ ديمومةُ مجموعةٍ ما ومتانتُها مع ديمومة أحكامها المسبقة ومتانتِها. الشعوبُ الشرقيّة

(١) جستينيان Justinien: الإمبراطور الرومانيّ الشرقيّ (بيزنطة) الذي اعتبرته الكنيسة قدّيسًا.

مدينةٌ بدوامها لوفائها لذاتها. لم تتطوّر من ثمّ لم تخن نفسَها. وهي لم تعش، بمعنى أنّ الحياة من تصوُّر الحضارات ذات الإيقاع السريع، تلك الوحيدة التي يعنى بها التاريخ. لأنّ التاريخ كمادّةٍ لتباشير الفجر والاحتضارات اللاهثة، روايةٌ تتطلّع إلى الصرامة وتستمدّ موضوعها من محفوظات الدم...

الإسكندرانيّة[1] فترةُ إنكارٍ عالِم. أسلوبٌ من أساليب اللامنفعيّة والرفض. جولةٌ من العلم الواسع والتهكّم عَبْرَ الخلطِ بين القِيَم والمعتقدات. ربّما كان فضاؤها المثاليُّ مساحةَ التقاطع بين ثيمة هيلاس[2] وباريس سابقًا، حيث مُلتَقى الأغورا والصالون. تتطوّر الحضارةُ من الفلاحة إلى المُفارَقَة. داخِلَ هذين الحدّين تدور المعركة بين الهمجيّة والعُصاب. تلك التي ينتج عنها التوازن غير المستقرّ للمراحل الخلاّقة. هذه المعركة تقترب من نهايتها: تنفتح الآفاق كلُّها دون أن يتمكّن أيٌّ منها من إثارةِ ذلك الفُضول المنهكَ المتحفّزَ في آن. عندئذ على الفرد العائد من الضلال أن يترعرع في الفراغ. على مصّاص الدماء الفكريّ أن يرتوي من دم الحضارات الفاسد.

هل نحمل التاريخ على محمل الجدّ أم نقف منه موقف

---

(١) الإسكندرانيّة: المدرسة الفكرية والأدبية التي امتدّ تأثيرها، تقريبًا، من القرن الثاللث قبل الميلاد إلى القرن الثالث بعد الميلاد.

(٢) ثيمة هيلاس le thème d'hellade: منطقة تمتدّ من وسط اليونان إلى شبه جزيرة البيلوبونيز.

المتفرّجين؟ هل نرى فيه جهدًا في اتّجاه غايةٍ مَا أم عُرسًا لضَوْءٍ يتأجّج ثمّ يخبو دونما ضرورةٍ أو سبب؟ تتوقّف الإجابة على درجة الوهم الذي نحمله تُجاه الإنسان، وعلى الفضول الذي يدفعنا إلى التكهّن بالطريقة التي ينحلّ بها هذا الخليطُ من الفَالْس والمذبَح، الذي يُكوّن صيرورتَهُ ويُحفّزها.

ثـمّـةَ مـرضُ الـ Weltschmerz[1]، ألـم الـقـرن الـذي لا يـمـثّـل سوى مرضِ جِيل. وثمّة مرضٌ آخر يتصاعدُ من التجربة التاريخيّة كلّها ويفرض نفسه نتيجةً وحيدةً للأزمنة المُقبلة. إنّه «الكآبة»، سُويداءُ «نهاية العالم». يتغيّر مظهور كلّ شيء، حتى الشمس. يهرم كلّ شيء، حتّى الشقاء...

لقد بتنا، وقد عجزنا عن البلاغة، رومنطيقيّي الخيبة الواضحة. لو أنّ فيرتر ومانفريد وروني عرفوا اليومَ عِلَّتَهم، لكشفوا عنها بلا أُبّهة. البيولوجيا، الفيزيولوجيا، السيكولوجيا، - تسميات مُضحكة تُلغي السذاجةَ من يأسنا وتُقحمُ التحليل في أناشيدنا، فتجعلنا نحتقر الإنشاد. مرّت مراراتنا العلميّة من خلال البُحوث فإذا هي تشرح معرّاتنا وترتّب نزواتنا.

هل نحتفظُ بفضْلَةٍ من الانفعال والحماس للتأمّل في خراب

---

(١) ألم العالم Weltschmerz: عبارة أطلقها الشاعر الألمانيّ جان بول Jean Paul (١٧٦٣-١٨٢٥)، تعبيرًا عن الإحساس الذي ينتاب الشخص حين يقتنع بأنّ الواقع الفيزيائيّ لا يُشبع رغبات العقل.

الكينونة والشعر، يومَ يتمكّن الوعي من الإشراف على كلّ أسرارنا ويتمُّ إجلاءُ آخر أثرٍ للغموض من شقائنا؟

الإحساسُ بثِقَل التاريخ. عبْءُ الصيرورة. وذلك الإرهاق التي يرزح تحته الوعي حين يلاحظ مجمُوعَ الأحداث الغابرة والمُمكنة، ولا جدْواها... يبحث الحنينُ عبثًا عن اندفاعةٍ تجهل الدروسَ المتصاعدة من كلّ ما كان: ثمّةَ مَللٌ يرى في المستقبل نفسِهِ مقبرة. مقبرة افتراضيّة مثل كُلِّ ما ينتظرُ أن يكون. ثقُلَت القرون وأصبحت تُرهِقُ اللحظة. - نحن أكثر تعفُّنًا من كلّ العصور. أكثر تحلُّلاً من كلّ الإمبراطوريّات. نُضوبُنا يُمَثِّلُ التاريخ، ولُهاثُنا يُتيح لنا سماعَ حشرجة الأُمم. ها نحنُ مُمثّلون احتضاريّون، نستعدّ للعب أدوار الحشو في الزمن المطروق: قَرَضَ العثُّ ستارة الكون، فما عدنا نرى من خلال ثقوبها سوى أقنعة وأشباح...

غَلَطُ الذين يدركون الانحطاط أنّهم يرغبون في مقاومته في حين ينبغي تشجيعه: هو ينفَدُ ويسمح بظهور أشكالٍ أخرى عندما يتطوّر. ليس المُبَشِّرُ الحقيقيُّ من يقترح نظامًا حينَ لا يرغب فيه أحد، بل هو من يُعجّلُ الفوضى ويكون عامِلَهَا وحامِل مِبْخَرَتِها. إنّ من الابتذال الدعوةُ إلى العقائد في عُصورٍ خارت قُواهَا، وبدا فيها كلُّ حلمٍ بالمستقبل هذيانًا أو دجَلاً. التقدّمُ إلى نهاية التاريخ بزهرة في العروة. - الزيّ الوحيد اللائق في جريان الزمن. كم هو مؤسف ألاّ يُوجد يومُ حشر وألاّ نُمْنَحَ فرصةً لِتحَدٍّ كبير! المؤمنون:

ممثّلو الأبديّة الفاشلون. الإيمان: حاجةٌ إلى خشبةٍ مسرحيّة لاَزَمنيّة... أمّا نحن غير المؤمنين، فإنّنا نموت مع ديكوراتنا، وأعياء أكثر من أن ننخدع بالأُبّهة التي وُعِدَتْ بها جُثَثُنا...

«الألوهيّة تسبق الإله» حسب المعلّم إيكارت[1]، وهي ماهيّته وغَوْرُه الذي لا يُسْبَر. هل من شيء يمكنُ أن نعثر عليه في قرارة الإنسان، ويحدّد مادّتَه في مواجهة الجوهر الإلهيّ؟ إنّه الوهنُ العصبيّ[2]، من ثمّ هو يقوم لدى الإنسان مقامَ الألوهيّة لدى الإله.

نعيش في مناخٍ من الإنهاك. فعلُ الإبداع والنحت والصُّنْع أقلُّ دلالةً في ذاتِه من الفراغ أو السقوط الذي يليه. بالنسبة إلى جهودنا الباطلةِ بالضرورة، يقع الرصيد الإلهيّ خارج حقل مفاهيمنا وأحاسيسنا. - وُلِد الإنسان منذورًا للتعب: ما إن تبنَّي الوضْع العموديَّ مُقلّصًا هكذا من إمكانيّات الارتكاز، حتى حكم على نفسه بضروبٍ من الضعف يجهلها الحيوانُ الذي كان. أن يحمل على قدمَيْنِ كلّ هذه الموادّ وكلّ القرف المتّصل بها! راكمت الأجيال هذا التعب وتناقلته. ترك لنا آباؤنا ميراثًا من الأنيميا، مُؤَنًا من الإحباط، موارد للانحلال وطاقةً للموت، ما انفكّت

---

(١) المعلّم إيكارت Maitre Eckhart (١٢٦٠-١٣٢٨): الفيلسوف واللاهوتيّ الدومينيكاني المعروف، والمؤثّر. عمل طويلاً في فرنسا واتُّهمته الكنيسة بالهرطقة فألّف كتابًا يتراجع فيه مُقدّمًا عن كلّ ما ترفضه الكنيسة، إلاّ أنّه توفّي قبل صدور الحكم.

(٢) الوهن العصبيّ neurasthénie: مرضٌ نفسانيّ مصحوب بأعراض جسديّة.

تصبح أقوى لدينا من غرائز الحياة. وهكذا يسمح لنا تعوُّدُنا على الزوال، المستندُ إلى رأسِ مالِنَا من الملل، بأن نُحقِّق وهَنَنا العصبيّ، - جوهرَنا - في اللحم المنتشر...

ليس من حاجةٍ إلى أن نؤمن بحقيقة لنساندها، ولا إلى أن نحبّ عصرًا لنبرّره، ما دام كلُّ حدثٍ شرعيًّا وكلُّ مبدأ قابلاً للإثبات. بإمكان مجموع الظواهر- ثمار الفكر والزمن على السواء - أن يُعتَنَقَ أو يُرفَضَ وفق مزاجنا في ذات اللحظة. الحججُ الصادرةُ عن صرامتنا أو نزواتنا متساويةٌ في كلّ شيء. ليس من شيء يتعذْرُ الدفاعُ عنه - بدايةً من الاقتراح الأكثر خورًا وصولاً إلى الجريمة الأكثر فظاعة. يدور تاريخ الأفكار شأنه في ذلك شأن تاريخ الوقائع، في مناخٍ لا معقول: من ذا الذي يسعه أن يعثر فيه على حَكَمٍ قادرٍ على الحسم في خصومات هذه الغوريلاّت الدمويّة أو المُصابة بفقر الدم؟ هذه الأرض مكانٌ يمكننا أن نؤكّد فيه كلّ شيء بنفسِ الاحتماليّة: البداهاتُ فيها قابلةٌ للتبادُل مع الهذيانات. الاندفاعاتُ تلْتبسُ فيها بالانهيارات. النّبالاتُ والسفالاتُ ترجع فيها إلى نفس الحركة. ليس لمُحامِي الجحيم صُكُوكٌ بالحقيقة أكثر ممّا لمُحامِي الأرض. أرُونِي *حالةً* واحدة لا تشوبُها شائبة، وسأدافع عن قضايا الحكيم والمجنون بالحماسة نفسِها. يُصيبُ الزمنُ بالفساد كُلَّ ما يَظهَرُ ويَعمَل. ما إن تخرج فكرة أو واقعةٌ إلى الرّاهِنيّةِ حتى تتّخذ لها هيئةً وتتدهور. هكذا ما إن ارتجّ تُرابُ المخلوقات العضويُّ حتّى تفّرع عنه التاريخ، ومعه الرغبة الوحيدة

النقيّة التي أوحى بها: أن ينتهي بطريقة أو بأخرى. لقد نضجنا أكثر من أن ننتظر فجرًا آخر، وفهمنا من القرون أكثر من أن نرغب في الجديد منها، فلم يبق أمامنا إلاّ أن نتمرّغ في نفاية الحضارات. لم تعد مسيرة التاريخ تغري غير المُرْدِ والمتعصّبين.

نحن الهرِمُونَ الكبار، الرازحون تحت ثِقَلِ الأحلام القديمة، العاجزون أبدًا عن اليوتوبيا، تقنِيُّو المَلل، حَفّارُو قبر المُستقبل، المرعوبون من تجسيدات[1] العجوز آدم. لن تعرف شجرة الحياة المزيد من فصول الربيع. إنّها خشب جافٌّ، سنصنع منه توابيت لعظامنا وأحلامنا وآلامنا. لقد ورثَ لحمُنا رائحةَ عُفونةِ جِيَفٍ جميلةٍ مُوزّعةٍ على آلاف السنين، ووَقَعْنَا في سحر مجدِها حتى استنفدناها. في مقبرة الفكر ترقُدُ المبادئ والصِّيغ. تمّ تعريف الجمال فدُفِن فيها. شأنه في ذلك شأن **الحقيقيّ**، **والخير**، **والمعرفة**، **والآلهة**. كلّها تتفسّخ هناك. (التاريخ: الإطار الذي تتحلّل فيه الأحرُفُ الكبيرة، ومعها، أولئك الذين تصوّروها وتعلّقوا بها.)

أتجوّل هناك. تحت هذا الصليب تنام **الحقيقة** نومتها الأخيرة. إلى جانبها **الفتنة**. أبعد منها بقليل ترقد **الصرامة**. ومن فوق عددٍ هائلٍ من البلاطات التي تغطّي الهذيانات والفرضيّات، ينتصب ضريحُ **المُطلَق**، حيث تهجع العزاءات الكاذبة وذُرَى الروح المخادعة. إلاّ أنّ **الخطأ** يُحَوِّمُ في الأعلى، أعلى من ذلك كلِّه، مُوقِفًا خطوات السفسطائيّ الكئيب.

---

(١) هكذا فضّلنا ترجمة كلمة Avatars.

لمّا كانت كينونةُ الإنسان المغامرةَ الأهمّ والأغرب التي عرفتها الطبيعة، فإنّ ممّا لا مناص منه أن تكون الأقصر أيضًا. إنّ نهايتها مُتوَقَّعةٌ ومرغوبة. وسيكون من قلّة الحياء التمديدُ فيها إلى أجَلٍ غير مُحَدَّد. أمّا وقد انخرطَ الحيوانُ المفارِقُ في رهانات استثنائه، فإنّه سيستمرّ في لَعِبِ ورقَتِهِ الأخيرة طيلة قُرون وربّما طيلة ألفيّات. هل يجدر بنا التذمُّرُ من ذلك؟ الأكيدُ بداهةً أنّه لن يساوي أبدًا مشاهيرَ الماضي، فلا شيء يُنبئ بأنّ قدراتِه قد تُوجِدُ غدًا منافسًا لباخ أو شيكسبير. يكشف الانحطاطُ عن نفسه في الفنون أوّلاً، وتعيش «الحضارة» لبعض الوقت بعد تحلُّل فنونها. سيكون ذاك شأن الإنسان: سيستمرّ في إتيان مآثِره، إلاّ أنّ منابعه الروحانيّة ستكون قد نضبت، شأنها في ذلك شأن نضارة الإلهام لديه. لقد نال التعطُّش إلى القوّة والهيمنة من روحه أكثر ممّا ينبغي: ما إن يُصبح سيّدًا على كلّ شيء حتى يفقد السيادةَ على نهايته. أمّا وهو لم يملك بعد كلّ الوسائل الكفيلة بتدمير غيره وتدمير نفسِه، فإنّه لن يَهلكَ عاجِلاً. ولكنْ ليس من شكٍّ في أنّه سينحتُ أداةً للإبادة الشاملة قبل أن يكتشف ترياقًا، عِلْمًا بأنّ هذا الترياق لا يبدو مُدْرَجًا في إمكانات الطبيعة. سيُبيد نفسَهُ كمبدع. هل نستنتج من ذلك أنّ البشر سيختفون جميعُهم من على الأرض؟ يحسنُ بنا ألاّ نرى الأُمور على هذه الصورة الورديّة. عددٌ كبير من النّاجين، تلك الفصيلة من البشَرِ الأدنَى المتهرّبين من القيامة، سيجرجرون أقدامهم عليها...

ليس في مستطاع الإنسان ألاّ يهلك. غريزةُ الغزو والتحليل

لديه توسّع إمبراطوريّته كي تقوم فيما بعد بإذابةِ ما يُوجَدُ فيها. كلُّ ما يُضيفهُ إلى الحياة ينقلبُ عليها. إنّه عبدُ مخلوقاته، وباعتباره خلاّقًا، هو من من ثمَّ عامِلُ شرّ. يصحّ ذلك في شأن العامل اليدويّ كما يصحّ في شأن العالِم - وبِشكلٍ مُطلقٍ - في شأن أصغر حشرة كما في شأن الإله. كان في وسع البشريّة أن تُقيم في الركود وأن تُطيلَ ديمومتها لو أنّها لم تتكوّن إلاّ من القُساةِ والشكّاكين. إلاّ أنّها شُغِفت بالفعاليّة فعمدت إلى النهوض بهذا الحشد اللاهث والإيجابيّ، المنذور للخراب بسبب الإفراط في الجهد والفضول. لقد اشتدّ نهمها إلى غُبارها فمهدّت لنهايتها وما انفكّت تمهّد لها كُلَّ يوم. هكذا لم تعد تدَّخرُ لأبنائها وقد باتت أقرب إلى الخاتمة منها إلى البدايات، إلاّ الاندفاعَ الخائِبَ أمام القيامة.

يسهل على الخيال أن يتصوّر مُستقبَلاً يهتف فيه البشر بصوتٍ واحد: «نحنُ الأخيرون: تعِبْنَا من المُستَقْبل وتعِبْنَا من أَنْفُسِنا أكثر. امتصصنا عُصارةَ الأرض ونهَبْنا السماوات. لا المادّة ولا الفكر يستطيعان الاستمرار في تغذية أحلامنا. أصبح هذا الكون في جفاف قلوبنا. ما مِنْ مادّةٍ جوهَريّةٍ في أيّ مكان. أورَثَنا أسلافُنا أرواحَهم الرثَّة ونُخاعَهُم المُسَوَّس. انتهت المغامرة. انقضَى وعيُنا وتلاشت أناشيدُنا. هي ذي شمسُ المُحتضِرين تسطع!»

لو تتبدّدت الكلماتُ بفِعْل صدفة أو معجزة لَوَقَعْنَا في قلقٍ وذهول لا يُطاقان. ولَعَرَّضَنا هذا الصمتُ المفاجئ إلى أشدّ أنواع

العذاب. إنّ استخدامَ المفهوم هو الذي يجعلنا سادةَ مخاوِفِنا. نقول: **الموت** - فإذَا التجريدُ يعفينا من الإحساس بلاَ تَناهِي الموت وبشاعتِه. نُسَمِّي الأشياء والوقائع فنتحاشَى ما لا يُمكِنُ شَرْحُه. نشاطُ الفكرِ خِداعٌ مُخَلِّص. تمرينٌ على الإخفاء. يسمح لنا بالجولان في واقعٍ مُلَطِّفٍ مُريحٍ وغيرِ صحيح. أن نتعلّم مُعالجةَ المفاهيم - يعني أن ننسى النظرَ إلى الأشياء... وُلِدَ التفكيرُ في يوم انفلات. عن ذلك نتجت خِدْمةُ دَفْنِ الألفاظ[١]. إلاّ أنّنا ما إن نعود إلى الذات وما إن نكون لِوَحدنا - من دون صُحبة الكلمات - حتى نعيد اكتشاف الكون غيرِ الموصوف، الشيء النقيّ، الواقعة العارية. من أين نأتي بالجرأة على مواجهتها؟ نكفّ عندئذ عن التنظير بخصوص الموت، **فنحن الموت**. وعوضًا عن أن نزيّن الحياةَ ونُعَيِّنَ لها أهدافًا، فإنّنا ننزع عنها زينتها ونردّها إلى دلالتها المُجرّدة: ***كناية عن الشرّ***. تتجرّد الكلماتُ الكبيرة - قدر، شقاء، نكبة - من بريقها. عندئذ نرى المخلوق وهو يصارع أعضاء خائرة وينهزمُ أمام مادّةٍ واهنةٍ منذهلة. اِسحَبُوا من البشر أكذوبَةَ **الشقاء**، امنحوه القدرة على النظر إلى ما فوق هذا اللفظ، ولن يستطيع أن يتحمّل **شقاءه** للحظة. إنّ التجريدَ والبُعدَ الصوتيّ الخالي من المضمون، وقد تورّما وبُدِّدَا، هما اللذان منعاه من الهلاك وليس الأديان أو الغرائز.

---

(١) استخدم سيوران عبارة pompe verbale. وترجمتها الأقرب «المضخّة اللفظيّة». إلاّ أنّنا قرأناها في ضوء حديثه عن مقابر الكلمات، ففضّلنا ترجمتها قريبا من عبارة pompes funèbres.

أُطْرِدَ آدم من الفردوس، وعوضًا عن أن يوبِّخ مُضْطَهِدهُ فإنّه سارع إلى تسمية الأشياء. كانت تلك الطريقة الوحيدة للتكيّف معها ونسيانِها. - هكذا وُضِعَت قواعدُ المثاليّة. فإذَا ما لم يكن سوى حركة وردّ فعل دفاعيّ لدى المتلعثم الأوّل، يُصبح نظريّةً لدى أفلاطون وكانط وهيغل.

لا نرغب في إطالة التوقّف عند حادثتنا، فنُحوّل كلّ شيء إلى كيان، حتى اسمنا: كيف نموت إذا كنّا نسمَّى بيار أو بُول؟ ينشغل كلّ منّا بالمظهر الثابت لاسمه أكثر ممّا ينشغل بهشاشة كيانه، فيستسلم لِوَهْمِ الخلود. لو تلاشى اللفظ لأصبحنا وحيدين تمامًا. الصوفيّ الذي يعتنق الصمت هو شخصٌ تخلّى عن شرطه كمخلوق. لنتخيّله إضافةً إلى ذلك بلا إيمان - صوفيًّا عَدَمِيًّا - وسنقف على التتويج الكارثيّ للمغامرة الأرضيّة.

إنّ من الطبيعيّ جدًّا أن نفكّر في أنّ الإنسان، وقد ملَّ الكلمات وأعياه تكرار الأزمنة، سيعمد إلى تجريد الأشياء من أسمائها، وإلقاء تلك الأسماء ومعها اسمه في محرقة كبرى تغرق فيها آمالُه. نحن نجري كلّنا نحو هذا النموذج النهائي، نحو الإنسان الصامت العاري...

أشعر بسِنّ الحياة، بشيخوختها وهَرَمِها. منذ عُصورٍ لا تُحصَى وهي تتدحرج على سطح الكوكب بفضل مُعجزةِ الخُلود المغشوش المتمثّل في الجُمود. وها هي تُطيل المقام في رُومَاتِزْمَاتِ الزمن.

هذا القديم أكثر منها، والذي خارت قواه بفعل هذيانٍ خرف، ولحظاتٍ مُجتَرّة، وديمومةٍ مهذار.

وها أنا أشعر بثِقَل النوع وقد تحمّلتُ مسؤولية عزلته الكاملة. هَلاَّ اندَثَر! - ولكنّ احتضاره يمتدّ في اتّجاه أبديّةٍ من التعفُّن. أتركُ لكلِّ لحظةٍ الحريّةَ في تدميري: أيُّ نذالةٍ في أن نتنفّس دون أن نخجل! لا ميثاق مع الحياة بعدُ ولا ميثاق مع الموت: نسيتُ ما تعلّمتُ كي أكون وها أنا أقبلُ بأن أمَّحي. الصيرورةُ: يا لها من جناية!

كفَّ الهواء عن التجدّد بعد مروره بالرئتين. أصبح كلّ يوم يقيءُ غدَهُ، وبتُّ أجهد عبثًا لتخيُّل صورةِ رغبةٍ واحدة. ما من شيء إلاّ وهو على حسابي: وها أنا أجُرُّ الكواكبَ مُرهَقًا مثل دابّة شُدَّت إليها المادّة.

امنحُونِي كوْنًا آخر وإلاّ هَلَكْت.

لا أحبّ في الأشياء إلاّ انبثاقها وانهيارها. النّارَ التي تبعثها وتلتهمُها. تُسخِطني ديمومة العالَم ويفتنني مولِدُه واضمحلاله. العيش تحت فتنة الشمس العذريّة والشمس الهرِمة. تجاوُز نبضات الزمن للإمساك بالبدْئيّ منها والنهائيّ. الحُلم بارتجال النجوم وإسْلاسِها. احتقار رتابةِ الكينونة والانقضاض على الهُوّتين اللتين تتربّصان بها: النضوب في بداية اللحظات أو في خاتمتها...

... هكذا نكتشف في ذاتنا **المتوحّش** و**المنحطّ** في تعايشهما المُقَدَّر والمتناقض: شخصيّتان تتعرّضان لجاذبيّة ***العبور*** نفسها:

هذا من العدم إلى العالم والآخر من العالم إلى العدم. إنّها الحاجة إلى اختلاج مزدوج ***على المستوى الميتافيزيقيّ***. أمّا على مستوى التاريخ فإنّ هذه الحاجة تترجم عن نفسها من خلال الهوَسِ **بالآدم** الذي أطرده الفردوس وذاك الذي ستطرده الأرض: الطرفان المتقابلان ***لاستحالة*** الإنسان.

نحن عُرضةٌ لكلّ الأمراض بسبب ما هو «عميق» فينا: ما من خلاصٍ ما دُمنا نحتفظ بتطابُقِنا مع كياننا. ثمّةَ ***شيءٌ مَا*** يجب أن يختفي من تَركيبِنا، وثمّة منبعٌ مُهْلِكٌ يجب أن ينضب. من ثمّ لا وجود إلاّ لمنفذٍ واحد: ***إلغاء الروح*** بطموحاتها وهُوِيِّها. لقد سَمَّمت أحلامَنا ولابدّ من استئصالِها هي وحاجتها إلى «العمق» وخصوبتها «الباطنيّة» وضلالاتها الأخرى. الفكر والإحساس سيكفياننا. من اتّفاقِهما ستنشأ طريقةٌ للعُقْم تحفَظُنا من الحماسات والقلق. فلْيكُفَّ «الإحساسُ» عن تكديرنا ثانيةً ولْتُصبِح «الروح» أكثر الخردوات إثارةً للسخرية. . .

القداسة
وتكشيرات المُطلق

«الحقّ أقول، يبدو لي أنّ الشياطين
تلعب بروحي كما تلعب بكرة»

تيريزا الأفيلاويّة

رَفْضُ الإنجاب

---------------- الشخصُ الذي يستنفد شهواته فيقترب من التجرُّد في شكله الحدّيٍّ هو شخصٌ لم يعد راغبًا في حِفْظِ نوعه. إنّه يكره أن يعيش بعد موتهِ في شخصٍ آخرَ، فضْلاً عن أنه لم يعد يملك ما ينقُلُ لذلك الشخص. النوعُ يُفزعه. إنّه غُول - والغِيلانُ لم تعد تُنجب. إلاّ أنّه ما زال «أسير» الحُبّ، ذلك الانحراف الذي يظهر وسط الأفكار. وهو يبحث فيه عن مبرّر للعودة إلى الشرط المُشترك. لكنّ *الطفلَ* يبدو له غير معقول، شأنه في ذلك شأن الأسرة والوراثة وقوانين الطبيعة. هكذا يمكنه وقد تخلّى عن المهنة والذريّة أن يُنجز نهايتَه - آخِرَ الأقانيم. إلاّ أنّ لكلِّ غُولٍ مهما ابتعد عن الخصوبة، غُولاً آخر أجرأ منه ويتجاوزه: إنّه القدّيس - نموذج فاتن ومُقرِف في الوقت نفسه، نقف منه دائمًا عند منتصف المسافة، موقفًا مُخاتِلاً. بينما موقفه هو واضح: لا مجال للمزيد من اللعب. لا مزيد من الولع بالفنون. لقد اتّخذ من عدَمِهِ دارةَ مَجْدٍ بعد أن بلغ القمم الذهبيّة لقَرَفِه، في أبعد نقطة عن

الإبداع. لم تعرف الطبيعة كارثةً مثلَه: هُو فيما يتعلَّقُ بِحِفْظِ النّوع علامةٌ على نهايةٍ مُطلَقة وخاتمةٍ جذريّة. أن نَحزنَ مثل ليون بْلُوَا[١] لأنّنا لسنا قدّيسين، يعني أن نرغب في اندثار البشريّة... ***بِاسْم الإيمان!*** كم يبدو الشيطانُ في المُقابلِ إيجابيًّا، بما أنّه يخونُ ماهيّته ويعملُ على حفظِنا رغمًا عنه، وقد ألزم نفسَه بتثبيتنا في عيوبنا! اجتثُّوا الخطايا: تذبل الحياة فجأة. سيختفي جنونُ الإنجابِ يومًا - بسبب الملل لا بسبب القداسة. سينفَدُ الإنسانُ بسبب نزوعه إلى الكمال لا بسبب تبذيره لنفسه. سيُشبه عندئذ قِدِّيسًا أجوف، وسيكون في بُعدِه عن خصوبة الطبيعة مُساوِيًا لنموذج الإنهاء والعُقمِ ذاك.

لا يُنجِبُ الإنسانُ إلاّ متى ظلّ وفيًّا للمصير العامّ. ما إن يقترب من ماهيّة الشرِّير أو الملاك حتى يُصبح عقيمًا أو ينجب سقائط. بالنسبة إلى راسكولنيكوف وإيفان كارامازوف وستافروغين، لم يعد الحبّ سوى ذريعة للتعجيل بهلاكهم. وهي ذريعةٌ تتلاشى بالنسبة إلى كيريلوف الذي بات يتبارى مع الإله لا مع البشر. أمّا بالنسبة إلى الأبله أو بالنسبة إلى إ[٢]ليوشا، فأن يُقلّد

---

(١) ليون بلوا Léon Bloy (١٨٤٦-١٩١٧): الكاتب الفرنسي ذو النزعة الدينيّة. صاحب رواية «اليائس».

(٢) أبطال روايات دوستويفسكي: راسكولنيكوف: «الجريمة والعقاب». إيفان وإليوشا: «الإخوة كارامازوف». ستافروغين وكيريلوف: «الشياطين». الأبله رواية بالعنوان نفسِه.

أحدهما يسوعًا والآخر الملائكة، أمرٌ يضعُهما فورًا في جملة العاجزين. . .

لكنّ الانفصالَ عن سلسلة المخلوقات ورفضَ فكرة السَّلَف أو الخَلَف، لا تعنيان بالضرورة مُنافَسَة القدّيس، الذي يتجاوز غرورُه كلَّ بُعدٍ أرضِيّ. وذلك لأنّ فورانًا شيطانيًّا يختفي تحت القرار الذي يجعلنا نتخلّى عن كلّ شيء وتحت مأثرة ذلك التواضع الباهرة: في نقطة البدء، يتّخذ انطلاقُ القداسة هيئة تحدٍّ مرفوع في وجه النوع البشريّ. - بعدَ ذلك يتدرّج القدّيسُ في سُلّم الكمال، يشرع في الكلام على الحبّ والإله، يلتفت ناحيةَ عامّة النّاس، يُثير فُضول الحشود - ويُزعِجُنا. كلّ ذلك لا يمنع أنّه تحدّانا. . .

كرْهُ النوع وكرْهُ «عبقريَّتِه» ينسبانك إلى القتَلة والمعتوهين والمعبودات، وإلى كلّ ذوي العُقْم الكبار. انطلاقًا من درجة مُعيّنة من العزلة، ينبغي الإمساكُ عن الحبّ وعن اقترافِ دناسةِ التزاوُج الفاتنة. الشخص الذي يصرُّ على تأبيد نفسِه مهما كان الثمن لا يختلف عن الكلب إلاّ قليلاً. إنّه لا يبرح ***حالتَهُ البدائيّة***. وهو لن يفهم أبدًا أنّ من الممكن الخضوع لسلطان الغرائز والتمرّد عليها، وأنّ من الممكن الاستمتاع بمزايا النوع واحتقارها: نهاية سلالةٍ ***ذات شهوات***. . . ذاكَ صِراعُ من يعشقُ المرأة ويمقتُها، وهو في أشدّ الحيرة أمام ما ينبعث منها من جاذبيّة وإثارةٍ للقرف. من ثمّ تراه، وقد عجز عن التخلّي نهائيًّا عن النوع، يحلّ ذلك الصراع عن طريق الحلم بالصحراء، وهو على نهدين، مازجًا رائحة ديرٍ

بعُفونة عرقٍ ملموسٍ أكثر ممّا يجب. كَذِبُ اللحم يقتربُ بنا من القدّيسين. . .

عُزْلةُ الكراهية. . . إحساسُ إلهٍ منصرفٍ إلى التدمير يدوس الكواكب ويُزْبِدُ على زرقة السماء وعلى الكوكبات. . . إله مسعور وسخ وفاسد - صناعة أكوانٍ تقذفُ في رحابة الفضاء بالفراديس والمراحيض. كوسموجونيا الهذيان الارتعاشيّ. الذروة الاختلاجيّة التي يتوّج فيها الحقدُ العناصر. . . يندفع الخلاّقُون إلى نموذج أصليّ للقبح ويتحسّرون على مثَلٍ أعلى للدمامة. . . كونُ التكشيرة. ابتهاجُ الخُلْد والضبع والقملة. . . ما مِنْ أُفُقٍ إلاّ أمام الغِيلان والحُثالة. كلُّ شيء يمضي في اتّجاه البشاعة والغنغرينا: هذا الكوكبُ الذي يتقيّح بينما الأحياء يفرشون جراحهم تحت أشعّة سرطان الأشجار المضيء. . .

الذوّاقةُ كاتِبُ سِيَر القدّيسين

--------------- ليس من علامات البرَكة أن يكون المرء مهووسًا بوُجود القدّيسين. يمتزج هذا الهوسُ بميل إلى الأمراض وبنهمٍ إلى الانحطاط. لا نهتمّ بالقدّيسين إلاّ حين يخيب أمَلُنا في المفارقات *الأرضيّة*. عندئذ نبحث عن مفارقات أخرى أغرب في مضمونها ومضمّخة بروائح وحقائق مجهولة. طامعين في

جنون لا نعثر عليه في رعشاتنا اليوميّة. جنون مثقل بنوع من الإكزوتيزم السماويّ. - هكذا نصطدم بالقدّيسين، بملاحمهم ومجازفتهم وعالَمِهم. مشهد غريب! نعقد العزم على أن نظلّ مشدودين إليه طيلة حياتنا، وأن ندقّق فيه النظر بتفانٍ ممتع، وأن نتملّص من كلّ الغوايات الأخرى، لأنّنا وجدنا أخيرًا الغواية الحقيقيّة الخارقة. هوذا الذوّاقةُ وقد أصبح كاتِبَ سِيَر قِدّيسين وانصرَفَ إلى حَجٍّ عالِم... إنّه ينخرط في ذلك دون أن يشكّ لحظةً في أنّه ليس سوى جولة، وأنّ كلّ شيء مُخَيِّبٌ في هذا العالم، حتى القداسة...

مُرِيدُ القدّيسات

--------------------- في زمنٍ سابقٍ كان مُجَرّدُ النطق باسم إحدى القدّيسات يُشبعني متعة، وكنت أحسد مُحَرِّري أخبار الأديرة، القريبين من كلّ تلك الهيستيريا التي تفوقُ الوصف ومن كلّ ذلك الإشراق والشحوب. أن تكون سكرتيرَ قِدّيسةٍ كان يمثّل في نظري أرقى مهنةٍ مُخصّصة للفانِين. وكنتُ أتخيّلُ من ثمَّ دَوْرَ كاهن الاعتراف بالقرب من تلك المُتَّقِدات المُطَوَّبات، وكُلّ التفاصيل والأسرار التي أخفاها عنّا أمثالُ بيار دالفاسترا بخصوص القدّيسة بريجيت، وهنري دو هال بخصوص ماتيلد دو ماغدبورغ،

وريموند دو كابْوَا بخصوص كاترين دو سيان، والأخ أرنولد بخصوص أنجيل دو فولينيو، ويوهان دو مارينفيردر بخصوص دوروتي دو مونتو، وبرينتانو بخصوص كاترين إميريش[١]... كان يبدو لي أن ديوداتا ديغلي أديماري أو ديانا داندولو[٢] لم ترتفعا

---

(١) بريجيت السويديّة Sainte Brigitte de Suède (١٣٠٢-١٣٧٣): أسّست الرهبنة البريجيتيّة، وكان بيار دالفاسترا Pierre d'Alvastra أحد مُعلّميها، وكاهن الاعتراف الخاصّ بها بين الحين والاخر، كما قام بترجمة دروسها إلى اللاتينيّة. ماتيلد دو ماغدبورغ Mathilde de Magdebourg (١٢٠٧-١٢٨٣): الراهبة الألمانيّة التي عرفت بكتاباتها ذات التوجّه النقديّ. وقد انتشرت هذه الكتابات بفضل كاهن الاعتراف الخاصّ بها الدومينكانيّ هنري دو هال Henri de Halle. كاترين دو سيان Sainte Catherine de Sienne (١٣٤٧-١٣٨٠): الروحانيّةُ الإيطاليّة الدومينيكانيّة التي تركت أثرًا بالغًا في الكاثوليكيّة، وكان ريموند دو كابو Raymond de Capoue كاتب سيرتها وكاهن الاعتراف الخاصّ بها. أنجيل دو فولينيو Angèle de Foligno (١٢٤٨-١٣٠٩): الراهبة الفرنسيسكانيّة التي كانت من أوائل الروحانيّات اللواتي اعترفت بهنّ الكنيسة. انحدرت من أسرة ثريّة واستسلمت في بداياتها إلى حياة اللهو والمتعة، حتّى أنّها لم تستطع البوح لكاهن الاعتراف بكلّ آثامها، إلاّ أنّها رجعت عن ذلك كلّه وكرّست نفسَها للعبادة، وكان الراهب ريموند le frère Raymond أحد كهنة الاعتراف الذين اقتربوا منها. دوروتي دو مونتو Dorothée de Montau (١٣٤٧-١٣٩٤): قديسة كاثوليكيّة أصبحت تُعتَبَر شفيعة بروسيا وكانت من رموز الطائفة العسكريّة المسيحيّة الألمانيّة التي تدعى فرسان التيوتون ordre de chevaliers teutoniques الذي كان ينتمي إليه الكاهن يوهان دو مارينفيردر Jean de Marienwerder. كاترين إميريش (١٧٧٤-١٨٢٤): الراهبة والمتصوّفة الألمانيّة التي أملت رُؤاها على الشاعر برينتانو Brentano فنشرها في حوالي ٤٠ كرّاسًا.

(٢) ديانا دي أندولو Diana d'Andalo (١٢٠١-١٢٣٦): الراهبة التي أسّست ديرًا للدومينيكانيّين في إيطاليا وتمّ تطويبها سنة ١٨٨٨.

إلى السماء إلاّ بفضل مجد اسمهما: كانتا تثيران فيَّ ميلاً شهوانيًّا إلى عالَمٍ آخر.

كنتُ أُراجِعُ المِحَنَ التي مرّت بها رُوزَا دُو لِيمَا وليدوين دو شييدام وكاترين دو ريتشي وكثيرات غيرهنّ(١)، وأفكّر في تفنُّنِهنّ في القسوة عليهنّ وفي عنائِهنّ كمعذّباتٍ لأنفسهنّ وفي دوسهنّ المقصود على مواطن سحرهنّ وحسنهنّ - فأحقد على المتطفّل على شدائدهنّ، طالب أيديهنّ الذي لا يرحم، الدون جوان السماويّ النَّهِم الذي كان له في قلوبهنّ حقّ المُحتلّ الأوّل.

برِمتُ بآهات الحبّ الأرضيّ وتباريحه فأقبلتُ عليهنّ، على الأقلّ بسبب اتّباعهنّ طريقةً أخرى في الحبّ. كانت كاترين الجنويّة(٢) تقول: «لو وقعتْ في الجحيم قطرةٌ واحدة ممّا أشعر به لتحوّلت فورًا إلى فردوس.» وكنت أنتظر تلك القطرة، فلو سقطت لأصابتني في نهاية سقوطها...

---

(١) رُوزَا دو ليما Rose de Lima (١٥٨٦-١٦١٧): راهبة من مواليد البيرو وهي أوّل مُطوَّبة من «العالم الجديد». ليدوين دو شييدام Lydwine de Schiedam (١٣٨٠-١٤٣٣): راهبة هولندية تُعتَبر شفيعة ذوي الاحتياجات الخصوصيّة. كاترين دو ريتشي Catherine de Ricci (١٥٢٢-١٥٩٠): راهبة دومينيكانيّة من مواليد فلورنسة. عُرفت بتصوُّفها الشديد وسيرتها المليئة بالأحداث الخارقة.

(٢) كاترين الجنويّة Catherine de Gênes (١٤٤٧-١٥١٠): متصوّفة من مواليد جنوة. عُرفت برسالتها عن «المَطْهَر».

كنتُ أردّد على نفسي صيحات تيريزا الأفيلاويّة[1]، وأنا أراها تهتف في السادسة من العمر: «أيّتها الأبديّة، أيّتها الأبديّة»، ثمّ تتبع تطوّر هذيانها وتوهّجها وجفافها.

ليس من شيء أخّاذٍ كالاعترافات *الشخصيّة* التي تُربك العقائد وتُحرج الكنيسة... وددت لو أحتفظُ بيوميّات تلك الاعترافات الملتبسة وأنتشِي بتلك الحسرات المُريبة...

لن نَبلغ قِمَمَ اللذّة ونحن في حضنِ سَرِير: كيف نعثر في الوَجْد المدَارِيّ[2] على ما تتيح لنا القدّيسات أن نشعر به في انخطافهنّ؟

إنّ برنيني[3] هو الذي عَرّفنا على قيمة أسرارهنّ، في تمثال روما، الذي تحثُّنا القدّيسةُ الإسبانيّة من خلاله على إنعام النظر في ضعفها الملتبس...

حين أُفكّر من جديد في الشخص الذي أنا مدينٌ له بتصَوُّرِ حدٍّ أقصى للغرام، وبالانتباه إلى تلك الرعشات الأكثر بلبلةً والأكثر نقاءً، وإلى ذلك الضرب من التلاشي حيث تشتعل الليالي، وحيث تذوبُ أصغرُ خصلةِ عشبٍ كما تذوب الكواكب في صوتٍ من

---

(١) تيريزا الأفيلاويّة Thérèse d'Avila: راهبة إسبانيّة (١٥١٥-١٥٨٢م) عُرفت بكتاباتها وبالإصلاحات التي أدخلتها على نظام الأديرة الكرمليّة.

(٢) هكذا رأينا ترجمة عبارة sublunaire: وهي تشير إلى التسمية الأرسطيّة للعالم الذي يطاله الفساد والواقع بين الأرض والقمر.

(٣) برنيني Bernini (١٥٩٨-١٦٨٠): رسّام ومعماريّ مؤثّر. أُطلقت عليه كنية ميكال أنجلو الثاني وكان رمز الباروك في عصره.

المرح والانقباض، - ذلك اللامتناهي الفوريّ المتأجِّج الصّائت، كما يمكن أن يتصوّره إلهٌ سعيد ومعتوه، - حين أفكّر من جديد في كلّ ذلك، فإنّ الاسم الوحيد الذي يستحوذ عليّ هو: تيريزا الأفيلاويّة. - مع كلمات إحدى رُؤاها التي كنت أردّدها على نفسي كلّ يوم: «لا تتحدّثْ إلى البشر بل إلى الملائكة.»

عشتُ سنواتٍ في ظلّ القدّيسات وقد رسخ في ذهني ألاّ قُدرةَ لشاعر أو حكيم أو مجنون على مُضاهاتِهنّ أبدًا. أنفقتُ في تحمُّسِي لَهنّ كُلَّ ما كنتُ أملك من قدرةٍ على العشق ومن حيويّةٍ في الرغبة ومن اندفاعٍ في الحلم. ثمّ... توقّفتُ عن حُبّهنّ.

الحكمة والقداسة

---------------- القدّيسون هم أفضَلُ المرضَى الكِبار في الاستفادة من أمراضهم. إرادتُهم القويّة وطبْعُهم الجامح يتيحان لهم استغلالَ انعدام توازُنهم الخاصّ بمهارةٍ وعُنف. كان المُخلّص، وهو قُدوتُهم، مثالاً للطموح والجرأة وفاتحًا بلا منافس: لقد أتاحت له قوّة التلميح لديه وقدرتُه على التّماهِي مع ما يَنقُصُ الرُّوحَ ويعِيبُها أن يُؤسِّس مُلْكًا لم يحلم به أيّ سيف. جمع بين العاطفة المشبوبة والمنهج. وهي المهارة التي قلّدَها أولئك الذين اتّخذُوهُ مثلاً أعلى.

لكنّ الحكيم الذي يحتقر المأساة والأُبّهة، يشعر بنفسه بعيدًا

عن القدّيس بقَدْرِ ما هو بعيدٌ عن طالب اللذّة، ويشيح عن الرواية ليصنَع لنفسِه توازُنًا من خيبةِ الأمل وانعدام الفضول. - باسكال قدّيسٌ غير مطبوع. صنع منه المرض ما هو أكثر بعض الشيء من حكيم وأقلّ بعض الشيء من قدّيس. الأمر الذي يفسّر تذبذُبَه وظلَّ الشكّ الذي صاحب حماساته. إنّه *متحذلِقٌ* في العُضال...

ليس مِنْ نجِسٍ في نظَرِ الحكيم أكثر من القدّيس. وليس من مخلوقٍ أجوف في نظر القدّيس أكثر من الحكيم. ذاك هو الفرق بين الإنسان الذي يَفهَمُ والإنسان الذي يَصْبُو.

المرأة والمُطلَق

----------------- «بينما سيّدُنا يخاطبني وبينما أنا أتأمّلُ حُسنه الرائع، لاحظتُ الرقّة وأحيانًا الصرامة التي كان فمه الجميل والإلهيّ يلفظ بها الكلمات. شعرتُ برغبةٍ فائقة في معرفة لون عينيه وأبعاد قوامه، إلاّ أنّي لم أستحقّ يومًا تلك المعرفة. لا جدوى تمامًا من كلّ سعيٍ إلى ذلك.» (القدّيسة تيريزا)

لون عينيه... دَنَسُ القداسة الأُنثويّة. أن تحمل فُضولَ جِنسك حتَي السماءَ، أمرٌ من شأنه أن يمثّل عزاء وتعويضًا لكلّ اللذين - فما بالك باللواتي - ظلّوا دون مُستوى المغامرة الإلهيّة. الرجل الأوّل. المرأة الأولى: هو ذا الأساس الدائم **للسقوط** الذي لن يفتديه شيء أبدًا، لا العبقريّة ولا القداسة. هل رأينا

إنسانًا *جديدًا* واحدًا؟ ربّما لم يمثّل التجلّي بالنسبة إلى يسوع نفسه سوى حدَثٍ عابر ومرحلةٍ بلا أهميّة. . .

هل يتمثّل الفرق الوحيدُ إذَنْ بين القدّيسة تيريزا وسائر النساء في القدرة على الهذيان، وفي مسألة كثافةِ *النزوات* واتّجاهها؟ الحبُّ - بشريًّا كان أم إلهيًّا - يُساوِي بين المخلوقات. أن تحبّ عاهرةً أو أن تحبّ إلَهًا يفترض الحركةَ *نفسَها* : في الحالتين أنت تستجيب إلى اندفاعِ *مخلوق*. وحده *الموضوع* يتغيّر. لكن ما الأهميّة التي يمثّلها، بما أنّه ليس سوى ذريعة للحاجة إلى العبادة، وبما أنّ الإله ليس سوى مُتَنَفَّسٍ من بين كثيرين غيره؟

إسبانيا

-------------- يترجم كلّ شعبٍ الصفاتِ الإلهيّة في الصيرورة وعلى طريقته. إلاّ أنّ حماسة إسبانيا تظلّ بالرغم عن ذلك منقطعة النظير. لو وُزّعت على بقيّة العالم لاستُنْفِد الإله وبات مُعوِزًا فارغًا من ذاتِه. لذلك، وعلى سبيل الدفاع عن النفس، تراهُ يحرص في *بُلدانِهِ* على تنمية الإلحاد. يخافُ النّيران التي أجّجها فيقف ضدّ أبنائه وضدَّ وَرَعهم الذي يَحُدُّ منه. حُبُّهم له يُزَعزعُ سلطته ونُفوذه. وحدَهُ عدَمُ الإيمان يترُكُه كاملاً. إنّه لا يتآكل بسبب الشكوك بل بسبب الإيمان. منذ قرونٍ والكنيسةُ تبتذلُ أمجادَهُ وتُعِدُّ لهُ بفضل اللاهوت ميتةً لا لغز فيها واحتضارًا مصحوبًا بالتعليق

والشرح. تُثقِلُ كاهِلَهُ الصلوات فكيف لا تُثقِلُ كاهِلَهُ التفاسير؟ إنّه يخشى إسبانيا كما يخشى روسيا: لذلك يُكثِرُ فيهما من المُلحِدين. هُجوماتُهم على الأقلّ تتيح له الاحتفاظ بوهم القدرة الكُليّة: هي ذي على كلّ حال صفةٌ ناجية! أمّا المؤمنون! دوستويفسكي، أل غريكو[1]: هل كان له عَدُوٌّ أكثر انفعالاً منهما؟ وكيف لا يفضّل بودلير على يوحنّا الصليب[2]؟ إنّه يخشى الذين يرونه والذين يرى من خلالهم.

ما من قداسةٍ إلاّ وهي إسبانيّةٌ نوعًا مَا: لو كان الإلهُ سِيكْلُوبًا لكانت إسبانيا عينَه.

هيستيريا الأبديّة

-------------- أفهم إمكانيّة التعلُّق بالصليب، أمّا الاستعادة اليوميّة لِحَدَثِ المحنة المُكرّر، - فهذا ضرْبٌ من العجيب واللامعقول والغباء. وذلك باختصار لأنّ المُخَلِّصَ مُمِلٌّ بقدر ما هو عاديّ، متى أفرطنا في استغلال مزاياه.

كان القدّيسون منحرفين كبارًا كما كانت القدّيسات شهوانيّات

(١) إلْ غريكو El Greco (١٥٤١-١٦١٤): الرسّام والنحات والمعماريّ الإسبانيّ المعروف بميوله الدينيّة، وأحد رموز الفنّ العالميّ حتى اليوم.

(٢) يوحنّا الصليب Jean de la croix (١٥٤٢-١٥٩١): المتصوّف والكاهن ثمّ القدّيس الإسبانيّ. مؤسّس حركة الكرمليّين الحُفاة مع تيريزا الأفيلاويّة.

رائعات. لقد جُنُّوا - جميعهم - بفكرة واحدة فحوّلوا الصليب إلى رذيلة. إنّ «العمق» هو بُعْدُ أولئك الذين لا يستطيعون تنويع أفكارهم وشهواتهم ويستمرّون في استكشاف منطقة اللذّة والعذاب نفسها.

ننتبه إلى تَقَلُّبِ اللحظات فنعجز عن التسليم بِحَدَثٍ مُطْلَق. ليس في وسع يسوع أن يقسم التاريخ وليس في وسع الظهور المفاجئ للصليب أن يقطع مجرى الزمن المنحاز. يقومُ التفكير الدينيّ - هو نوعٌ من التفكير الاستحواذي - بتخليصِ حصّةٍ زمنيّةٍ، من مجموع الأحداث، ويسبغ عليها كلّ صفاتِ المُطلَق. هكذا أصبح الآلهةُ وأبناؤهم ممكنين...

الحياةُ هي ساحة فُتُوني. أكاد أعيدُ إليها فورًا كُلَّ ما أنتزعُه من اللامُبالاة. ليست تلك طريقة القدّيسين، فهم **يختارون** للمرّة الأولى الأخيرة. أعيشُ من أجل الانفصال عن كُلِّ ما أحبّ، فيزهون بموضوعٍ واحد. أتلذّذُ بالأبديّة فيغرَقون فيها.

تتأتّى عجائبُ الأرض - ومن باب أولى عجائبُ السماء - عن هيستيريا دائمة. القداسة: زلزالُ القلب. فناءٌ من فرطِ الإيمان. ذروة التعبير عن حساسيّة التعصّب. دمامة متعالية... ثمّة تطابُقٌ بين مُدَّعِي الرؤيا والأبله أكثر ممّا بين مُدَّعي الرؤيا والشكّاك. تلك هي المسافة الكاملة التي تفصل بين الإيمان والمعرفة التي لا رجاء منها، وبينه وبين الكينونة التي لا **نتيجة** لها.

مراحلُ الغُرور

---------------- يحدث لك وأنت تعاشر جنون القدّيسينَ أن تنسى حدودك وقيودك وأعباءك وأن تهتف: «أنا روحُ العالَم. أخضّب الكونَ بنيراني. ما مِنْ ليلٍ بعد الآن. أعددتُ حفْلَ الكواكب الأبديّ ولم تعد الشمس ضروريّة. كلّ شيء يسطع. والحجارة أخفُّ من أجنحة الملائكة.»

ثمّ تضيفُ وأنت بين هيجان وخُشوع: «إذا لم أكن تلك الروح فأنا على الأقلّ أصبو إلى ذلك. ألم أطلق اسمي على المواضيع كُلِّها؟ ما من شيء إلاّ وهو يُنادِي بِي، من المرابض إلى القباب. ألستُ صمْتَ الأشياء وصخَبَها؟»

ثمّ تقول وأنت في أسوأ أحوالك وقد راح السُّكْر: «أنا قبرُ الشَّرار. أُضحوكةُ الدودة. جيفةٌ تُزعِجُ الأزرق السماويّ. مُنافسٌ كرنفاليٌّ للسماوات. كُتلةٌ سابقةٌ من اللاشيء الذي لم تكن له حتى ميزة التحلّل. أيّ هاويةٍ كاملةٍ بلغتُ كي لا يظلّ لديّ فضاء أسقط فيه؟»

السماء وعِلْمُ الصحّة

---------------- القداسة: الثمرة القصوى للمرض.

إنّها تبدو فظيعة ومُبهمة ووخيمةً إلى أقصى درجة حين نكون في

صحّة جيّدة. لكن ما إن تعمد تلك الهامليتيّة[1] التلقائيّة المتمثّلة في العُصاب إلى المطالبة بحقوقها حتّي تتّخذ السماواتُ حُدودَها وتنشئ إطارًا للقلق. ندافعُ عن أنفُسنا ضدّ القداسة عن طريق *العناية بصحّتنا*، فالقداسة ناجمةٌ عن نجاسةٍ خاصّة تطال الروح والجسد. لو اقترحت علينا المسيحيّةُ عِلْمَ الصحة عوضًا عمّا لا يمكن إثباتُهُ لَبَحثْنَا عبثًا في تاريخها عن قدّيس واحد. لكنّها تعهّدت جراحَنا وقذارتنا. قذارة جُوّانيّة ذات وميض فوسفوريّ...

الصحّة هي السلاح الحاسم ضدّ الدين. اِخترِعُوا الإكسيرَ الشّامِل تضمحلّ السماءُ بلا رجعة. لا فائدة من إغراء الإنسان بمُثُلٍ أخُرى: ستكونُ تلك المُثُلُ أضعف من الأمراض. الإلهُ صَدَؤُنَا، والتّلفُ غيرُ المحسوس لمادّتنا الجوهريّة: ما إن ينفَذَ إلينا حتى نظنَّ أنّنا نرتفع، بينما نحن ننحدر أكثر فأكثر. وما إن نبلغ نهايتَنا حتّي يتوّج انحطاطنا، فإذا نحن «ناجون» إلى الأبد. خرافةٌ مشؤومة. سرطانٌ مغمور بهالات النور ينخر الأرض منذ آلاف السنين...

أبغض الآلهة كافّةً ولست في صحّة جيّدة بما يكفي لأحتقرها. تلك أكبرُ مَذَلاّتِ اللامُبالي.

---

(١) نسبةً إلى هاملت لشكسبير.

بخصوص بعض العزلات

---------------- ثمّة قُلوبٌ لا ينظر الإلهُ فيها إلاّ خسرَ براءتَه. بدأ الحزنُ فيما هو دُونَ الخلْق ولو توغّل الخالقُ في العالَمِ أكثرَ لأربك توازُنَه. إنّ من يعتقد أنّ الموت مازال ممكنًا لم يعرف بعض العزلات المُعيّنة، كما لم يعرف ذلك القدْر المحتوم من الخلود الكامن في بعض الشدائد...

إنّ من حظّنا نحن أبناء الحداثة أنّنا حدّدنا موقع الجحيم فينا: لو حافظنا على صورتها القديمة لَقام الخوفُ المستندُ إلى ألْفَي سنةٍ من الوَعيدِ بتحويلنا إلى حجارة. لا مَزِيدَ من المخاوف التي لم يُبَدَّل موضِعُها ذاتيًّا: السيكولوجيا خلاصُنا ومَهْرَبُنا. كان من المفتَرَض سابِقًا أن يخرج هذا العالمُ من تثاؤب الشيطان، وها هو اليوم لا يعدو أن يكونَ غلَطَ حواسّ وتَحامُلَ فكرٍ وعيْبَ إحساس.

نحنُ على بيّنةٍ ممّآ تعنيه رؤيا يوم الحشر لدى القديسة هيلدغارد[1] أو رؤيا الجحيم لدى القديسة تيريزا: الجليل - جليل الهلع مثل جليل السُّمُوّ - محفوظٌ في كلِّ رسالة من رسائل الأمراض العقليّة. أن نعرف أمراضنا لا يعني بالضرورة أن نُستثْنَى

---

(١) هيلدغارد (Hildegarde de Bingen): راهبة ومتصوفة ألمانية (١٠٩٨-١١٧٩) تركت العديد من الكتابات والتراتيل الكنسية.

من الرؤى. لكنّنا لم نعد نؤمن برؤانا. تَضَلّعْنَا في كيمياء الأسرار فإذا نحنُ نشرح كلّ شيء، حتّى دموعَنا.

إلاّ أنّ الأمر التالي يظلّ غير قابلٍ للشرح:
إذا كانت الروح بهذه الضآلة فمن أين يأتي إحساسُنا بالعُزلة؟ وأيَّ فضاء يحتلّ؟ وكيف يمكنه أن يعوّض دفعةً واحدةً هذا الواقع المتلاشي الشاسع؟



تَذَبْذُب

--------------- عبثًا تبحثُ عن مِثَالِكَ بين المخلوقات. أنت لم تستعر من أولئك الذين ذهبوا إلى أبعد ممّا ذهبتَ إلاّ المظهرَ المُؤذِي والمُثيرَ للشبهة. استعرتَ الكسَلَ من الحكيم والتنافُرَ من القدّيس والخشونة من الذوّاقة والتهتُّك من الشاعر، - واستعرتَ من الجميع الاختلافَ مع الذات، واللُبْسَ في الأمور اليوميّة، وبُغضَ كلِّ ما يعيشُ من أجل العيش.

تتحسّرُ على القُمامةِ نَقِيًّا وعلى الحشمة خَسِيسًا وعلى الخُشُونةِ حالِمًا. لن تكون أبدًا غيرَك. والحزنُ كلُّهُ من أنّك أنت.

أيُّ تضادٍّ شَرّبَ مادّتَك الجوهريّة وأيُّ عبقريّةٍ مخلوطة أشرفت على نَفْيِكَ إلى العالَم؟ إصرارُكَ على التقليل من شأنِكَ جعلكَ تتبنّى

ما لدى الآخرين من شهيّةٍ إلى السُّقوط: أخذتَ من أحد الموسيقيّين أحَدَ الأمراض، ومن أحد الأنبياء إحدى العاهات، ومن النساء الشاعرات متهتّكاتٍ كُنَّ أم قدّيسات، كآبتهنّ ونسغهنّ المُشَوَّه وفسادَ اللحم والحُلم لديهنّ. النقطةُ الوحيدة الثابتة في تذَبْذُبِكَ بين قَرَفِكَ من العالَمِ وإشفاقك على نفسِك هي المرارة، مبدأُ عزيمتك وأُسلوبُكَ في الفعلِ والفهم.

التلويحُ بالقداسة

------------------ لا يعيشُ الإنسانِ إلاّ دُونَ الحياة أو فوقَها. لذلك هو عرضةٌ لغوايتين: الغباوة والقداسة. إمّا أن يكون أعلى من ذاته وإمّا أن يكون أدنى منها، لكنّه لن يكون أبدًا ***مُساويًا لذاتِه***. وإذا لم يُخِفْهُ أن يكون ***أقلّ*** ممّا هو، فإنّ فكرةَ أن يكون ***أكثر*** تُرعِبه.

لقد انخرط في الألم وبات يخشى نهايته. كيف يقبل بالغرق في هاويةِ الكمال هذه، المتمثّلة في القداسة، وكيف يقبل بأن يخسر فيها سيطرته على نفسه؟ الانزلاقُ ناحية الغباوة أو ناحية القداسة يعني الانقياد إلى **خارج** الذات. مع ذلك فنحن لا نخاف فقدان الوعي الذي يقتضيه الاقتراب من الغباء، لكنّ فكرةَ الكمال تقترن لدينا بالدوار.

النُّقصانُ هو الذي يتيح لنا التفوّق على الإله. ونحن لا نتجنّب القداسة إلاّ خوفًا من خسارة هذا النقصان وخوفًا من مستقبلٍ لا نظلُّ فيه يائسين...، مستقبل يتمخّض في نهاية كوارثه عن آخرَ غير منشود: مستقبل الخلاص. الرعب من أن نصبح قدّيسين...

إنّ من حقّ المشغوف بنقائصه أن يَتخوّف من التجَلِّي الذي قد تعدّه له آلامُه. التلاشِي في نُورٍ مُتَعالٍ... من الأفضلِ عندئذ التوجُّهُ ناحيةَ مُطْلَقِ الظُّلمات، ناحيةَ ملذّات الغباء...

الصليبُ المائل

------------------ المسيحيّةُ خليطٌ رائع لذلك هي أعمق وأنْجَسُ من أن تدوم أكثر: قُرُونُها معدودة. يسوع يفقد طَعْمَهُ يومًا بعد يوم. أصبحت تعاليمُه مزعجةً مثلَ وداعته وأصبحت معجزاتُه وألوهيّته مثيرة للضحك. هوذا الصليب يميل. أصبح مادّةً بعد أن كان رمزًا، واستعاد مكانه في نظام التحلُّل حيث تهلك الأشياء بلا استثناء، حقيرةً كانت أم جديرة بالاحترام. ألفيّتان من النجاح! استكانةٌ خرافيّة من لدُنْ أكثر الحيوانات تبرُّمًا. إلاّ أنّ صبْرنَا عِيل. ما إن أفكّر في أنّي استطعتُ أن أكون - مثل الجميع - مسيحيًّا صادقًا ولو لثانية، حتى تتملّكني الحيرة. المخلّص يُضجِرُني. أحلم بكوْنٍ مُعفًى من السموم السماويّة، كون لا صليب فيه ولا إيمان.

كيف يسعنا ألاّ نترقّب تلك اللحظة التي تضمحلّ فيها الأديان من الوجود، فإذا الإنسان واضح أجوف، لا يتصرّف في أيّ كلمةٍ لتسمية أغواره؟ - يصبح المجهول مملاًّ كالمعلوم: يفتقر كلّ شيء إلى الفائدة والمذاق. يمتدُّ على أطلال المعرفة سُباتٌ قبْرِيٌّ يحوّلنا جميعًا إلى أطياف، إلى أبطال اللامُبالاة الحالِمين. . .

لاهوت

---------------- أنا رائقُ المزاج: الإله طيّب. أنا كئيب: الإله شِرّير. أنا غير مُبالٍ: الإله مُحايد. حالاتي تسبغ عليه الصفات المناسبة. أُحِبُّ المعرفة فإذا هو كلّي الوُجود. أُحبّ القوّة فإذا هو كليّ القدرة. ما إن تبدو لي الأشياء كائنة حتّى يكون. ما إن تبدو لي الأشياء وهميّة حتّي يتبخّر. ألف حُجّةٍ تُبرهن عليه وألف حجّة تدحضُه. إذا كانت حماستي تبعث فيه الروح فإنّ شكاسَتِي تكتم أنفاسَه.

ليس في وسعنا تكوينُ صورةٍ أكثر تقلُّبًا.

نخشاهُ كما نخشى غُولاً ونسحقُه كما نسحق حشرة. نعبُدُه فإذا هو **الكائن**. نرفضه فإذا هو لاشيء. ليس في وسع الصلاة، حتّى لو حلّت محلّ الجاذبيّة، أن تُؤَمِّنَ له ديمومةً كونيّة: سيظلّ دائمًا تحت رحمة ساعاتِنا. لقد شاء لهُ قَدَرُهُ أن يبدُو غيرَ قابلٍ للتغيير في عيون السُّذَّج والمتخلّفين وحدَهم. لكنّ الفحص يكشف عنه

النقاب: قضيّةٌ بلا جدوى. مُطلَقٌ غير معقول. وَلِيُّ المُغَفّلين. أُلْهِيَةُ المنعزلين. قذاةٌ أو شبح، وفقًا لكونه يُسَلّي ذهنَنا أو يتسلّطُ على حُمّانا.

أسخُو فيُتْرَعُ بالصفات. أسخطُ فتغمره النقائص. لقد عشتُ في ظلّ أشكاله كلّها: هو غيرُ قادرٍ على الصمود لا أمام الفُضول ولا أمام البحث. يقلّ غموضُه. يتدهور لامتناهيه. يخبو سُطوعه. تتضاءل مزاياه. إنّه بذْلةٌ بالية لابدّ من خلْعِها: كيف يمكن الاستمرار في التلَفُّفِ بإلهٍ رثّ؟

يتمدّد عَوَزُهُ واحتضارُه عبْر القُرون. لكنّه لن يعيش بعدَنا.

إنّه يَشيخ، وحشرجاتُه ستسبق حشرجاتِنا. ستُستنفدُ صِفاتُه ولن يملك أحدٌ الطاقة الكافية لينحت لهُ الجديد منها.

عندئذ يستطيع المخلوق الذي اضطَلَع بتلك الصفات ثمّ أنكرها، أن يَنْضَمّ في العدم إلى أفضل ابتكاراته: إلى خالِقِه.

الحيوان الميتافيزيقيّ

-------------- لو استطعنا أن نمحو كلَّ ما سجَّلَهُ العُصابُ في العقل والقلب، وكُلّ ما تركه هناك من بصمات مُضِرّة، مع ما يُصاحبها من ظلال نَجِسة!

قَذِرٌ كُلُّ ما هو غيرُ سَطحيّ. الإله: ثمرةُ قلقِ أحشائنا وقرقرةِ

أفكارنا. . . وحدَهُ التّوَقانُ إلى الفراغ يصونُنا من ذلك التمرين في الدناسة الذي يمثّلهُ فعلُ الإيمان. يا له من جَلاءٍ في فنّ المَظهر وفي عدم الاكتراث بغاياتنا وكوارثنا!

التفكير في الإله والنزوع إليه ودعوتُه أو الخضوع له - حركاتُ جسدٍ مُختلّ وعقل عاجز!

العصورُ السطحيّةُ بِنُبْلٍ - عصر النهضة، القرن الثامن عشر - استخفّت بالأديان واحتقرت ألعابها البدائيّة. إلاّ أنّ فينا للأسف حُزْنَ أوباش يكدّر حماساتنا ومفاهيمنا. عبثًا نحلمُ بِكَوْنٍ من الدنتيلاّ: الإلهُ الطالع من أعماقنا وغنغرينَتِنا يدنّس ذاك الحلم بالجمال.

يُصبح المرء حيوانًا ميتافيزيقيًّا بِفِعْلِ العفن الذي يؤيه داخله. تاريخُ الفكر: عرضٌ لمواطن ضعفنا. حياةُ العقل: متواليةٌ من لحظات دُوارِنا. يكفي أن تتداعى صحّتنا كي يتأذّى الكونُ من ذلك ويتأثّر بمُنْحَنَى حيويّتِنا.

تكرارُ الـ «لماذا» والـ «كيف»: البحثُ في كلّ حينٍ عن السبب - وعن كلّ الأسباب - ينمّ عن ارتباكٍ في الوظائف والقدرات سرعان ما ينتهي إلى «هذيانٍ ميتافيزيقيّ»، - خرَف الهاوية، تدحرُج القلَق، دمامة الألغاز القُصوَى. . .

تكوين الحزن

--------------- ليس مِنْ إحساسٍ بعدَمِ الرِّضَى إلاّ وهو ذُو طبيعةٍ دينيّة: يتأتّى انحطاطُنا من عجزِنا عن تصوُّر الفردوس والطموح إليه، كما يتأتّى إحساسُنا بالضيق من علاقاتنا بالمُطلَق. «أنا حيوان ميتافيزيقيّ ناقص، أُعانِي الأمراضَ كُلَّها بشكلٍ مُضاعَف.» - شِعارُ السُّقوط الذي يردّده الإنسان على نفسه بحثًا عن بعض العزاء. وحين لا يفلح في ذلك فإنّه يلجأ إلى الأخلاق، مُجازِفًا بأن يصبح محلّ سخرية، مُقِرًّا العزمَ على العمل برأيها الصالح. «قَرِّر ألاّ تكون حزينًا بعد الآن»، هكذا تجيبُه الأخلاق. فيبذل قُصارى جهده كي يدخُل كَوْنَ **الخير والأمل**... إلاّ أنّ جهودَه غيرُ فعّالة وهي ***مُضادّةٌ للطبيعة الإنسانيّة***: يرجعُ عهدُ الحزن إلى جذور هلاكنا... الحُزْنُ شِعْرُ الخطيئة الأصليّة...

هذيانات في دير

--------------- لا مشْهَدَ يُربِكُ اللامُؤمِنَ المُولَعَ بالتبذير والتبديد، مثل مشهدِ مُجْتَرِّي المُطْلَق هؤلاء... من أين يستمدّون كلّ هذا الإصرار على ما لا يمكن إثباتُه؟ وكلّ هذا الاهتمام بالمُبهَم والحرص على إدراكه؟ لا أفهم شيئًا من يقينهم وسكينتهم. إنّهم سُعداء وأنا ألومهم على كونهم كذلك. لو أنّهم

كرهوا أنفُسهم على الأقلّ! لكنّهم يُقدّرون «رُوحَهم» أكثر ممّا يقدّرون الكون. - هذا التقييم الخاطئ هو مصدر ألوانٍ من التضحية والزهد ذات اللامعقوليّة الهائلة. وفيما نخوضُ نحن تجارب بلا سياق ولا نِظام وفْقَ الحظّ وعلى هوى مزاجنا، لا يخوضون هم سوى تجربة واحدة، هي دائمًا التجربة ذاتُها، بنفسِ الرتابة والعمق المنفّرين. صحيحٌ أنّ الإله هو موضوعها - لكن ما الذي يجعلهم يستمرّون في الاهتمام به؟ هو دائمًا مُماثِلٌ لِنَفْسِه، لا مُتَناهٍ من نفس النوع، لا **يتجدّد** بتاتًا. أستطيع أن أفكّر فيه عرَضًا أمّا أن أشغلَ به الساعات!

لم يطلع النهار بعد. أُصغي من حُجرتِي إلى الأصوات، إلى الأناشيد العتيقة المُقرّبة إلى سماء لاتينيّة مألوفة. في وقتٍ مُبكّرٍ من الليل تسارعت الخطى في اتّجاه الكنيسة. إنّها السحريّات! مع ذلك ما كنتُ لأنزل في مثل هذا البرد حتى لو حضر الإله نفسُه الاحتفالَ المخصّص له. لكنّه **يجب** أن يُوجَد على كلّ حال، وإلاّ بلغت تضحيةُ مخلوقات اللحم، هذه التي تَهُزُّ كسَلَها لعبادته، درجةً من الخبَلَ يعجز العقل معها عن تحمُّل فكرته. لا قيمةَ لبراهين اللاهوت بالقياس إلى هذا الإجهاد الذي يحيّر من لم يكن مؤمنًا، ويضطرّه إلى منح معنًى وجدوى لجهودٍ بهذا المقدار. إلاّ إذا قنعَ برؤيةٍ جماليّةٍ لليالي الأرق المقصودة تلك، ورأى في غرور سهراتها أكبر مغامرةٍ في اتّجاه جمال اللامعنى والرعب... روعة صلاةٍ لا تتوجّه إلى أحد! إلاّ أنّ ***شيئًا مَا*** يجب أن يُوجَد: ما إن يتحوّل هذا الاحتمال إلى يقين حتى

تكفّ الغبطة عن كونها مجرّد كلمة، لفرط ما هو صحيح أنّ الردّ الوحيد على العدم موجودٌ في الوهم. هذا الوهم المُسمّى على مستوى المُطلق **نعمة** - كيف اكتسبوه؟ بفضل أيّ امتياز دُفِعُوا إلى انتظار ما لا يسمح لنا أيّ أمل في العالم بانتظاره؟ بأيّ حقٍّ يتّخذون لهم موقعًا في الأبديّة يأباهُ علينا كلُّ شيء. عن طريق أيّ خدعة استطاع هؤلاء المالِكون - الوحيدون ***الحقيقيّون*** الذين التقيتهم يومًا - أن يحتكروا السرّ ويتمتّعوا به؟ الإلهُ مِلْكٌ لهم. عبثًا نحاول أن نختلسه منهم. هم أنفُسُهم لا يعرفون ***الطريقة*** التي جعلتهم يستولون عليه. ***ذات يومٍ*** إذا هم يؤمنون. أحدهم آمن تلبيةً لِمُجَرّد نِداء. كان مؤمنًا دون وعيٍ منه بذلك وما إن أصبح واعيًا به حتى ترهّب. الآخرُ عانى التباريحَ كلّها، حتى انقطعت أمام نورٍ مُفاجئ. لا يمكنك أن *تُريد* الإيمان. إنّه ينفذ إليك أو يُصيبُك شأنُه في ذلك شأن المرَض. ليس في وسع أحد أن يتحكّم فيه. وسيكون من غير المعقول أن تتمنّاه إذا لم تكن منذورًا له. نحن مؤمنون أو غير مؤمنين كما نكون مجانين أو عاديّين. - لا يسعني الإيمان ولا الرغبة في الإيمان: الإيمان شكلٌ لا يعنيني من أشكال الهذيان... إنّ وضعيّةَ غَيْرِ المُؤمن لا تقلّ استغلاقًا عن وضعيّة المؤمن. أنا مُعتكفٌ على ***متعة أن أخيب***: تلك ماهيّةُ القرن تحديدًا. ما مِنْ شيء أضعهُ فوقَ الشكّ سوى اللذّة الناجمة عنه...

وأردُّ على كلّ هؤلاء الرهبان الورديّين أو اليخضوريّين: «أنتم تلحّون بلا فائدة. تطلّعتُ أنا أيضًا إلى السماء لكنّي لم أر فيها شيئًا. كُفُّوا عن محاولة إقناعي. ربّما عثرتُ على الإله في بعض

الأحيان عن طريق الاستدلال لكنّي لم أعثر عليه بتاتًا في قلبي. وهب أنّي عثرتُ عليه فإنّي لن أحذو حذوكم في طريقكم أو تكشيراتكم، فما بالك إذا تعلّق الأمر بهذه الباليهات التي تتمثّل في قدّاساتكم وصلوات نومكم. ما من شيء يتفوّقُ على ملذّات البطالة. وما كنتُ لأغادر سريري في ساعةٍ غير مناسبة حتى لو قامت الساعة: كيف يمكنني عندئذ أن أركض في عزِّ الليل لأقدّم نومي على مذبح المشكوك فيه؟ يكفي شيءٌ من التهكّم ليُحوّلني عنه حتى لو دوّختني النعمة وهزّتني حالات الوجد بلا انقطاع. أوه، كلاّ، إن تفضّلتم! أخشى أن أنفجر ضحكًا في أثناء صلواتي وأن أُلْعَنَ هكذا بسبب إيماني أكثر ممّا أُلعن بسبب تكذيبي. اعْفوني من المزيد من الجهد. وكيفما كان الحال فإنّ كتفيَّ أكثر إرهاقًا من أن تُسنِدا السماء...»

تمرين في العصيان

--------------- إلَهِي كم أمقتُ خسّة عمَلِكَ وهذه اليرَقات المُشَرَّبَةَ بالسُّكّر التي تتملّقُك وتشبهك. بإبْغاضِك نجوتُ من سكاكر مملكتك ومن ترّهات دُماك المتحرّكة. أنت مطفأة نيراننا وانتفاضاتنا، وإطفائيّ حرائقنا، والمُكلَّفُ بضُروبِ خَرَفِنا. لقد دستُ على أسرارك حتى قبل أن أحشرك في صيغة، واحتقرتُ مناوراتك وكلّ تلك الخِدَع التي تُكوّنُ لَكَ هندامًا ممّا لا يمكن

شرحُه. لقد أعطيتني بسخاء من العلْقم الذي شاءت رحمتك أن تعفي منه عبيدَك. ما من راحةٍ إلاّ في ظلّ بطلانك، لذلك يكفي البهيمةَ كي تنجو أن تفوّض أمرها إليك أو إلى نُسَخِكَ المُزوّرة. لا أدري من الذي يستحقّ الشفقة أكثر أنا أم خَدَمُك؟ نحن جميعًا قادمون مباشرة من عدَمِ كفاءتك: خصلة، نتفة، حرتقة، - ألفاظ الخلْق، ألفاظ عملك الفوضويّ...

من بين كلِّ ما تمّت مُحاولته فيما دون العدم، هل ثمّة ما يدعو إلى الرثاء أكثر من هذا العالَم، باستثناء الفكرة التي تصوّرته؟ ثمّة عاهة إضافيّة حيثما وُجِد شيءٌ يتنفّس. ما من خفقانٍ إلاّ وهو يُؤكّدُ مساوئ الكينونة. هذا اللحم يُروِّعُني. هؤلاء الرجال والنساء، أمعاء تُقرقِرُ بفضل التشنّجات... لم تعد لي صلةُ قُربَى بالكوكب: لم تعد كلّ لحظة سوى صوتٍ انتخابيّ في صندوقِ يأسي.

ماذا يهمُّ أن يتوقّف عمَلُك أو يتواصل؟ لن يكون في وسع أعوانك أن يُنهُوا ما غامرتَ به من دون عبقريّة. سيخرجون مع ذلك من العمى الذي ألقيتهم فيه. لكن هل يملكون الشجاعة للانتقام وهل تملك أنت الشجاعة للدفاع عن نفسك؟ لقد علا الصدأ هذا النوعَ وعلاك أكثر. ها أنا ألتفت ناحية عدوّك، منتظرًا يومَ يسرقُ شمسَك ليعلّقها على كون آخر.

ديكور المعرفة

--------------- حقائقُنا ليست أكثر قيمةً من حقائق أسلافنا. أحْلَلْنا المفاهيم محلّ أساطيرهم ورموزهم فإذا نحن نعتقد أنّنا «متقدّمون». إلاّ أنّ تلك الأساطير والرموز لا تعبّر إطلاقًا عمّا هو أقلّ من مفاهيمنا. شجرة الحياة، الثعبان، حوّاء والفردوس، تعني بقدر ما تعني: الحياة، المعرفة، الغواية، اللاوعي. التصوّراتُ الملموسة للشرّ والخير في الميثولوجيا تضاهي من حيث العمق تصوّرات الشرّ والخير في الإيطيقا. لا يتغيّر العلم أبدًا من حيث العمق: وَحْدَهُ الديكورُ يتغيّر. يتواصل الحبُّ من دون فينوس والحربُ من دون مرّيخ، وإذا كانت الآلهة قد كفّت عن التدخّل في الأحداث، فإنّ الأحداث لم تصبح أكثر وضوحًا ولا أقلّ تحييرًا: كُلُّ ما حدث أنّ جهازًا كاملاً من الصِّيَغ حلّ محلّ مِضخّة الأساطير القديمة، دون أن يتسبّب ذلك في أيّ تحوير لثوابت الحياة البشريّة، التي عجز العلم عن إدراكها بعمق أكثر ممّا فعلت الرواياتُ الشعريّة.

ليس للعُجْب الحديث حدّ: نعتقد أنّنا أكثر تنويرًا وعمقًا من القرون الماضية كافّةً، ناسين أن تعليم بوذا وضع الآلاف من المخلوقات أمام مسألة العدم، تلك المسألة التي يُخيّل إلينا أنّنا اكتشفناها لأنّنا غيّرنا حدودها وأدخلنا عليها شيئًا من سعةِ العِلم. لكن هل مِنْ مُفكّرٍ غربيٍّ يتحمّل المقارنة براهب بوذيّ؟ نحن نضيعُ في النصوص والمصطلحات: *التأمّلُ* مُعطًى مجهولٌ بالنسبة إلى الفلسفة الحديثة. لو أردنا المحافظة على الحياء الفكريّ، لتحتّم علينا أن نستبعد من تفكيرنا تحمّسنا للتمدُّن، وكذلك تعلُّقَنا بالتاريخ. أمّا بخصوص المسائل الكبرى فلا فضل لنا على أسلافنا أو على سابقينا الأقرب. لقد عرفنا دائمًا *كلّ شيء*، على الأقلّ بخصوص ما يتعلّقُ بالجوهريّ. ليس للفلسفة الحديثة شيءٌ تضيفه إلى الفلسفة الصينيّة أو الهندوسيّة أو اليونانيّة. ثمّ إنّه لا مجال لوُجودِ *مسألةٍ جديدة* على الرغم من سذاجتنا أو غرورنا الذي يودّ إقناعنا بالعكس. هل ثمّة إطلاقًا من ضاهَى السفسطائيَّ الصينيّ أو اليونانيّ في لعبة الكلمات؟ وهل ثمّة من دفع إلى أبعد منه الجسارةَ على التجريد؟ لقد تمّ الوصول إلى أقاصي التفكير منذ القدم وفي كلّ الحضارات. لكنّنا نقع في غواية ما لَمْ يُسبَقْ، فننسى بسرعة أنّنا خُلَفاءُ إنسانِ جَاوَهْ[١] الأوّل الذي عنّ له أن يفكّر.

---

(١) إنسان جاوه pithécanthrope: مخلوق بدائيّ وُجدت بقاياه في «جاوَه» واعتبره العلماء حلقة الوصل بين القرد والإنسان.

هيغل هو أكبر المسؤولين عن التفاؤل الحديث. كيف لم ينتبه إلى أنّ الوعي يغيّر أشكاله وطرائقه لكنّه لا يتقدّم بتاتًا. لا مجال في الصيرورة لِتَحَقُّقِ مُطلَقٍ أو هَدَف. تجري المغامرةُ الزمنيّة دون مقصدٍ خارجٍ عنها، وتنتهي ما إن تُستَنفَدَ إمكاناتُ جريانها. تتنوّع درجةُ الوعي حسب العصور دون أن ينمُوَ الوعيُ بسبب تتابُعِها. لسنا أكثر وعيًا من العالَمِ اليونانيّ الرومانيّ أو عصر النهضة أو القرن الثامن عشر: كلُّ عصرٍ كاملٌ في ذاتِه - وقابلٌ للهلاك. ثمّة مراحل متميّزة اشتدّ فيها الوعي، لكن لم يحدث قَطُّ كسوفٌ للوعي إلى حدٍّ منْع الإنسان من تناول المسائل الجوهريّة، بما أنّ التاريخ ليس سوى أزمة دائمة، بل لعلّه إخفاقٌ دائم *للسذاجة*. تتوزّعُ *الحالاتُ السلبيّة* - تلك التي تستثير الوعيَ تحديدًا - على وُجوه مختلفة، إلاّ أنّها تظلّ حاضرة في كلّ المراحل التاريخيّة، لِتَعرفَ المَلل - الحدّ الطبيعيّ للسعادة - إذا كانت تلك المراحل متوازنةً و«سعيدة»، ولتتعرّض إلى اليأس وإلى الأزمات الدينيّة التي تنجرّ عنه، إذا كانت تلك المراحل مُختَلّةَ التوازن صاخِبة. لقد تكوّنت فكرةُ الفردوس الأرضيّ من كلّ العناصر المتنافرة مع التاريخ، ومع الفضاء الذي تزهر فيه الحالات السلبيّة.

دروبُ المعرفة وطرائقُها كلُّها صالحة: الاستدلال، الحدس، القَرَف، الحماسة، الأنين. ليس لرُؤية العالم المسنودة بالمفاهيم شرعيّةٌ أكثر ممّا لتلك المنبثقة من الدموع: الحجج والزفرات - طرائق متساويةٌ في إقناعها متساويةٌ في بطلانها. أُنشِئُ *ضَرْبًا* من

الكون وأؤمِنُ به فإذا هو الكون، الذي ينهار في الأثناء أمام هُجومِ يقينٍ آخرَ أو شكٍّ آخر. لا فرق بين آخِرِ الأمّيِّين وأرسطو في عدم القابليّة للدحض، وفي الهشاشة. المُطلَقُ والبُطلان يميّزان الأثَر الذي تمّ إنضاجه على مدى سنوات كما يميّزان القصيدة التي تتفتّح في كنف اللحظة. هل ثمّة في *فينومينولوجيا الروح*(١) حقيقةٌ أكثر ممّا في *حول روحٍ صغيرة*(٢)؟ يُقدّمُ لنا الإلهامُ الخاطف شأنُه في ذلك شأن التعمّق المضني، نتائجَ نهائيّة - وتافهة. اليومَ أنا أفضّل هذا الكاتب على ذاك وغدًا يأتي دورُ عمَلٍ كنتُ أبغضه في السابق. تَتَبُعُ إبداعاتُ الفكر - والمبادئ التي تتحكّم فيها - مَصِيرَ أمزجتنا وعُمرِنا وانفعالاتنا وخيباتنا. نطرح للمناقشة كلّ ما أحببناه سابقًا، ونحن دائمًا على حقّ ودائمًا على خطأ، لأنّ كلّ شيء مقبول - ولا أهميّة له. أَبْتَسِمُ فيُولَدُ عالَمٌ. أعبسُ فيتلاشى، فيما يرتسم آخَر. ما من رأي أو عقيدةٍ أو نَسَقٍ إلاّ وهو صحيحٌ وأخرق في الوقت نفسه، حسب اعتناقنا له أو تخلّينا عنه.

لا صرامةَ في الفلسفة أكثر ممّا في الشعر، ولا أثر لها في العقل أكثر ممّا هو في القلب. لا وجود للصرامة إلاّ بِقَدْرِ تَماهِينَا مع المبدأ أو الشيء الذي نتناوله أو نُعانيه. كلُّ شيءٍ يبدو اعتباطيًّا من الخارج: العِلل والأحاسيس. إنّ ما نسمّيه حقيقةً هو غلطةٌ لم

---

(١) عمل هيغل المعروف

(٢) حول روح صغيرة Epipsychidion: رائعة الشاعر الانكليزيّ بيرس بيش شيلي Shelley (١٧٩٢-١٨٢٢).

نعشها بما يكفي ولم نُفْرِغْها بعدُ لكنّها لن تلبث أن تهرم، غلطة جديدة تنتظر أن تُفسِد جِدّتَها. يتفتّح العِلْمُ ويجفّ بالتوازي مع أحاسيسنا. وإذا عدنا مشمئزّين من كلّ الحقائق فلأنّنا أرهقنا أنفسنا معها، ولم يعُدْ من نسغٍ لا فينا ولا فيها. لا يمكنُ تصَوُّرُ التاريخ خارجَ ***ما يُخَيِّب***. هكذا تتّضح رغبتُنا في الاستسلام للكآبة وفي الموت بها...

المعرفةُ الحقيقيّة تقتصر على السهر في الظلمات: وحدها حصيلةُ أرَقِنا تُميِّزُنا عن الدوابّ وعن أشباهنا. هل من فكرةٍ غنيّةٍ أو غريبةٍ نجَمَتْ يومًا عن نَوّام؟ نومُك هانئ؟ أحلامُك وديعة؟ إذَنْ فأنتَ تنضاف إلى التراب العضويّ الغُفْل. النهارُ مُعادٍ للأفكار. الشمس تُغشّيها. الأفكار لا تتفتّح إلاّ في غمْرة الليل... خلاصة المعرفة الليليّة: كلّ إنسان يصل إلى نتيجةٍ مُطَمْئِنة بخصوص أيّ شيء كان، هو إنسان يبرهن على بلاهَتِه أو على بِرِّهِ المزيّف. من ذا الذي عثر يومًا على حقيقةٍ واحدة فَرِحة، اتّضح أنّها صحيحة؟ من ذا الذي أنقذَ شرَفَ العقل بعبارات نهاريّة؟ سعيدٌ مَنْ يستطيع أن يقول لنفسه: «أنا حزينُ المعرفة.»

التاريخ هو السخرية في سيرورتها وتكشيرةُ الفكر من خلال البشر والأحداث. العقيدة التي تنتصر اليوم تنهزم غدًا، فيُشهَّرُ بها ويتمّ تعويضها ويصاحبها في هزيمتها كلُّ المؤمنين بها. ثمّ يأتي بعد ذلك جيل آخر: تستعيد العقيدة القديمة حيويّتها من جديدٍ

ويُعاد بناء ما انهدم من صُروحها. . . في انتظار هدمها مرّةً أخري. ما مِنْ مبدأ ثابت يَحْكُمُ حظوةَ المصير وجَفْوَتَه. إنّ تعاقبهما راجعٌ إلى مسخرة الفكر الهائلة، التي تخلط في لعبتها بين الدجّالين والورعين وبين الحيلة والاندفاع. انظُرُوا إلى مجادلاتِ كلِّ قرْن: إنّها لا تبدو مُبرَّرةً ولا ضروريّة، لكنّها كانت على الرغم من ذلك حياةَ ذلك القرن. الكالفينيّة، الهُدُوئِيّة، بور روايال، ***الموسوعة***، الثورة، الوضعيّة، إلخ. يا لها من سلسلةٍ من السخافات التي كان **لابدّ** منها، يا لها من جهْدٍ غير مُجْدٍ وهو مع ذلك محتوم! ما انفكّت الأرثوذكسيّات والهرطقات تنقضُّ على فضول الإنسان بلامعقولاتها الفاتنة، منذ المجامع المسكونيّة حتى خلافات السياسة المعاصرة. كان ثمّة دائمًا، ومن خلف أقنعةٍ مُختلفة، من هم **ضِدَّ** ومن هم **مَعَ**، سواء تعلّق الأمر بالسماء أو بالماخور. آلاف البشر تعذّبوا بسبب تفاصيل متعلّقة بالعذراء والابن. آلافٌ آخرون ذاقوا الأمرّين بسبب عقائد أخرى أقلّ مجانيّةً لكنّها ليست أقلّ لا مَعْقوليّةً. ينتهي الأمر بالحقائق كُلِّها إلى إنشاء طوائف، لا تلبث أن تعرف مصير بور روايال وأن تُقمَعَ وتُدَمَّر. ثمّ يرتفع ثمن أنقاضها وتتزيّن بإكليل الظلم فإذا هي تتحوّل إلى مَحجّ. . .

لن نخالف الصواب عند اهتمامنا بالنقاشات المتعلّقة بالديمقراطيّة وأشكالها، أقلّ ممّا نفعلُ عند اهتمامنا بالنقاشات التي دارت في القرون الوسطى، حول الاسميّة أو الواقعيّة. كلُّ عَصْرٍ يتسمّمُ بمُطلَقٍ ثانويّ ومُملّ، يبدو مع ذلك في مظهرٍ لا نظير

له: ليس وسعنا التفصّي من أن نكون معاصري عقيدة أو نظام أو إيديولوجيا. ولا التفصّي من أن نكون، باختصار، أبناء زمننا. ذاك الذي لا نتحرّر منه إلاّ إذا امتلكنا بُرُودَ أحد ***آلهة الاحتقار***...

ألاّ يكون للتاريخ معنًى، ذاكَ ما يُدخِل علينا الفرح. هل كنّا نَغْتَمُّ بسبب نتيجةٍ سعيدةٍ للصيرورة؟ أو من أجل حفلٍ ختاميّ لن يتحمّل تكلفته سوى عنائنا وكوارثنا؟ أو من أجل حمقى قادمين يبتهجون لأحزاننا ويرقصون على رمادنا؟ يتفوّقُ مرأى النهايةِ الفردوسيّة، في عبثيّته، على أسوأ تهويمات الأمل. كلُّ ما يمكن أن نتعلّل به كاعتذار عن الزمن هو أنّنا نجد فيه لحظاتٍ مفيدةً أكثر من غيرها. حوادث بِلا أهميّةٍ في خِضَمِّ رتابةِ حَيْراتٍ لا تُطاق. الكون يبدأ وينتهي مع كلّ فرد، لا فرق في ذلك بين شيكسبير وغروجان[1]، لأنّ خاصّةَ كُلِّ فردٍ أن يعيش جدارتَه أو تفاهتَه ***في المُطلَق***...

عن طريق أيّ حيلةٍ أفْلَتَ ما **يبدُو** كائنًا مِنْ رقابةِ ما هو ليس بكائن؟ لحظةُ غَفْلةٍ أو عجْزٍ في غمْرة اللاشيء: استغّلتها اليرَقات. ثغرةٌ في هِمَّتِه: وهؤلاء نحن. وكما حلّت الحياة محلّ العدم، حلَّ التاريخُ مَحلَّ الحياة: هكذا انخرطت الكينونة في دورةٍ من الهرطقة قوّضت أرثوذكسيّة العدم.

---

(١) غروجان: أحد أسماء الأبله.

تنازلات



الحبل

-------------- لم أعد أذكر كيف تلقّيتُ هذه المُسارّة: «بلا دولةٍ ولا صحّة، بلا مشاريع ولا ذكريات، طرحتُ عنّي بعيدًا كُلَّ مستقبل وكلّ معرفة، ولم أترك إلاّ سريرًا حقيرًا أتعلّم عليه نسيانَ الشمس والزفرات. أظلّ متمدّدًا عليه أُفرِغ الساعات ومن حولي أدوات وأشياء تأمرني بالهلاك. يهمسُ إليَّ المسمارُ: اِطْعَنْ قلْبَك فالقطراتُ القليلة من الدم التي ستتدفّقُ منه لا ينبغي أن تُخيفَك. يُلمح إليَّ السكّين: شفرتي لا تُقهَرُ. تكفيك ثانيةٌ من العزْم لتنتصر على البؤس والخزْي. - تنفتحُ النافذةُ لوحدها بينما صريرُها يخترقُ الصمت: أنتَ تُقاسمُ الفُقراءَ سُطوحَ المدينة. اِقْفز فَفتْحَتِي واسعةٌ سَخيّة. ستتحطّم على الرصيف في لمح البصر ومعك معنى الحياة أو لا معناها. ثمّ إذا حبْلٌ يلتفُّ على ما يشبه عنقًا مثاليّة ويهتف بي مستعيرًا نبرةَ قوّةٍ مستعطِفة: أنا في انتظارك منذ الأزل. شهِدتُ لحظات هلَعِك وإحباطِك وغضبك. رأيتُ بطانيّاتك المنكمشة ووسادَتك التي عضَّ عليها

سُعارُك. كما استمعتُ إلى الشتائم التي كنتَ تُغدِقُ بها على الآلهة. ولأنّي من المُحسِنين ها أنا أضع نفسي في خدمتك. لأنّك وُلِدتَ من أجل أن تشنق نفسك، مثل كلّ الذين يرفضون جوابًا على شكوكهم أو مهربًا من يأسهم.»

خفايا هَوَس

---------------- فكرةُ العدم ليست من خصائص الإنسانيّةِ الكادحة: الكادحون لا يملكون الوقت ولا الرغبة في وَزْنِ غُبارهم. لذلك هم يستسلمون لقسوة المصير أو لغباوته. إنّهم يأملون. الأمل فضيلةُ عبيد.

إنّ المغرورين المتكبّرين والمغناجين الذين يخافون الشعر الأشيب والتجاعيد والحشرجات، هم الذين يملَؤُونَ عطالتهم اليوميّة بصورة جيفتهم. هم يحبّون أنفسهم ويشعرون باليأس منها. تتطاير أفكارهم بين المرآة والمقبرة، وتكتشف في ملامح وجوههم المُهَدّدَة حقائق أخرى لا تقلّ خطورةً عن حقائق الأديان. ما من ميتافيزيقا إلاّ وهي تبدأ من قلق الجسد الذي يِصبح فيما بعد قلقًا كونيًّا. حتى إنّ القلقين بدافع الاستهتار يرسمون مسبقًا معالمَ العقول المُعذَّبة بحقّ.

العاطلُ السطحيّ المهووس بشبح الشيخوخة أقربُ إلى

باسكال أو بوسويه أو شاتوبريان[1]، من أيّ عالِمٍ غير معنيٍّ بذاتِه. ذروةُ العبقريّة بالنسبة إلى الغرور: وُجودُ ذاك المزهُوّ الكبير الذي لا يتكيّف مع الموت ويرى فيه ***إهانةً شخصيّة له***. بوذا نفسُه لم يكن سوى مغرور ***على المستوى الإلهيّ***. اكتشف الموتَ، موتَهُ، وجَرَحهُ ذلك فتخلّى عن كلّ شيء وفرَض تخلّيه على الآخرين. - بناءً على ذلك فإنّ أبشع العذابات وأكثرها بطلانًا تُولَدُ من تلك الكبرياء الجريحة، التي تسعى إلى مواجهة العدم فتحوّلُهُ على سبيل الثأر إلى قانون.

شاهِدة

----------------- «كان مزهوًّا بألاّ يحكم إطلاقًا وألاّ يتصرّف في شيء أو شخص. عاشَ بلا خدمٍ ولا سادة فلم يأمر أحدًا ولم يتلقَّ أمرًا من أحد. انسحب من سلطان القوانين فلم تتأذَّ منه روحٌ حيّة، وكأنّه كان أسبَقَ من الخير والشرّ. امّحت من ذاكرته

(١) بليز باسكال (Blaise Pascal): فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسي (١٦٢٣-١٦٦٢) اهتمّ بالدين. من كُتبه المعروفة «الرسائل الريفيّة» و«خواطر» ويترجم أحيانًا إلى «أفكار». جاك بوسويه (Jacques-Bénigne Bossuet): رجل دين فرنسي (١٦٢٧-١٧٠٤) يعتبره البعض من أكبر الخطباء الذين عرفتهم البشريّة! من مؤلفاته «حديث عن تاريخ العالم». شاتوبريان François René de Chateaubriand (١٧٦٨-١٨٤٨): الكاتب الفرنسيّ والديبلوماسيّ المعروف وأحد رموز الرومنطيقيّة في الأدب الفرنسيّ.

أسماءُ الأشياء، فظلّ ينظر دون أن يبصر ويستمع دون أن يُنصت. كانت الروائح أو الطُّعوم تتبخّر عند اقتراب منخريه أو سَقْفِ فَمِه. لم يكن لديه من عبيدٍ سوى حواسّه وشهواته، لذلك لم تُحِسَّ ولم تشتَهِ بالمرّة. نَسِيَ السعادةَ والتعاسةَ والعطشَ والخوف، وإذا حدث له أن يتذكّرها فإنّه يترفّع عن تسميتها وعن النزول من ثمّ إلى درك الأمل أو الأسف. كانت أدنى حركة تكلّفه من الجهد أكثر ممّا يكلّفه لآخرين تأسيسُ أمبراطوريّة أو تدميرُها. وُلِدَ ضَجِرًا من أن يُولَد، فأراد نفسَهُ ظِلاًّ: متى عاش إذَنْ؟ وبسبب أيّ ولادة؟ وإذا كان يحمل كفَنَهُ وهو حيّ، فبأيّ معجزةٍ أمكنه أن يموت؟»

عَلْمَنة الدموع

---------------- لم تتوجّه الموسيقى إلى البشر إلاّ بدايةً من بيتهوفن: كانت لا تتحدّث قبْلَهُ إلاّ مع الإله. لم يعرف باخ والإيطاليّون الكبار هذا الانزلاق في اتّجاه الإنسان، هذه العملَقَة المُزَيّفة التي ما انفكّت منذُ الأصمّ تُفسد الفنّ الأكثر نقاءً. حلّ ضغْطُ القَصْدِيّة محلَّ العذوبة، وحلّ تناقُض المشاعر محلّ الاندفاع العفويّ، وحلّت الحماسة محلّ الزفرة المنضبطة. غابت السماء عن الموسيقى فحلّ محلّها الإنسان. كانت الخطيئة سابقًا تسيلُ في شكل دموعٍ ناعمة ثمّ حان الوقتُ لتفيض: تغلّبت الخطابةُ على الصلاة، وانتصرت رومنطيقيّةُ السقوط على رؤيا الانحطاط المتناغمة...

باخ: فتورٌ من كوسموجونيا. سُلّمٌ من دُمُوع تتسلّقهُ رغباتُنا في الإله. مِعْمارُ هشاشاتنا. انحِلالُ إرادَتِنا الإيجابيّ والأعلى. خرابٌ سماويٌّ في الأمل. الطريقةُ الوحيدة كي نهلك دون أن ننهار وكي نغيب دون أن نموت...

هل فات الأوانُ أكثر ممّا يجب كي نتعلّم من جديد هذه الطرق من الزوال؟ وهل يجب علينا أن نستمرّ في الانهيار خارج توافقات الأرغنّ؟

تقَلُّبات الإرادة

-------------------- «هل تعرف فُرْنَ الإرادة حيث لا شيء يصمدُ أمام رغباتك، وحيث يفقدُ القدرُ والجاذبيّةُ سلطانَهما ويختفيان أمام سحر سُلطانك. تعتقد واثقًا أنّك تبعث الميت بنظرة، وأنّ المادّة ترتجف ما إن تضع عليها يدك، وأنّ الحجارة تهتزّ والمقابر تتفتّح في ابتسامة أبديّة عند الاحتكاك بك. - فتكرّر على نفسك: لا شيء منذ الآن إلاّ الربيع الدائم، ورقصة الأعاجيب، ونهاية كلّ نوم. لقد جئتُ بنارٍ أخرى. ها هي الآلهة تمتقع والمخلوقاتُ تتهلّل. استحوذ الوُجوم على القباب ونزل الصخبُ إلى القبور.»

... ولا يصمتُ هاوي السورات اللاهث إلاّ ليضيف عباراتِ تخَلٍّ، بلكنةٍ هُدوئيّة:

«هل جرّبت يومًا ذلك النعاس الذي ينتقل إلى الأشياء، وتلك الميوعة التي تُصيب النسْغ بفقر الدم، وتجعله يحلم بخريف ينتصر على بقيّة الفصول؟ تنام الآمال عند مروري. تذوي الأزهار. تضعُف الغرائز. يكفُّ كُلُّ شيءٍ عن الإرادة ويندم على أنّه أراد. ويهمس إليَّ كُلّ كائن: وددتُ لو أنّ آخرَ عاش حياتي، وليس مهمًّا أن يكون إلَهًا أو بزّاقًا. أتوقُ إلى إرادةٍ في عدم الحركة. إلى لا مُتناهٍ لم يتمّ إطلاقُه بعد. إلى وهَنِ المعتوهين المُنتَشِي. إلى بياتٍ شتويّ تحت الشمس الساطعة، يخدّر الكلّ، من الخنزير إلى اليعسوب...»

نظريّةُ الطّيبة

------------------- «بما أنّك لست محتكمًا إلى أيّ معيار نهائيٍّ أو مبدأ لا رجعة فيه أو إله، فما الذي يمنعك من اقتراف كلّ الجرائم؟»

- أكتشف في نفسي من الشرّ ما يضاهي رصيدَ أيٍّ كان، ولمّا كنتُ أمقتُ الحركة - أمّ الرذائل كلّها - فإنّي لا أتسبّب في عذاب أيّ شخص. أنا غيرُ مؤذٍ ولستُ طمّاعًا ولا أملك ما يكفي من الطاقة وقلّة الحياء لمواجهة الآخرين، لذلك أدَعُ العالَمَ كما وجدتُه. يتطلّبُ الانتقامُ يقظةً في كلّ لحظة وفكرًا نسَقِيًّا واستمراريّة مُكْلِفة، أمّا لَامُبالاةُ العَفْوِ والاحتقار فهي تجعل الساعات فارغةً

بشكلٍ مُمتع. ما مِنْ أخلاقٍ إلاّ وهي تُمثِّل خطرًا بالنسبة إلى الطِّيبة. وحدهُ الإهمالُ يُنقِذُها. لقد اخترتُ رباطةَ جأش الأبله وجُمودَ حِسِّ الملاك لذلك أقصيتُ نفسي عن الأفعال. ولمّا كانت الطيبة متنافيةً مع الحياة فقد تَحَلَّلْتُ من أجل أن أكون طيّبًا.»

تمييز الأشياء

---------------- لابدّ من جرعة هائلة من اللاوعي للانكباب دون قصْدٍ خفِيٍّ على أيّ أمرٍ كان. لا يرى المؤمنون والعشّاق والمريدون من آلهتهم ومعشوقاتهم ومُعلّميهم إلاّ وجْهًا واحدًا. لا مفرّ للمحبّ المخلص من أن يظلّ ساذجًا. هل من شعور نقيّ لا ينكشفُ عن خليطٍ من الحُسْن والبلاهة؟ وهل مِن إعجابٍ مُطوّبٍ لا يليه خسوفٌ للذكاء؟ الإنسانُ الذي يستشفُّ في وقتٍ واحد كافّةَ مظاهِرِ كائنٍ من الكائنات أو شيءٍ من الأشياء، يظلّ متردّدًا إلى الأبد بين الاندفاع والذهول. - شرِّحُوا أيّ مُعتَقَدٍ: أيّ احتفالٍ للقلب وكم من دناءةٍ تحته! إنّه اللامُتناهِي المنشود وقد بدا داخل بالوعة، محتفظًا ببصمتها ونتانتها. ثمّة شيءٌ من الكاتب العدْل داخل كلّ قدّيس، والبقّال داخل كلّ بطل، والبوّاب داخل كلّ شهيد. في عُمْقِ الزفرات تختفي تكشيرة، وإلى التضحيات والتقوى تنضمُّ أدخنةُ الماخور الأرضيّ. - تأمّلوا في الحب: هل من إفاضةٍ أكثر نُبْلاً وهل من مَدْخَلٍ أقلّ إثارة للريبة؟ رعشاتُه تُزاحِم

الموسيقى وتنافس دموعَ العزلةِ والوجد. إنّه الجليل، لكنّه جليل لا ينفصل عن المجاري البوليّة: فورات قريبةٌ من التبرُّز. سماء الغُدَد. قداسةُ الفتحات المُفاجئة... تكفي لحظةٌ من ***الانتباه*** كي تلقي بك هذه السكرةُ المهزوزةُ في قاذورات الفيزيولوجيا. تكفي لحظةُ إنهاك كي تكتشف أنّ تلك الحماسةَ كُلَّها لا تنتج سوى نوع من المُخاط. حالةُ اليقظة التي تتخلّلُ نشواتِنا تُحرّفُ مذاقَها، وتُحَوِّلُ من يخضع لها إلى صاحب رؤية يدوس على ذرائع يعجز عنها الوصف. لا يمكن أن نحبَّ ونعرفَ في الوقت نفسه، دون أن يتأذّى الحبُّ من ذلك ودون أن يلفظَ أنفاسه الأخيرة تحت أنظار الفكر. - تعمّقوا في دراسة مواضيع إعجابكم. تَفَحّصُوا المستفيدين من عبادتكم والمنتفعين من استسلامكم: لو نظرتم إلى ما تحت أفكارهم الأكثر تجرُّدًا، لاكتشفتم الاعتزاز بالنفس والرغبة في المجد والتعطّش إلى الهيمنة والسلطة. كُلُّ المفكّرين فاشِلون في العمَل يثأرون من فشلهم عن طريق المفاهيم. وُلِدُوا فيما هو ***دُونَ*** الفعْل، فإذا هم يُشيدون بالفعل ويذمّونه، تبعًا لرغبتهم في نيل اعتراف البشر أو في ذلك النوع الآخر من المجد: نيل كراهيتهم. إنّهم يرفعون دُونَ حقٍّ قُصُورَهم الخاصّ وبُؤسَهم إلى مرتبة القانون، وتفاهتَهم إلى مستوى المبدأ. التفكير أكذوبة شأنه في ذلك شأن الحبّ أو الإيمان، لأنّ الحقائقَ نتاجُ تزويرٍ والأهواء روائح. ولا خيار لنا في نهاية الأمر إلاّ بين الكذّابِ والمُنتِنِ.

--------------- يحتاج المفكّر كي ينفصل عن العالم إلى مُعاناةِ قدْرٍ كبيرٍ من الاستفهامات، بينما يُوفّرُ التميُّزُ بعَيْبٍ مصيرًا متفرّدًا منذ البداية. يُتيح العيبُ - مُوزِّعُ العزلة - للموصومِ بهِ امتيازَ الشرطِ المُفارِق. انظروا إلى اللوطيّ: إنّه يُثير إحساسين متناقضين: الاشمئزاز والإعجاب. انحطاطُهُ يجعلهُ أدنى من الآخرين وأعلى منهم في الوقت نفسِه. هو يرفضُ نفسَه ويبرّرها في كلّ لحظة، مخترعًا الأسباب، متمزّقًا بين الخزي والزّهْو. غير أنّنا نسير مع القطيع، بما أنّنا ولعنا بحماقات الإنجاب. الويل لمن كانوا بلا أسرار جنسيّة! كيف نحزر عندئذ مزايا الشذوذ النتنة؟ هل نظلُّ أبدًا ذريّةَ الطبيعة وضحايا قوانينها، وفي نهايةِ الأمر أشجارًا بشريّة؟

إنّ نقائص الفرد هي التي تُحدِّدُ درجةَ المُرونة والرهافة التي تتميّز بها حضارةٌ مَا. الأحاسيسُ النادرة تقود إلى الفكر وتُوَجِّهُه: ممّا يضعُ الغريزةَ الضالّةَ على النقيض من الهمجيّة. ينتج عن ذلك أنّ العِنِّينَ أكثر تعقيدًا من الوحش الذي لم تتغيّر ردود فعله. وأنّه يُحقِّق أفضل من أيٍّ كان ماهيّةَ الإنسان، ذاك الحيوان الفارّ من الزوولوجيا، وأنّه يغتني من كلّ نقائصه واستحالاته. أَلْغُوا العاهات والعُيوب، أَزِيلُوا ***الأحزانَ الجسَدِيّة***، ولن تُصادِفُوا المزيد من ***الأرواح***. لأنّ ما نُطلِقُ عليه تلك التسمية ليس سوى نتاج فضائح

جوّانيّة، وليس سوى تعيينٍ لمَخازٍ غامضة، ومحاولة لإسباغ الكمال على الدناءة. . .

في قرارة سذاجته، يَغارُ المفكّرُ من إمكانات الإدراك المتاحة أمام كلِّ ما هو شاذّ. هو يؤمن - على الرغم من بعض النفور - بمزايا «الوحش». . . العيبُ عذاب. وهو شكْلُ الشهرة الوحيد الذي يستحقّ العناء. من ثمَّ «يجب» على المَعيبِ أن يكون أكثر عمقًا من سائر الناس، بما أنّه منفصل عن الجميع بشكل يعجز عنه الوصف. إنّه يبدأ من حيث ينتهي الاخرون. . .

المتعةُ الطبيعيّة المُستمدّةُ ممّا هو بديهيّ تُلغي نفسها في نفسها، تتحطّم في وسائلها، تلفظُ أنفاسها الأخيرة في راهنيّتها. أمّا الإحساسُ غيرُ العاديّ فهو إحساسٌ **مُفَكَّرٌ فيه** وتفكيرٌ ضمنَ ردود الفعل. يبلغُ العيبُ أعلى درجةٍ من ***الوعي*** دُونَ تَدَخُّلِ الفلسفة، بينما يحتاج المُفكّر إلى حياةٍ كاملة كي يبلغ ذلك الإدراك الوجدانيّ الذي ينطلق منه الشاذّ. وهما على الرغم من ذلك متشابهان في نزوعها إلى الانفصال عن الآخرين، وإن كان أحدهما يُلزم نفسَه بذلك عن طريق التأمّل، بينما يقتصر الثاني على اتّباع روائع نُزُوعِه.

المُفْسِد

---------------- «أين مضت ساعاتُك؟ ذكرى حركة. آيةُ غرام. بريقُ مُغامرة. نوبةُ جنون جميلةٌ وخاطِفة. - لا شيء من كلّ هذا في ماضيك. لا هذيان يحمل اسمك. لا عاهة تُشَرِّفك. انزلقتَ دون أن تترك أثرًا. بماذا كنتَ تحلُمُ إِذَنْ؟»

- «وددتُ لو أبذرُ الشكّ في أحشاء الكوكب وأُشرّبُ به المادّة، وأجعلُه يَسُودُ حيث لم يدخل الفكرُ يومًا، وقبلَ أن يبلغ نُخاعَ الكائنات أَرُجُّ به سكينةَ الحجارة مُدخِلاً فيها خوفَ القلب ونقائصه.

لو كنت معماريًّا لبنيتُ معبدًا للخراب. لو كنتُ واعظًا لفضحتُ ألعوبةَ الصلاة. لو كنتُ ملِكًا لرفعتُ رايةَ التمرُّد. ولهيّجتُ خيانةَ الذات في كلّ مكانٍ، بما أنّ البشر يضمرون رغبةً في التخلّي عن أنفسهم، مُغرقًا البراءة في الذهول، مُضاعفًا من خوَنةِ أنفُسهم، مانعًا الجُموع من التخبّط في مَنْقَعِ اليقين.»

مُهندِسُ الكُهوف

---------------- تُعلِّمُنا التيولوجيا والأخلاقُ والتاريخ والتجربةُ اليوميّة أنّ تحقيق التوازن ليس مُحاطًا بأسرار كثيرة. لا

يُوجَدُ إلاّ سِرٌّ واحد: ***الخُضوع***. وتظلُّ تكرّر على مسامعنا: «اِقبَلُوا بالرُّزُوح تحت نَيْرٍ تُصبِحُوا من السعداء. كونُوا ***شيئًا مَا*** يتمّ تخليصكم من همومكم.» إذْ أنّ كلّ شيءٍ ***حِرفةٌ*** في هذه الحياة الدنيا. نحن مُحتَرِفُو الزمن. مُوَظَّفُو التنفُّس. وُجَهاءُ الرّجاء. ثمّةَ منصبٌ في انتظارنا من قَبْلِ أن نُولَد. حياتُنَا المهنيّة تُعدُّ ونحن في أرحام أمّهاتنا. نحنُ أعضاء كونٍ رسميّ، وعلينا أن نحتلّ فيه موقعًا عن طريقِ آليّةِ قَدَرٍ مُتصلّبٍ، لا يرتخي إلاّ لفائدة المجانين. هم على الأقلّ غيرُ مُلزَمين بامتلاك عقيدة، ولا بالانخراط في مؤسّسة أو مساندة فكرة أو الاضطلاع بمشروع. منذُ تأسيس المُجتمع والراغبون في الانسحاب منه عرضةٌ للاضطهاد أو للهزء. يُغْفَرُ لك كُلَّ شيء، شَرْطَ أن تكون لك مهنة، أو عنوان فرعيٌّ تحت اسمك، أو خَتْمٌ على عَدَمِك. لا أحد يجرؤ على الصراخ: «لا أريدُ أن أفعل شيئًا». - يُتَسامَحُ مع قاتلٍ أكثر ممّا يُتَسامَحُ مع عقْلٍ متحرّرٍ من الأفعال. مُضاعفة إمكانيّات خضوعه. التخلّي عن حريّتِه. قتْل الصعلوك فيه: هكذا أتقنَ الإنسانُ عُبُودِيَّتَهُ وانضَمَّ إلى الأشباح. لم يتعهّد حتى احتقاراتِه وانتفاضاتِه إلاّ رغبةً في أن تُهيمِنَ عليه، لكَوْنِه عَبْدَ مواقفِه وحركاتِه وحالاتِه النفسيّة. لقد غادر الكهوف محتفظًا منها بخرافتها. كان سجينَها فإذا هو مُهندِسُها. هو ذا يُؤبّدُ وضْعَهُ البدائيّ بمزيدٍ من الابتكار والدقّة. لكنّه في الحقيقة ينتحلُ من نفْسِهِ بصفاقة. إنّه دجّالٌ أعْيَتْهُ الحِيَل، غير أنّ التواءاته وتكشيراته ما زالت تنطلي بعض الشيء...

---------------- مثل الشمع أذوب في النهار بفعل الشمس وأتجمّد في الليل. تَعاقُبٌ يجعلُنِي أتَحلَّلُ ويَعُودُ بِي إلى نفسي. تَحَوُّلٌ في العَطالةِ والكَسَل... هل هذا مآلُ كُلِّ ما قرأتُ وعرفت؟ هل هذه غاية سهراتي؟ لقد أوهن الكسلُ حماستي وأضعفَ شهيّتي ووتّر سُعارِي. كلُّ من لا يستسلم يبدو لي وحشًا. أستنفد قُواي في تعلُّم التخَلّي، وأتدرّب على البطالة، مواجِهًا نزواتي بفقراتٍ من فنّ التعفُّن.

في كلّ مكانٍ أُناسٌ **يُريدون**... مسْخَرةُ خُطًى متسارعة في اتّجاه أهداف بائسة أو غامضة. إراداتٌ تتقاطع. كُلٌّ يُريد. الحشْدُ يُريد. آلافٌ مُشْرَئِبُّون في اتّجاه ما لا أدري. ليس في وسعي اتّباعُهم فضلاً عن تحدّيهم. أتوقّف مذهولاً. أيّ معجزة نفخت فيهم كلّ هذا الاندفاع؟ قابِليّةٌ مُذهلة للحركة. كلُّ هذه الحيويّة والهستيريا في هذا القليل من اللحم! هذه البكتيريات التي لا يردعها رادع، ولا تُهدّئ من روعها حِكمة، ولا تُربكها مرارة... يواجهون المخاطر بيُسْرٍ لا يشعر به الأبطال: إنّهم رُسُلُ **الناجع** غيرُ الواعين، وقِدّيسُو الفوريّ... آلهة في أسواق الزمن...

أُشيحُ عنهم وأغادر أرصفة العالَم... غير أنّي أُعجِبتُ في زمن سابقٍ بالفاتحين والنّحْل. وكدتُ أُمارسُ الأمل. أمّا الآن فإنّ الحركة تُفزعني والطاقة تثير حزني. تُوجَدُ حكمةٌ في الاستسلام للأمواج أكثر ممّا توجَدُ في مُقاومتها.

أنا ذا حيٌّ بعدَ موتِي، أتذكّر الزمن كأنّي أتذكّر لعبةً صبيانيّة أو قِلّةَ ذوق. لا شهوات لي ولا ساعات حيث أجعل شهواتي تتفتّح. كلُّ ما لديّ يقينٌ بأنّي عشتُ بعدَ نفسي منذ الأزل، جنينًا نَخرَهُ غباء كُلّيٌّ العِلْمِ قبل أن تنفتح أجفانُه، ووُلِد ميتًا من فرط بُعْد النظر. . .

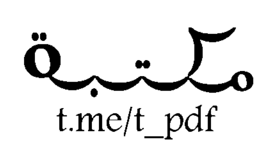
الاهتراءُ الأقصى

--------------- ثمّة شيءٌ يُنافسُ العاهرة الأكثر دناءة. شيء قذِرٌ مُهترِئٌ وخائب. يُثيرُ الغضبَ ويُربِكُه. - هو قِمّةُ السُّخْطِ وبَنْدٌ من بُنُودِ كلّ لحظة: إنّه *الكلمة*، كُلُّ كلمة، وتحديدًا الكلمةُ التي نستخدمها. أقول: ***شجرة***، ***منزل***، ***أنا***، ***رائع***، ***بَلِيد***، وكان في وسعي أن أقول أيّ شيء غير ذلك. أحلمُ بقاتلٍ يقضي على كلّ الكلمات والنعوت، على كلّ هذه التجشّؤات المُشرِّفة. يُخَيَّلُ إليّ في بعض الأحيان أنّ الكلمات ميتةٌ لكنْ لا أحد يرغبُ في دَفْنِها. بسبب جُبْنِنا نَعُدُّها حيّةً لا تزالُ ونستمرُّ في تحمُّلِ رائحتها دُونَ أن نَسُدَّ أُنُوفَنا. إلاّ أنّها لم تَعُد شيئًا ولم تَعُد تُعبّر عن شيء. بعدَ أن نُفكّرَ في كلّ الأفواه التي مرّت الكلماتُ من خلالها وفي كلّ الأنفاس التي أفسدَتْها وفي كلّ المناسبات التي قيلت فيها، هل نستطيع الاستمرار في استخدام واحدة منها دون أن نشعر بأنّها لوَّثَتْنا؟

يُلقُونَ بها إلينا ممضُوغةً بالكامِل: في حين أنّنا ما كُنّا لنجرؤ

على ازدراد لُقمةٍ اجترّها الآخرون: الفعْلُ الماديُّ لذي يتَّفِقُ مع الكلام يُثيرُ غثَيانَنا: تكفينا مع ذلك لحظةُ حنَقٍ كي نتبيّن تحتَ كُلِّ عبارةٍ أثرًا من مذاقِ لُعابٍ غريب.

إنعاشُ اللغة يقتضي من الإنسانيّة أن تكُفَّ عن الكلام. هكذا يمكنها أن تستفيد من اللجوء إلى الإشارات أو بشكل أنجعَ إلى الصمت. إنّ دَعارةَ الكلمة هو أوضحُ الأعراض الدالّة على انحطاطها. ما مِنْ لَفْظٍ غيرِ مُنْتَهَكٍ بعد. ما من تلَفُّظٍ نقِيّ. ما مِنْ شيء إلاّ وهو ينْحَطُّ من فَرْط التكرار، حتى المدلولات. لماذا لا يتعلّمُ كلُّ جيلٍ لُغةً جديدة، على الأقلّ لِمَنْحِ الأشياء نسْغًا مُغايرًا؟ كيف نُحِبُ ونكرهُ ونمرحُ ونتعذّب بواسطة رموزٍ مُصابةٍ بفقْر الدم؟ «الحياة»، «الموت»: عبارتان ميتافيزيقيّتان مُبتَذَلتان. لغزان مهجوران... ينبغي على الإنسان أن يبدع حقيقةً وهميّةً أُخرى، وأن يبتكر من أجل ذلك كلمات جديدة، بما أنّ كلماته باتت مفتقرةً إلى دم، وبلغت من الاحتضار درجةً لم يعد معها نَقْلُ الدم مُمكِنًا.



في جنازة الشهوة

---------------- ثمّةَ كهفٌ مُتَناهِي الصِّغَر يتثاءب في كُلِّ خَلِيّة. نعرف أين تستقرُّ الأمراض. نعرف موقِعَها ونعرفُ قُصُورَ الأعضاء المُحَدَّد. أمّا ذاك المرض الذي لا موقع له... ذاك

الاختناق تحت وطأة آلاف المُحيطات.. تلك الرغبةَ في سُمٍّ زُعافٍ بشكلٍ مثاليّ...

سوقيّةُ التجدُّد. استفزازاتُ الشمس والخضرة والنسغ... يتحلّلُ دمي حين تتفتّح البراعم ويبتهجُ العُصفور والوحش... أحسدُ المجانين الكاملين. أحسدُ الجُرَذَ السّنجابيَّ على خَدَرِه والدُّبَّ على شتاءاته والحكيمَ على جَفائِه. أُبادِلُ عن طيبِ خاطِرٍ خُمُولَهم بِرَجفاتِي كقاتلٍ مُنْبَتٍّ يحلُم بجرائِمَ فيما فوقَ الدم. وأحسدُ أكثر منهم جميعًا أولئك الأباطرة العابسين الوحشيّين، الذين كانوا يُطْعَنُون بالخناجِر في غَمْرَةِ جرائمهم!

أستسلِمُ للفضاء مثل دمعة أعمى. أنا إرادةُ مَنْ؟ من الذي **يُريد** فِيّ؟ وددتُ لو أنّ شيطانًا يُدَبِّرُ مُؤامرةً ضِدّ الإنسان. لو فعلَ لاشتركتُ فيها. ولعثرتُ أخيرًا على ذريعةٍ لمَثَلٍ أعْلَى، بعد أن تعبتُ من التخبُّطِ في جنازة شهواتي. وذلك لأنّ السَّأَمَ هو تضحيةُ أولئك الذين لا يملكون عقيدةً يعيشون أو يموتون من أجلِها.

الخيبة التي لا تُدحض

---------------- كلُّ شيءٍ يسير في اتّجاه الخيبةِ ويُغذّيها ويدعمها. إنّها تتويجٌ - عالِمٌ وغير قابلٍ للدحض - لكلّ الوقائع والأحاسيس والأفكار. ما من لحظةٍ لا تُكرّسها. ما من اندفاعٍ لا يُعلِي من شأنِها. ما من فكرةٍ لا تُؤكِّدُها. هي ألوهةٌ لا

حُدود لمملكتِها، أقوى من القَدَرِ الذي تخدمه وتُعَزِّزُه بشواهِد، وهي علامةُ وصلٍ بين الحياة والموت، تجمعُهما وتخلطُ بينهما وتتغذّى منهما. تبدو العلومُ بالقُرب من حُجَجِها وبراهينِها لَمَّةً من النزوات. لا شيء يُمكنُهُ التخفيف من حُمّى الخيبة وتقزُّزِها. هل من حقائق مُزهرةٍ في ربيعِ المُسلَّمات، تستطيع أن تتحدّى دوغمائيّتها الرُّؤَوِيّة وخَبَلَها المغرور؟ لا شيء يمكنه أن يُقاومَ يقينَها، لا حرارةُ الشباب ولا حتّى اختلال العقل. يعلن الجنونُ والحكمةُ عن انتصاراتها بصوت واحد. تنثني رُكَبُنا أمام سُلطانِها الكامل وسيادتها اللامحدودة: كلّ شيء يبدأ بتجاهُلِها. كلُّ شيء ينتهي بالإذعان لها. ما مِنْ فعلٍ لا يهرب منها. ما من فعلٍ لا يعود إليها. إنّها *الكلمة الأخيرة* في هذه الدنيا، وهي الوحيدة التي لا تُخَيِّبُ بتاتًا...

أسرار الكُتّابِ الأخلاقيّين

----------------- بعدَ أن نكون قد حشَوْنَا الكونَ بالحزن لا يبقى لنا كي نُشْعِلَ العقل إلاّ الفرح. ذلك الشيء المستحيل النادر الخاطِف الذي هو الفرح. ونحن لا نقع في فتنة الرجاء إلاّ حين نكون قد كففنا عن الرجاء. تلك هي الحياة - الهديّة التي يتلقّاها الأحياءُ من عند المهووسين بالموت... ولمّا لم تكن وجهةُ أفكارنا مُطابِقةً لوجهة قلوبنا، فإنّنا نُحافظ على ميلٍ

خفيٍّ تُجاهَ ما نَدُوسُ عليه. لا يُسَجِّلُ شخصٌ مَا أَزِيزَ ماكنةِ العالَم، إلاّ لأنّه حلمَ أكثر ممّا ينبغي بأصداءِ القِباب: لم ينجح في الاستماع إليها فأذلّ نفسَهُ بالاقتصار على الإصغاء إلى ضجّةِ مُحيطها الخارجيّ. تنجمُ الأقوالُ المريرة عن حساسيّةٍ جريحة وعن لُطفٍ مَرْضُوض. السمُّ الذي نفثَهُ لاروشفوكو[1] أو شامفور[2] كان طريقتهما في الثأر من عالَمٍ منحُوتٍ من أجل المتوحّشين. يختفي تحت كلّ مرارة انتقامٌ يُترجم عن نفسه من خلال نسَقٍ: هو التشاؤم - وحشيّة *المهزومين* الذين لا يسعهم أن يغفروا للحياة كونَها خيّبتْ ظنَّهم.

البهجة التي تُوَجِّهُ ضرباتٍ قاتلة... المرَحُ الذي يخفي خنجرًا تحت الابتسامة... أفكّرُ في بعض تَهَكُّمات فولتير. في بعض إجابات ريفارول[3]. في الومضات اللاذعة للسيدة دوفان[4]. في التكشيرة المتجلّية من تحت كلّ تلك الأناقة. في الخفّة العدوانيّة للصالونات. في الالتماعات التي تُسلّي وتَقتُل. في الغيظِ الذي

---

(١) لاروشفوكو (François VI, duc de la Rochefoucauld): كاتب أخلاقي فرنسي (١٦١٣-١٦٨٠) عُرف خاصّة بحِكَمه وأقواله المأثورة.

(٢) شامفور Chamfort (١٧٤٠-١٧٩٤): شاعر وكاتب أخلاقيّ فرنسيّ.

(٣) ريفارول Rivarol (١٧٥٣-١٨٠١): كاتب فرنسيّ كان من تلاميذ فولتير. عُرِفَ بمساندته للملكيّة أيّامَ الثورة الفرنسيّة.

(٤) السيدة دو ديفان madame du Deffand (١٦٩٦-١٧٨٠): امرأة مُجتَمع وصاحبة صالونات. لديها مراسلات قيِّمة مع مشاهير عصرها مثل فولتير ودالمبير وغيرهما.

يتضمّنُه كُلُّ إفراطٍ في الكياسة... وأفكّر في *كاتبٍ أخلاقيٍّ مثاليّ* - هو مزيجٌ من التحليق الغنائيّ والكَلْبِيّة - متحمّسٌ وبارد. مُراوِغٌ وقاطع. قريبٌ من *أحلام اليقظة* قُرْبَهُ من *العلاقات الخطرة*[1]. أو يجمع في شخصه بين فوفنارغ[2] ودو ساد[3]. بين اللباقة والجحيم... ولمّا كانَ رقيبَ أخلاقٍ على نفسِه وفي غِنًى عن كلّ مصدرٍ خارجيّ، فإنّ أقلّ انتباهٍ إلى ذاتِه قد يكشفُ له عن تناقُضات الحياة، وهو أفضل ممثّلٍ لجميع مظاهِرها، فإذا هي تتلاشى وقد استحت من لعب *دورٍ مزدوج*.

ما من ممارسةٍ *للانتباهِ* إلاّ وهي تُفضِي إلى فِعْلِ إبادة: تلك حتميّةُ المُلاحَظة، مع ما ينجرُّ عنها من سلبيّات على المُلاحِظ، بدايةً من الكاتب الأخلاقيّ الكلاسيكيّ وُصولاً إلى بروست. يتحلّلُ كلُّ شيء تحت العين الفاحصة: العاطفةُ والعلاقاتُ المتينةُ والأهواءُ ميزةُ العقولِ البسيطةِ الوفيّةِ لنفسها وللآخرين. إنَّ أقلَّ قَدْرٍ من الوعي في القلب يجعل منه مقرًّا للمشاعر المصطَنعة، ويُحوِّلُ

(١) يشير سيوران هنا إلى كتابَيْن: «أحلام يقظة جوّال منفرد»: عمل غير مكتمل لجان جاك روسو. نُشِر بعد وفاته. وهو بين اليوميّات والتأملّ الفلسفيّ. و«العلاقات الخطرة»: رواية في أدب الترسّل. من تأليف بيير شودرلو دو لاكلو.

(٢) الماركيز دو فوفنارغ de Vauvenargues (١٧١٥-١٧٤٧): كاتب أخلاقيّ فرنسيّ معروف بنصوصه الشذريّة.

(٣) الماركيز دو ساد marquis de Sade (١٧٤٠-١٨٤٠): الكاتب والمفكّر الفرنسيّ الذي تُنسب إليه الساديّة.

العاشقَ إلى أدولف والمَصْدُودَ إلى رنيه[1]. المُحِبُّ لا يفحصُ الحُبَّ والفاعِلُ لا يتأمّل في الفعل. حين أشرع في دراسةِ «قريبي» فهذا يعني أنّه لم يعد كذلك، وما إن أشرع في تحليلِ نفسي حتّى أكُفَّ عن كوني «أنا» لأصبح *موضوعًا* كالآخرين. ينتهي الأمرُ بالمؤمن الذي يزِنُ إيمانَه إلى وضع الإلهِ نفسه في الميزان، وهو لا يحافظ على تقواه إلاّ خوفًا من فقدانها. يقف الكاتبُ الأخلاقيّ على النقيض من السذاجة والكينونةِ الكاملة الأصيلة، فإذا هو ينهك نفسَهُ في مواجهةِ ذاتِه والاخرين: إنّه مَزّاحٌ، وعالَمٌ مُصَغَّرٌ من النوايا المُبَيّتَة، لذلك هو لا يتحمّلُ الخِداعَ الذي يقبَلُ به البشر *طوعًا*، ويدمجونه في طبيعتهم رغبةً في الحياة. يبدو له كلُّ شيءٍ نتيجةَ اتِّفاق: فيكشف عن دوافع المشاعر والأفعال، ويُسقط الأقنعة عن مظاهر الخداع في الحضارة: فهو يُعانِي من أنّه لَمحَها وتجاوزَها. وذلك لأنّ تلك الخِدَع تُمَكِّنُ من الحياة، بل هي الحياة، في حين تضيع كينونتُهُ، موضوعُ تأمُّلِه، في البحث عن «طبيعة» غير موجودة، ولو وُجِدت لما كانت أقلّ غربةً عنه من المظاهر الخادعة التي أُضيفت إليها. ما من كثافةٍ سيكولوجيّة مُختَزَلةٍ في عناصرها، ومشروحةٍ ومُشَرّحة، إلاّ وهي تتضمّن عمليّةً تُضِرُّ بصاحِبِها أكثر ممّا تُضِرُّ بضحيّتها. نحن نقضي على مشاعرنا حين نلاحق منعطفاتها، كما نقضي على اندفاعاتنا حين نترصّد

---

(١) يشير سيوران هنا إلى روايتَيْن تحمل كلّ منهما اسم بطَلِها عنوانًا لها: «أدولف» من تأليف بنيامين كونستان، نشرت سنة ١٨١٦. و«رونيه» من تأليف شاتوبريان. نُشرت سنة ١٨٠٢.

منحنياتِها البيانِيّة. وحين ننظر إلى تفاصيل حركات الآخرين، فهذا لا يعني أنّهم هم الذين سيتعثّرون في مشيتهم... يبدو لنا كلُّ ما لا نشارك فيه مُجانبًا للصواب. إلاّ أنّ الذين يتحرّكون لا يستطيعون التوقّف عن التقدّم. أمّا المُلاحِظُ وأيًّا كانت الجهةُ التي يتلفت إليها، فهو لا يُسجِّلُ انتصارَهم غيرَ المُجدى إلاّ ليُبرّر هزيمتَه. إذْ لا وُجود لحياةٍ إلاّ في عدَمِ الانتباهِ إلى الحياة.

فنتازيا رهبانيّة

---------------- أين منّا ذلك الزمانُ، حين كانت النسوة يرتدين الحجاب وكأنّهنّ يردْنَ أن يخفين على العالَمِ وعلى أنفسهنّ أثَرَ تقدّمهنّ في السنّ وذبُولَ ألَقِهنَّ وامّحاءَ كلّ مفاتنهنّ... وحين كان الرجالُ يغادرون البلاطَ ويلوذون بالتّديُّن بعد أن سئموا المجد والبذخ... لقد زالت مُوضةُ التديُّنِ **حَياءً** بِزَوال القرن الكبير: كان ظلُّ باسكال وطَيْفُ جاكلين يجثمانِ مثل أمجادٍ غير مرئيّة على أصغر متملّقي البلاط، وعلى الجمال الأكثر طيشًا. لكنّ المواقع الشبيهة ببور روايال[1] كانت قد دُمِّرَت تَمامًا، ومعَها المواقعُ الملائمة للاحتضارات المُتَحفِّظة الانفراديّة. لا مجالَ بعدُ

(١) بور روايال (Port-Royal): من أهمَ الموانئ في جامايكا، اعتبرت في بعض الفترات التاريخية مدينة القراصنة وعرفت ازدهارًا كبيرًا ومحنًا كثيرة وتعرّضت أكثر من مرّة إلى زلازل مدمّرة.

لِغُنْجِ الدّير: أين نعثر بعد ذلك، تخفيفًا لتدهْوُرِنا، على إطارٍ كئيبٍ وفاخِرٍ في آن؟ استطاع أبيقوريٌّ مثل سانت إفريموند[1] أن يتصوّر واحدًا على كيفِه، وفي مستوى مهارته في التصرّف مع النّاس من حيثُ التهدئة والارتخاء. في تلك الأوقات كان لابدّ من أن يُحسَب حسابٌ للإله، وأن يتمّ التوفيق بينه وبين عدم الإيمان، وأن يُشمَل بالعزلة. صفقةٌ مُثقَلَةٌ بالمباهج لكنّها ذهبت إلى غير رجعة! أمّا نحن فنحتاج إلى رهْبانيّاتٍ لا تقلُّ حرمانًا وخواءً عن أرواحنا، نضيع فيها دونَ عونٍ من السماوات وفي نقاوةِ مَثَلٍ أعلى غائب. رهبانيّات على مقاسِ ملائكةٍ عادوا من الضّلال، لكنّهم ظلّوا خالين من كلِّ دنسٍ في أثناء سقوطهم، بفضل أوهامهم المهزومة. كما نحتاج إلى أن نأمُلَ رواجًا لخُلْواتٍ في أبديّةٍ بلا عقيدة، وترَهُّبًا في العدَم، وكَهَنُوتًا مُحَرَّرًا من الأسرار، ليس فيه من «أخٍ» يدّعي الانتماء إلى شيء، وليس فيه من «أخٍ» إلاّ وهو يحتقر خلاصَه كما يحتقر خلاصَ الآخرين. إنّه ***كهنوت الخلاص المستحيل***...

(١) سانت إفروموند Saint Evremond (١٦١٤-١٧٠٣): كاتب أخلاقيّ فرنسيّ اشتهر بنصوصه الساخرة.

على شرف الجنون

----------------- «من الأفضل أنّي كنتُ غير منتبه، لذا يحسنُ أن تنفصل أفكاري عن أحزاني.»

صرخةٌ انتزعها جُنونُ الملك لير من غلوستر[١]... الهذيانُ هو ملاذُنا الأخير للانفصالِ عن أحزاننا. نحن **لا *نلتقِي*** كُرُوبَنا ما دُمنا عرضةً لضلالاتِه، بل نظلّ نهذي في ظلمةٍ مُخلِّصة، بموازاة آلامنا وإلى جنْبِ أحزانِنا. ما إن نمقتَ هذا الجَرَب المُسَمَّى حياة وما إن نَمَلَّ حُكَاكَ الديمُومة، حتّى تُصبحَ ثِقةُ المجنون في غَمْرةِ نكباته غوايةً وقُدوَة. ليساعدْنا حظُّ مُؤاتٍ على الاستغناء عن عقلنا. ما منْ منفَذٍ ما دامَ الذهنُ منتبهًا إلى حركات القلب وما دام لا يكفُّ عن التعوّد عليها. أصبُو إلى ليالي المعتوه. إلى عذاباتِه المعدنيّة. إلى سعادةِ أن نئنّ من دون اكتراث كأنّ الأمر متعلّقٌ بأنينِ شخصٍ آخَر. إلى محنةٍ نكون فيها غرباء عن ذواتنا، حتى لكأنّ صرخاتنا الشخصيّة قادمةٌ من مكان آخَر. إلى جحيم مجهولة الاسم نرقص فيها ونُكشّر مدمّرين أنفُسنا... أن أعيش وأموت بصيغة الغائب. أن أنفِيَني فِيَّ، وأن أنْفَكَّ عن اسمي لأستبدِلَهُ، دائمًا من دون اكتراث، بِاسمِ مَنْ كُنت... أن أصل أخيرًا - بما أنّ الحياة لا تُطاقُ إلاّ بهذا الثمن - إلى حكمة الجُنون...

---

(١) غلوستر Gloster: إحدى شخصيّات مسرحيّة «الملك لير» لشكسبير.

-------------- نبحثُ لنا عن أبطالٍ حين نكونُ في سنّ الشباب. وقد كان لي أبطالي: هنري دو كليست[1]. كارولين دو غنديرول[2]. جيراد دو نيرفال[3]. أوتو فايننغر[4]... كنتُ مُتَيقِّنًا وقد أسكرني انتحارُهم، أنّهم الوحيدون الذين مضوا حتّى النهاية، وعثَرُوا في الموت على النتيجة الصحيحة لحُبِّهم المتحقّق أو المرفوض، ولعقلهم المُختلّ أو تكشيرتهم الفلسفيّة. كان يكفي أن ينجو إنسانٌ من غرامِهِ ليبدو في نظري خسيسًا أو جديرًا بالاحتقار: هذا يعني أنّ الإنسانيّةَ كانت زائدة على اللزوم بالنسبة إليّ. اكتشفتُ فيها عدَدًا صغيرًا جدًّا من القرارات الحاسمة وقدْرًا كبيرًا من مُحاباةِ الشيخوخة، الأمر الذي جعلني أنصرف عنها،

---

(١) هنري دو كليست Henri de Kleist (١٧٧٧-١٨١١): شاعر ومؤلف مسرحي وكاتب ألمانيّ. عشق امرأة متزوّجة ومصابة بالسرطان. وفي النهاية اتفقا على الموت معًا فقتلها ثمّ قتل نفسَه.

(٢) كارولين دو غنديرول Caroline de Guenderode (١٧٨٠-١٨٠٦): شاعرة ألمانيّة من أعلام الرومنطيقيّة. عشقت كاتبًا متزوّجًا لكنّه وضع حدًّا لعلاقتهما، فطعنت نفسها بخنجر مفضّلةً الموت على الحياة بعيدًا عنه.

(٣) جيرار دو نيرفال Rérard de Nerval (١٨٠٨-١٨٥٥): كاتب وشاعر فرنسي وأحد رموز الرومنطيقيّة. يبدو أنّه انتحر شنقًا في أعقاب اضطرابات عاطفيّة وعقليّة كثيرة. على الرغم من أنّ كثيرين، مثل بودلير، يرجّحون أنّه قُتِل.

(٤) أوتو فايننغر Otto Weininger (١٨٨٠-١٩٠٣): الكاتب والفيلسوف النمساويّ المثير للجدل. انتحر بطلقة في الصدر، في الدار التي مات بها بيتهوفن...

مُقِرًّا العزمَ على قَطْع صِلتي بها قبْلَ بُلوغ الثلاثين. لكنّ تَعاقُبَ السنوات أفقَدَنِي غُرُورَ الشباب. كان اليومُ يمرُّ شبيهًا بدرسٍ في التواضُع فيذكّرني بأنّي مازلتُ حيًّا، وبأنّي أخون أحلامي بين البشَرِ الذين عفّنتهم الحياة. أرهَقَنِي انتظارُ الكفِّ عن الكينونة، فرأيتُ من الواجب أن يُقطِّع المرءُ لحمَه حين يطلّ الفجر على ليلة غرام، وأنّ من البذاءة التي تفوق الوصف توظيفُ الذاكرة لإهدار تلك اللواعج التي لا حدَّ لَها. كما تساءلتُ في أحيان أُخرى كيف يمكننا أن نستمرّ في إهانة الديمومة بحضورنا، إذا كنّا قد أدركنا كلّ شيءٍ عن طريقِ تَمَدُّدٍ يرتقي بالغرور إلى عرش السماوات؟

كنت أعتقد في ذلك الوقت أن الفِعْلَ الوحيد الذي يستطيع الإنسانُ القيامَ به دون إحساسٍ بالخزي هو وضْع حدٍّ لِحياتِه، وأنّه لا يملك الحقّ في التصاغر عن طريق تعاقُب الأيّام وجُمُودِ الشقاء. كنتُ أُكرّرُ في سِرّي: مَا من مُختارٍ خارج الذين يقتلون أنفسهم. وما زلتُ حتّى الآن أحترمُ بوّاب عمارةٍ يشنُق نفسَه أكثر ممّا أحترم شاعرًا حيًّا... الإنسانُ مُنتحِرٌ مع تأجيل التنفيذ: ذاك مجدُه الوحيد. تلك ذريعتُه الوحيدة. إلاّ أنّه ليس واعيًا بذلك. وهو يرْمي بالجُبْن شجاعةَ أولئك الذين يجرؤون على الارتقاء إلى ما فوقَ أنفُسهم عن طريق الموت. نحنُ مرتبِطُون بعضٌ ببعضٍ عن طريق ميثاقٍ مُضمَر مفادهُ الذهابُ إلى النفَسِ الأخير.

يدعمُ هذا الميثاق تضامُننا لكنّه يدينُنا أيضًا: بسببه لحقَ العارُ

بجِنْسِنا كُلِّه. ما من خلاصٍ خارج الانتحار. أمرٌ غريب! لم يُصبح الموت من ضمن العادات على الرغم من أنّه أزليّ: إنّه الحقيقة *الوحيدة*، لذلك هو لا يستطيع أن يُصبح *رائجا*. من ثمّ نحن جميعًا *متخلّفون* كأحياء...

البُلَهاء

--------------- لاحِظوا النبرةَ التي يلفظُ بها إنسانٌ مَا كلمةَ «حقيقة»، وشحنةَ الوثوق أو التحفُّظ التي يضعها فيها سواءٌ كان يؤمن بها أو يحترز منها. لاحِظوا ذلك وعندئذ يسهل عليكم أن تطّلعوا على طبيعةِ آرائه وقيمةِ تفكيره. ليس مِنْ كلمةٍ جوفَاء أكثر منها. - على الرغم من ذلك يتّخذ منها البشرُ صنَمًا ويُحوِّلُونَ لاَ مَعْنَاهَا إلى معيارٍ وإلى هدَفٍ للتفكير في آن. هذه الخرافة التي تتغاضَى عن العامِّيَّ وتُقصي الفيلسوف، هي نتيجةُ تَعَدِّي الأمل على المنطق. - يُكرّرون على مسمعك: الحقيقةُ صعْبةُ المنال. إلاّ أنّه لابدّ من البحث عنها والنزوع إليها وبذْل قُصارَى الجهْد في سبيلِها. - هو ذَا تَقْييدٌ لا يفصلكَ إطلاقًا عن أولئك الذين يُؤكّدون أنّهم عثروا عليها.

المُهِمّ هو الاعتقادُ أنّها مُمكِنة. امتلاكُ الحقيقة والنزوعُ إليها فِعْلانِ ينجمانِ عن الموقف نفسِه. نجعلُ من هذه الكلمة أو تلك استثناءً: يا لهُ من اغتصابٍ رهيبٍ للُّغَة!

أُسَمِّي أبْلَهًا كُلَّ إنسانٍ يتكلّم على الحقيقة عن اقتناع. فهو لا شكَّ يمتلكُ ذخيرةً من الحروف الكبيرة ويستخدمها بسذاجة، بلا غِشٍّ ولا احتقار. - إنّ أدنى تعاطفٍ مع هذه الوثنيّة يُسقِطُ القِناعَ عن الفيلسوف. أمّا المُواطن فقد انتصرَ في ذاته على المُتَوَحِّد. إنّ من شأن الأمل المنبثق عن تفكيرٍ مَا أن يُثيرَ الحُزْنَ أو الابتسام... ثمّةَ قِلّةُ حَياءٍ في شَحْنِ الكلمات الكبيرة بأكثرَ ممّا يجبُ من الروح: تلك صبيانِيّةُ كلِّ تَحَمُّسٍ إلى المعرفة. وقد آن الأوان للفسلفة وهي تُلوّث سُمعةَ الحقيقة، كي تتحرّرَ من كلّ الحروف الكبيرة.

البُؤس:
مُنشّطًا للعقل

---------------- إبقاءُ العقلِ يَقِظًا ليسَ حَكْرًا على القهوة والمَرض والأرق أو هوس الموت: البُؤسُ يِساهم في ذلك بالقدْرِ نفْسِه إن لم يكن بنجاعةٍ أكبر. لا مجالَ للراحة والتخلّي معَ وُجود الرعبِ من الغد، شأنه في ذلك شأن الرعب من الأبديّة، ولا مجال لهما مع وجود المتاعب الماليّة شأنها في ذلك شأن المخاوف الميتافيزيقيّة. ***إهاناتُنا كلّها ناجمةٌ عن كونِنا لا نستطيع القبُولَ بالموْتِ جُوعًا***. ونحن ندفع ثمنًا باهِظًا مُقابِلَ هذا الجُبن. نعيش تابعين للبشر دون استعداد طبيعيّ للتسوّل! نتذلّل أمام هؤلاء المحظوظين المزهويّن بأنفسهم، الشبيهين بقِردةٍ متهندمة! نظلّ

تحت رحمة هذه الأشكال الكاريكاتوريّة غير الجديرة حتى بالاحتقار! إنّ الاستحياء من الْتِمَاسِ أيٍّ شيءٍ كان هو الذي يثيرُ الرغبةَ في إبادة هذا الكوكب، بما فيه من تراتُبٍ وتدَهْوُر. المجتمع ليس شرًّا، إنّه نكبة. أيُّ معجزةٍ خرقاء أن نستطيع العيش فيه! ننظرُ إليه وقد تنازَعَنا الغَضَبُ وعدمُ الاكتراث، فلا نفهم كيف لم يستطع أحدُهم تدمير بُنيانِه، وكيف لم تظهر حتى الآن عُقولٌ صالحةٌ يائسةٌ وحَيِيَّة، تدُكُّهُ وتمحُو أثَرَه.

ثمّةَ أكثرُ من شبَهٍ بين استجداءِ فِلْسٍ في المدينة وانتظارِ إجابةٍ من صَمْتِ الكون. البُخْلُ يَحْكُمُ القُلوب والمادّة. أفٍّ من هذه الكينونة البخيلة! إنّها تكنز النُّقودَ والأسرار، ويصعب فيها الوصول إلى أكياس النقود بِقَدْرِ ما يصعبُ الوصولُ إلى أعماق المجهول. لكن منْ يَدْرِي؟ قد ينكشفُ ذلك المجهولُ يومًا ويكشفُ عن كُنوزه. لن ينبش الثَّرِيُّ أبدًا عن دراهمه ما دام في عروقه دم... قد يبوحَ لك بمعرّاتِه ونقائصه وجرائمه لكنّه سيكذب عليك بخصوص ثروتِه. وقد يقدّم لك كلّ الاعترافات ويضع حياته تحت تصرّفك لكنّك لن تقاسِمَهُ سِرَّهُ الأخير: سِرّهُ المَالِيّ...

ليس البؤسُ حالةً انتقاليّة. إنّه متطابقٌ مع اليقين بأنّك، مهما حدث، لن تحصل أبدًا على شيء. وأنّك وُلِدتَ أدْنَى من مجالِ تداوُل المُمتلَكات. وأنّ عليك أن تُصارع من أجل أن تتنفّس وأن تحارب لانتزاع كلّ شيء، حتى الهواء والأمل والنوم. وأنّ الطبيعة لن ترحمك ولن تكون أقلّ انحطاطًا حتى لو حدث للمجتمع أن

يضمحلّ. لم يَسهَرْ على الخلق أيُّ مبدأ أبويّ. ثمّة كنوزٌ مدفونةٌ في كلّ مكان. هو ذا هرباغون[1] خالِقُ الأكوان، والكائن الأعلى الشحيحُ والمتكتّم. هو الذي زرع فيك الرعب من الغد. لا غرابةَ من ثمّ في أن يكون الدين نفسُهُ شكلاً من أشكال ذلك الرعب.

البُؤسُ بالنسبة إلى المُعْوِزين مدَى الحياة، شبيهٌ بمُنَشِّطٍ تناوَلُوه دفعةً واحدة دون أيِّ إمكانيّةٍ لإبطال مفعوله، شبيهٌ بِعِلْمٍ لَدُنِيٍّ كان في وسعه وَصْفُ الجحِيم قَبْلَ أيّ معرفةٍ بالحياة...

دُعاء الأرق

---------------- كنتُ في السابعة عشرة وكنتُ أؤمن بالفلسفة. كنتُ أرى في كُلِّ ما لا ينتسبُ إليها خطيئةً أو قُمامة: الشعراء؟ مُشعبذون صالحون لتسلية المُخَنَّثين. الحركة؟ حماقةٌ هاذية. الحبّ والموت؟ ذريعتان تافهتان تمتنعان عن شرف المفهوم. رائحة مُقزّزة لَكَوْنٍ غير جديرٍ بعطر الفكر... الواقع الملموس؟ يا لهُ من وصْمة! أن تبتهج أو تتألّم؟ يا له من خزي! وحدَهُ التجريدُ كان يبدو لي نابضًا بالحياة: كنتُ أركُنُ إلى مآثِرَ جديرةٍ بالخادمات، خوفًا من أن يدفعني موضوعٌ أكثر نُبْلاً إلى مُخالفة مبادئي ويُسلمني لِانهيارات القلب. كنتُ أكَرّرُ في سِرّي:

---

(١) هرباغون Harpagon: بطل مسرحيّة «البخيل» لموليير.

وحدَهُ الماخورُ متلائمٌ مع الميتافيزيقا. وكنتُ أترَصَّدُ - للهرب من الشعر - عُيونَ الخادمات وتنهُّدات البغايا.

إلى أن أقْبَلْتَ، أيُّها الأرقُ، تهزُّ جسدي وغروري. أنت من يُغيِّرُ الفظَّ الغظَّ فيُهَذِّبُ غرائزه ويُهَيِّجُ أحلامَه. أنتَ من يُوزِّعُ من المعرفة في ليلةٍ واحدة أكثر ممّا تفعلُ النهاراتُ المنقضية في الراحة، ومن يعثر له في الجفون المُتَوَجِّعة على أحداث أهمَّ من الأمراض مجهولةِ الاسم وأهمَّ من كوارث الزمن! لقد جعلتني أُصغِي إلى غَطِيطِ الصحّة وإلى البشريّة المستغرقة في النسيان الصّائت، بينما تلتئمُ عُزلتي على السواد المُجاور وتُصبح أوسع منه. كان كُلُّ شيء قد نام. نامَ إلى الأبد. ما من فَجْرٍ بعدُ: سأظلّ ساهرًا هكذا حتّى نهاية العُصور. سيكونون في انتظاري عندئذ ليطلبوا منّي تقريرًا عن فضاء أحلامي الأبيض... كانت كلُّ ليلةٍ شبيهةً بالليالي الأخرى. كانت كلُّ ليلة أبديّة. وكنتُ أشعرُ بأنّي متضامنٌ مع كلّ الذين لا يستطيعون النوم. مع كلّ أولئك الإخوة المجهولين. ومِثْلَ الفاسدين والمتعصّبين كان لدَيَّ سِرّ: مثلَهُم كان في وسعي إنشاء عشيرةٍ أُبرّرُ لها كلّ شيء وأمنحُها كلّ شيء وأُضَحِّي في سبيلها بكلّ شيء: عشيرة المحرومين من النوم. كنتُ أنسب العبقريّة إلى أيِّ شخصٍ تبدو أجفانُه مُثقلةً بالتعب ولم أكن أُعْجَب بالعقل القادر على النوم، حتى لو كان مفخرةً من مفاخر الدولة أو الفنّ أو الآداب. كان في وسعي أن أعبد أيّ طاغية يرغب في الانتقام من لياليه، فيدافع عن الراحة ويُعاقب النسيان ويُشرِّعُ الشقاء والحُمّى.

وعندئذ لُذتُ بالفلسفة: لكنْ ما مِنْ فكرة تمنحُ العزاء في الحلكة. ما من نَسَقٍ يصمُدُ في وجه ليالي السَّهَر. تَحْليلاتُ الأرَق تُفَكِّكُ كلّ يقين. أتعبني كلّ ذلك الدمار فإذا أنا أقول لنفسي: لا مجالَ للمزيد من التردُّد: إمَّا أن تنام وإمّا أن تموت... إمّا أن تستردَّ النوم وإمّا أن تندثر...

لكنّ هذا الاسترداد ليس بالأمر اليسير: ما إن نقترب منه حتى نكتشف كم أثّرت فينا الليالي. هل أنت عاشق؟ إذنْ فاندفاعاتك منذورة للفساد إلى الأبد. ستخرج من كلّ «نشوة» كأنّك تخرج من مباهج الرُّعب. ستُقابلُ نظرات جارتِكَ الأكثر قربًا بِوجهِ مُجرِم. سترُدُّ على مرحها الجنسيّ الصادق بانفعالات مُتعةٍ مسمومة، وعلى براءتِها بشِعْرِ آثِم، لأنّ كلّ شيء سيصبح بالنسبة إليك شِعْرًا، لكنّه شِعْرُ الإثْم... أفكارٌ صافية؟ تَسَلْسُلُ أفكارٍ مُوَفَّق؟ لن تستمرّ في التفكير: سيؤول الأمر إلى تدفُّق. إلى حِمَمٍ من المفاهيم لا مضمون لها ولا نتيجة. مفاهيم مُتقَيّأة عدوانيّة قادمة من الأحشاء. عقوبات يسلّطها الجسدُ على نفسِه بعد أن بات العقلُ ضحيّةَ الأمزجة ولا علاقةَ له بالموضوع... ستتعذّبُ من كلّ شيء وبشكل يتجاوزُ كُلَّ حَدّ: ستبدُو لكَ الأنسامُ زوابعَ واللمساتُ خناجرَ والبسماتُ صفعاتٍ والتّفاهاتُ كوارث. - وذلك لأنّ ليالي السهر يمكن أن تتوقّف لكنّ نُورَها يستمرُّ فيك. لا يمكن للنظر في الظلمات أن يَمُرَّ دُون عِقاب، ولا يمكن أن نتلقّى دَرْسَهُ دونَ خطَر. ثمّة عيونٌ لن تستطيع أن تتعلّم شيئًا آخرَ من الشمس، وثمّةَ أرواحٌ مريضةٌ بالليالي لن تُشفى منها أبدًا...

صُورةٌ جانبيّةٌ للشِّرّير

--------------- إلى ماذا هو مَدِينٌ بِكَوْنِه لم يأتِ شرًّا أكثر ممّا يجب ولم يرتكب جريمة أو انتقامًا أكثر مَكْرًا؟ إلى ماذا هو مَدِينٌ بِكَوْنِهِ لم يستجِبْ إلى نداءات الدم المتدفّق في رأسِه؟ إلى مِزاجِه؟ إلى تربِيَتِه؟ كلاّ طَبْعًا. ولا يرجع ذلك إلى طيبةٍ فطريّة أيضًا، بل هو راجع إلى أمر وحيد: حضور فكرة الموت. لقد جُبِلَ على ألاّ يغفر شيئًا لأحد، فإذا هو يغفر للجميع. تُسْتَفَزُّ غرائزه لأدني شتيمة ثمّ إذا هو ينسى الأمرَ في اللحظة الموالية. يكفيه أن يتخيّل جثّته وأن يُطبّق الأسلوب نفسَه على الآخرين كي يهدأ روعُه فورًا. صُورَةُ الشيء المتحلِّل تجعل الإنسانَ طَيِّبًا - وجبانًا: ما من حكمة (ولا إحسان) في غيابِ وساوِسَ مُرَوِّعة. يفتخر الإنسانُ السليم بأنّه موجود، فينتقم ويصغي إلى الدماء في عروقه وينصهر في الأحكام المُسبقة ويرُدُّ ويصفَعُ ويقتُل. أمّا العقلُ الذي يُوهِنُه الفزعُ من الموت فهو يكفّ عن التفاعل مع الاستثارات الخارجيّة: إنّه يوشك على الأفعال ولا ينجزها. يُفكّر في الشرف ويُضيِّعُه. يُجرّبُ الصّبابات ويُشَرِّحُها... إنّ من شأن الفزَع الذي يُصاحبُ حركاتِه أن يُوتِّرَ حيويَّتَها، فإذا شهواتُه تلفظُ أنفاسَها الأخيرةَ أمام مشهد التفاهة الكونيّة. ولأنّه حاقدٌ اضطراريّ ولا يستطيع أن يحقد عن اقتناع، فإنّ دسائسَه وجناياتِه تتوقّف في أثناء تنفيذها. وهو مثل الجميع، يُخفِي في داخلِهِ قاتِلاً، لكنّه قاتِلٌ مُشبَعٌ بالاستكانة، ومُنْهكٌ أكثَر ممّا يتيح له الإطاحةَ بأعدائه أو صناعةَ أعداء جُدُد.

إنّه يحلُمُ وجبينُه على الخنجر، مِثْلَ من خابَ ظَنُّهُ في كلّ الجرائم قَبْلَ أن يرتكِبَها. هو في نظر الجميع طيّبٌ، وكان في وسعه أن يكون شِرّيرًا، لو لم يبدُ له أنّ من العبث أن يكون كذلك.

نظرات في التسامح

---------------- علاماتُ الحياة: القسوة والتعصّب وعدم التسامح. علاماتُ الانحطاط: الدماثة والتفهُّم والتسامُح... ما دامت المؤسّسة مُعتمدةً على غرائز قويّة فإنّها لا تسمح بأعداء ولا بهراطقة، بل تقتلهم وتحرقهم أو تحبسهم.

المحارق والمشانق والسجون ليست من ابتكار الشرّ بل هي من ابتكار القناعة، أيِّ قناعة كُلِّيّة. ما إن تتأسّس عقيدةٌ حتى يتكفّل البوليس آجِلاً أم عاجِلاً بتأمينِ «حقيقتِها».

كان على يسوع بعدَ أن رغب في الانتصار بين البشر، أن يتوقّع توركيمادا[1]، كنتيجة حتميّة للمسيحيّة وقد **تُرجِمَت في *التاريخ***.

وإذا كان الحَمَلُ لم يتوقّع الجلاّد الواقف خلْفَ الصليب، والذي سيصبح مُحاميه، فهذا يعني أنّه يستحقّ كُنيَتَه.

---

(١) توركيمادا Torquemada (١٤٢٠-١٤٨٣): راهب أسبانيّ دومينيكانيّ. كان أوّل مفتّش معامّ لمحاكم التفتيش أيّام فرديناند وإيزابيل.

لقد أثبتت الكنيسة عن طريق محاكم التفتيش أنّها ما زالت محتفظةً بِقَدْرٍ كبير من الحيويّة. كذلك فعَلَ المُلوكُ عن طريق التصرّف حسب مشيئتهم. لكلِّ سُلطةٍ «باستيلُها»[1] الخاصُّ بها. كلّما ازدادت المؤسّسة قُوّةً نقصت إنسانِيَّتُها. وما دامت البهيميّةُ خاصيّةً أساسيّةً لكلّ نجاحٍ في الزمن، فإنّ من الطبيعيّ أن تُقاسَ طاقةُ كُلِّ عَهْدٍ بعددِ مُعَذِّبيه، وأن تترسّخ كُلُّ عقيدة دينيّة أو سياسيّة بِقَدْرِ ما تُنتج من ضحايَا.

حيثُما انتصرتْ فكرةٌ سَقَطتْ رُؤوس. وهي لا تنتصر إلاّ على حسابِ أفكارٍ أخرى وعلى حساب الرؤوس التي تصوّرتها أو دافعت عنها. التاريخ يُؤكّد الشكوكيّةَ وإن كان لا يعيشُ ولا يكون إلاّ بالدَّوْسِ عليها. مَا من حَدَثٍ يَنْجُمُ عن الشكِّ لكنْ مَا مِنْ نَظَرٍ في الأحداث إلاّ وهو يقود إلى الشكّ ويُبَرِّرُه. هذا يعني أنّ التسامح الذي يُعْتَبَرُ أسْمَى خيْرٍ في الأرض، هو شَرُّهَا في الوقت نفسِه. القَبُولُ بكُلّ وجهات النظر وبالعقائد الأكثر تبايُنًا وبالآراء الأكثر تناقُضًا، يَفْتَرِضُ حالةً شاملة من الإنهاك والعُقْم.

تحدُثُ من ثمّ المُعجِزةُ التالية: يتعايشُ الخُصومُ لكنْ لأنّهم لم يعودوا قادرين على أن يكونوا خُصومًا. تُقِرُّ المذاهبُ إحداها بمزايا الأخرى لِافتقارِ أيٍّ منها إلى الحيويّة الكفيلة بإثبات ذاتِها...

---

(١) نسبةً إلى سجن الباستيل la bastille الذي أُنشئ في باريس بين سنتي ١٣٧٠ و١٣٨٣.

ينطفئ الدين إذا تسامح مع الحقائق التي تُقصيه، ويَشبَعُ موتًا ذاك الإلهُ الذي نكفُّ عن القتْل باسمِه. ما إن يتلاشى مُطْلَقٌ حتّى يرتسمَ وَمِيضُ فردوسٍ أرضِيّ... وميضٌ خاطف، لأنّ عدمَ التسامُح يُمثِّلُ قانون الأشياء البشريّة. لا تُثبِتُ المجموعاتُ ذاتَها إلاّ تحت الاستبداد، وهي تتفكّكُ إذا كان النظامُ رَحيمًا. - عندئذ، وفي نوعٍ من انتفاضةِ الطاقة، تشرعُ في خنق حرّياتِها وفي عبادة سَجّانيها، سواء كانوا من العامّةِ أم مُتَوَّجِين.

تتفوَّقُ عُهودُ الفَزَع على عُهود السكينة. وينزعِجُ الإنسانُ من غياب الأحداث أكثر ممّا ينزعج من وفْرَتِها. من ثمّ كان التاريخُ النتيجةَ الدمويّةَ لِرفْضِ الإنسانِ السأم.

فلسفة هنداميّة

---------------- بأيّ حَنانٍ وبأيّ غَيْرَةٍ تتّجهُ أفكاري ناحيةَ رُهبان الصحراء وناحيةَ الكلْبِيّين! يَا لَخسَاسةِ التصرُّف في أي شيء: في هذه الطاولة. في ذاك السرير. في تلك الأسمال. يقف الهندامُ بيننا وبين العَدَم. اُنظُروا إلى جسدكم في المرآة لتفهموا أنّكم فانُون. مُرّوا بأصابعكم على ضُلوعكم كأنّكم تمرّون بها على أوتار مندولين، لتروا كم أنّكم قريبون من القبر. نحن لا ندّعي الخلود إلاّ لأنّنا مُكتَسُون: كيف يمكننا الموت إذا كنّا نحمِلُ ربْطَة

عنق؟ الجثّةُ التي ترتدي ثيابًا تتنكَّرُ لِنَفْسِها، وتتخيّلُ الأبديّةَ دون أن تملك منها غيرَ الوهم. تُغطّي *الجلدةُ* الهيكلَ العظميّ ويُغطّي الثّوبُ الجِلدة: تحايُلُ الطبيعة والإنسان. خداعٌ فِطريٌّ واتّفاقيّ: لا يمكنُ *لسيّدٍ أنيقٍ* أن يُجْبَلَ من طينٍ وغُبار... الوقار. الاحترام. الاحتشام. كُلُّها مهاربُ من أمام ما لا يمكنُ تلافيه. وحين تضع على رأسك قبّعة، من الذي يسعهُ أن يقول إنّك كنت مقيمًا في أحشاء، أو إنّ الديدان لن تلبث أن تغصَّ بشحمك؟

... لذلك سأتخلّى عن هذه الأطمار وأزيحُ القناع عن أيّامي لأهرب من الزمن، حيث ما فتئتُ أَجْهَدُ لخيانةِ نفسي بالاتّفاقِ مع الآخرين. ثمّةَ مُتَوحِّدون تجرّدُوا في السابق من كلّ شيء ليتماهَوْا مع أنفسهم. لقد ظلّوا يستمتعون بفاقَتِهم في الصحراء وفي الشارع على حدٍّ سواء، إلى أن أدركُوا الحظوةَ القُصوى: إلى أن تساووا مع الموتى...

بينَ الجُرْب

---------------- يُعذّبني ضميري بسبب كسَلِي فأسلكُ الطريق إلى حُثالةِ المجتمع باحثًا عن عزاء، متلهّفًا إلى إذلالِ نفسي وتسفِيلِها هناك. أعرف أولئك الصعاليك المُتفاصِحين المُنْتِنين المُكَشِّرين. أنغمسُ في قذارتهم مُستمتعًا بِلُهاثِهم النَّتِن بَقَدْرِ استمتاعِي بثرثرتهم. إنّهم لا يرحمون الناجح، ومن ثمّ فإنّ

عبقريّتهم في عدَمِ القيام بشيءٍ تنتزِعُ الإعجاب، على الرغم من أنّ المشهد الذي يعرضونَهُ أكثرُ مشاهد العالَمِ حُزْنًا: شعراء بلا موهبة. فتيات بلا زبائن. رجالُ أعمالٍ مُفلِسُون. عُشّاق بلا قُضُب. جحيم النساء اللواتي لا يرغب فيهنّ أحد... هو ذا الكمال السلبيّ للإنسان. هوذا عارٍ ذاكَ المخلوقُ الذي يَدَّعِي أصلاً إلَهِيًّا. مُزَيِّفُ المُطلَق المُثيرُ للشفقة ذاك... كان لا بُدَّ أن ينتهي به الأمر إلى هناك. إلى تلك الصورة الشبيهة بهِ: طين لم يضع فيه الإلهُ يومًا يده. بهيمة لم يغيّرها يومًا ملاك. لاَ مُتناهٍ مولود في الزمجرة. روح انبثقت من تشنُّج... أنظر إلى الحُيَيَّات المنويّة المنتهية ويأسِها الأصمّ، وإلى وُجوه النّوْع الجنائزيّة، فأُطَمْئنُ نفسي: ما زالت الطريق طويلةً أمامِي... ثمّ يعتريني الخوف: هل أنحطُّ بالطريقة نفسها إلى نفس الدرك الأسفل؟ أكره هذه العجوز الدّرداء، وهذا النَّظّامَ الذي لا أبياتَ له، وهؤلاء العاجزين عاطفيًّا وعَمَلِيًّا، وهذه النماذج المثاليّة لخزي الفكر والجسد... تُحبِطُني عينا الإنسان - حاولتُ أن أستمدّ من هذا الحُطام تجَدُّدًا للكبرياء، وها أنا أغنم منه قُشعريرةً تُشبه تلك التي يحسّ بها كائنٌ حيّ، يريد الابتهاج بأنّه لم يمت بعد، فيعمد إلى الاختيالِ داخِلَ تابوت...

---------------- هو يهتمّ بكلّ شيء وينجح في كلّ شيء. ما من شيء إلاّ وهو مُعاصِرٌ له. كلُّ هذه الحيويّة في ألعاب الذهن وكلُّ هذه السهولة في تناول حُقول الفكر والموضة كافّةً - من الميتافيزيقا إلى السينما - مصْدرُ انبهار ويجب أن تكون مصدرَ انبهار. ليس من مسألةٍ تصمد أمامه وليس من ظاهرةٍ غريبةٍ عليه وليس من غوايةٍ تتركه مُحايدًا. إنّه فاتحٌ ذُو سرٍّ وحيد: افتقاره إلى العاطفة. لا يُكلّفه شيئًا أن يواجه أيّ أمر بما أنّه لا يضع في ذلك أيّ نبرة شخصيّة. صِيَغُهُ رائعةٌ لكنّها بلا نكهة. تُضيِّقُ فيها المقولاتُ على التجارب الحميمة، كأنّها مصفّفة في جدْوَل مخاوِف أو في خزانة جذاذات للكوارث حُفِظَتْ فيها مِحَنُ الإنسان مع شِعْرِ تمَزُّقِه. مَعَهُ يتحوّل العُضالُ إلى نَسَق وربّما إلى عَرْض، فإذا هو منشور مثل أحد فُصول الجَوَلان العاديّ الشبيه بمصنع حقيقيّ للقلق. يلوذُ به الجمهورُ وتتغذّى منه عدميّةُ الرّصيف ومرارةُ المُتسكّعين. إنّه مُفكِّرٌ بلا مَصير، فارغٌ إلى أقصى حدّ وواسعٌ بشكلٍ عجيب، لذلك هو يستغلُّ تفكيرَه ويريدُه على كلّ لسان. ما من محتومٍ يُطارِده: لو وُلِدَ في كنفِ الماديّة لساير تبسيطها المفرط ومنحها امتدادًا لم يكن في الحسبان. لو وُلِد مع الرومنطيقيّة لكوّن منها حصيلةً من الأحلام. لو ظهر في ذروة علْمِ اللاهوت لتعاطى مع الإله تعاطيه مع أيّ مفهوم آخر. إنّ مهارتَه في مواجهة المسائل الكبرى مُذهِلة: كلّ شيء فيها لافِتٌ باستثناء الصدق. إنّه لاَ شاعِرٌ

أصْلاً: قد يتحدّث عن العدم لكنّه لا يملك قشعريرته. ما من اشمئزازٍ يندّ عنه إلاّ بدا مُتكَلّفًا. ما من سخطٍ إلاّ بدا مكبوحًا كأنّه اختُرِعَ بعد الأوان. - إلاّ أنّ لديه إرادةً ذات نجاعة خارقة وذات وعي حادّ في الوقت نفسِه، حتّى أنّ في وسعه أن يكون شاعرًا *لو أراد*، وأُضِيفُ أنّ في وسعه أن يكون قدّيسًا لو رغب في ذلك... ولمّا كان بلا أولويّات ولا احترازات فإنّ آراءه ليست سوى حوادث عرَضيّة. لذلك يؤسفنا أن يُؤمن بها، فالشيء الوحيد الذي يهمّنا هو طريقة تفكيره. لو استمعتُ إليه يُلقِي موعظةً من على منبر لما استغربت، لفرْط ما يصحّ القول إنّه يضع نفسَه فوق مستوى الحقائق كلّها، وإنّه يسيطر عليها دون أن تكون أيّ حقيقة منها ضروريّة أو عضويّة بالنسبة إليه...

هو يتقدّم مثل المستكشف، مفتتحًا الحقل بعد الآخر. خُطاهُ مشاريع لا تقلّ عن أفكاره. دِماغُه ليس عدوًّا لغرائزه. وهو يرتفع فوق الآخرين لأنّه لم يشعر بقُنوط ولم يجرّب قَهْرَ النفس الحاقدَ الذي يشلّ الشهوات.

إنّه ابنُ عصرِه المُعبّرُ عن تناقضاته وعن وفْرَتِه اللامُجدية. لكنّه أظهر من المواظبة والإصرار عند اندفاعه لفتْح ذاك العصر، ما جعلَ نجاحه وشهرته يضاهيان نجاحه السيف وشُهرته. الأمر الذي أعاد الاعتبار للفكر بوسائل ظلّ الفكر حتى ذلك الوقت يبغضها ويجهلها.

حقائق مزاجيّة

--------------- في مواجهة المفكّرين عدِيمي الوجدان والعزيمة والقوّة الذين يتكيّفون مع قوالب زمنهم، يقفُ آخرون نشعر بأنّهم لو ظهروا في أيّ وقت آخر، لكانوا مُساوِين لأنفسهم غير عابئين بعصرهم، يستمدّون أفكارهم من رصيدهم الشخصيّ في الأبديّة النوعيّة الخاصّة بنقائصهم. إنّهم لا يأخذون من وسَطهم سوى المظاهر، بعض خصائص الأسلوب، بعض التراكيب المميّزة لتطوُّرٍ مُعَيّن. هم مشغوفون بقَدَرهم، يستحضرون انبثاقات وإلماعات مأساويّة وانفراديّة، شديدة القرب من القيامة والطبّ النفسانيّ. لو ظهر كيركغارد[1] أو نيتشه في أكثر الفترات تفاهةً لما كانت قريحتهما أقلّ احتدامًا ولا أقلّ إحراقًا. لقد هلكا بنيرانهما ولو عاشا قبل بضعة قرون لهلكا بنيران المحرقة. لقد كانا، تُجاهَ الحقائق العامّة، منذورين إلى الهرطقة. سيّان أن تبتلعك نارُك الشخصيّة وأن تبتلعك النار التي تُعدُّ لك: لابدّ أن يُدفعَ ثمنُ ***الحقائق المزاجيّة*** بطريقة أو بأخرى. تتّفق الأحشاء والدماء والأمراض والعاهات على ولادة تلك الحقائق. وتُشَرَّبُ بالذاتيّة فنُلاحِظُ وُجُودَ *أنا* خلف كلّ واحدةٍ منها. يُصبح كلّ شيء اعترافًا: صرخةٌ من لحمٍ تقفُ وراء أقلّ الهتافات أهميّةً. حتى

(١) سورين كيركغارد (١٨١٣-١٨٥٥) الفيسلسوف والشاعر واللاهوتي الدانماركيّ. رائد الوجوديّة.

النظريّة التي تبدو ذات طابع غير شخصيّ لا تصلح إلا لخيانة صاحبها وفضح أسراره وآلامه: ما من عُمُومِيَّةٍ إلاّ وهي قناعٌ لهُ حتى المنطق. ما من شيء إلاّ وهو ذريعة للسيرة الذاتيّة. لقد اجتاحت «أناهُ» الأفكار وتحوّلت حيرته إلى معيار، إلى واقع وحيد.

المسلوخ

--------------- ما تبقَّى له من حياةٍ ينتزعُ منه ما تبقّى له من عقل. الأمرُ التافه والأمر الكارثيّ - مرورُ ذبابة أو تشنّجُ الكوكب - يُثيران خوفه بالدرجة نفسِها. أعصابُه متوتّرة إلى حدّ أنّه يودّ لو أنّ الأرض من زجاج كي يجعلها تتطاير في كلّ اتّجاه. بأيّ لهفة كان يتمنّى أن يندفع في اتّجاه النجوم ليحوّلها إلى غبار النّجمَ بعد الآخر.. تلمع الجريمةُ في عينيه، وعبثًا تنقبض يداه رغبةً في الخَنْق. تتفشّى الحياةُ مثل الجذام. المخلوقات أكثر من أن يكفيها قاتلٌ واحد. إنّ من طبع العاجز عن قتْلِ نفسِه أن يرغب في الثأر من كُلِّ ما يَطيبُ لهُ الوجود. فإذا فشل في ذلك تَجمّدَ مثلَ ملعونٍ يُسخطُهُ الدمارُ المستحيل. إنّه شيطانٌ منبوذ يبكي ضاربًا على صدره مُخفيًا رأسه بيديه. الدماء التي تمنّى إراقتها لا تضرّج وجنتيه، اللتين يعكس امتقاعُهُما قرَفَه من إفراز الرجاء، هذا الذي تنتجه الأجناس التي لا تتوقّف عن التطوّر. كان اغتيالُ الخليقة حلمَهُ

الكبير.. تخلّى عنه واستغرق في ذاتِه مُنقادًا إلى رثاء فَشَلِه: ينجمُ عن ذلك نسَقٌ أخر من الإفراط. تلتهب بشرتُه فتخترقُ الحمّى الكون. يتوهّج دماغُه فإذا الهواء قابلٌ للاشتعال. تحتلّ أمراضُه الأمداء الفلَكيّة ويرتجف لهمومه القطبان. كلّ ما هو تلميح إلى الكينونة، كُلُّ نفَسٍ غير منظور من أنفاس الحياة، ينتزع منه صرخةً تُطيح بتناغم الكواكب وحركات العوالم.

في الاتّجاه المعاكس للذات

---------------- لا نقعُ في أسرِ عقْلٍ مَا إلاّ بسبب تناقضاته وحركاته المتوتّرة والقطيعة الحاصلة بين آرائه وميوله. أكبَّ ماركوس أوريليوس[١] في أثناء حملاته البعيدة على فكرة الموت أكثر ممّا أكبَّ على فكرة الإمبراطوريّة. ما إن أصبح يوليان[٢] أمبراطورًا حتّى تحسّر على الحياة التأمّليّة وغبط الحكماء وأهدر لياليه في الكتابة ضدّ المسيحيّين. انغمس لوثر[٣] بحيويّةِ وَنْدالِيٍّ في هوس الخطيئة وتجمّدَ هناك، دون أن يعثر على توازُنٍ

(١) ماركوس أوريليوس (Marc Aurèle) الإمبراطور الرومانيّ (١٢١- ١٨٠) الذي حكم بين ١٦١ و١٨٠ وكان أحد رموز الفلسفة الرواقيّة.

(٢) يوليان أو يوليانوس Julien (٣٣١-٣٦٣): الإمبراطور الرومانيّ الذي لُقِّب بالجاحد أو المرتدّ لأنّه رفض القول بألوهيّة المسيح.

(٣) مارتن لوثر (Martin Luther): رجل دين ولاهوتي ألمانيّ (١٤٨٣-١٥٨٦) رفض العمل بصكوك الغفران وأطلق عصر الإصلاح الأوروبيّ.

بين رقّته وفظاظته. اختلطَ الأمر على روسو[1] بِخصوص غرائزه، فلم يعش إلاّ في فكرة صِدْقِه. أمّا نيتشه[2] الذي لم تكن أعمالُه كلّها سوى نشيد في مديح القوّة، فقد كابدَ حياةً هزيلةً في رتابةٍ مُمِضَّة. . . وذلك لأنّ العقل لا يكون مهمًّا إلاّ بقدْرِ ما يخطئ بخصوص ما يريد وما يحبّ أو يكره. إنّه *أكثر من واحدٍ*، وهو من ثمّ لا يستطيع أن ***يختار نَفْسَه***. المتشائم الذي لا عربدةَ له لا يستحقّ سوى الاحتقار، شأنه في ذلك شأن مُنشِّطِ الآمال الذي لا يشعر بمرارة. وحدَهُ جديرٌ باهتمامنا ذاك الذي لا يراعي ماضيه ولا يبالي باللياقة والمنطق أو الاعتبار. كيف نحبّ فاتِحًا إذا لم ينغمس في الأحداث حامِلاً نيّةً مُبيّتة بالفشل؟ وكيف نحبّ مفكّرًا إذا لم يهزم في ذاتِهِ غريزةَ البقاء؟ ما من رغبةٍ بعدُ في امتلاك حياةٍ للإنسان المنطوي على لاجدْواه. أن تكون له حياة أو لا تكون، أمرٌ يهمُّ الآخرين. . . إنّه رسول تقلُّباته، وهو من ثمّ لم يعد يثقل نفسَه بذاتٍ مثاليّة: مزاجُه هو مُعْتَقَدُهُ الوحيد ونزوةُ الساعات معرفتُه الوحيدة.

---

(١) جان جاك روسو Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨) : لعلّ سيوران أراد الإلحاح على مكانة السيرة وأدب الاعترافات لدى هذا الفيلسوف.

(٢) فريدريش نيتشه (Nietzsche): الفيلسوف الألماني (١٨٤٤-١٩٠٠). يلمح سيوران إلى مرض نيتشه خاصّة في أواخر حياته حين تشاجر مع حصان في تورين وظن نفسه المسيح وبوذا وأودع في ملجأ إلخ.

ترميم عبادة

---------------- أمّا وقد استهلكتُ صِفتِي كإنسانٍ فإنّي لم أعد أجد منفعةً في شيء.

لا أُلاحظُ في كلّ مكانٍ سوى بهائم ذات مُثُلٍ عُلْيا تثْغُو آمالَها... حتى أولئك الذين لم يعيشوا معًا بالمرّة يُرغَمون على ذلك كأشباح، وإلاّ فما الغايةُ من تصوُّرِ «مُناولة» القدّيسين؟

أستعرضُ العصور بحثًا عن منعزِلٍ حقيقيّ فلا أعثر فيها إلاّ على الشيطان، الوحيد الذي أغار منه... يستبعده العقل فيتوسّل إليه القلب...

روح الكذب. أمير الظلمات. الملعون. العدوّ. كم يطيب لي أن أتذكّر الأسماء التي وصمت عزلتَه! وكم بتُّ أحبّه منذ أخذوا يحطّون من شأنه يومًا بعد يوم! ليتني أستطيع إعادته إلى ما كان عليه! أنا أؤمن به بكلّ عجزي عن ***الإيمان***. رفْقتُهُ ضروريّةٌ بالنسبة إليّ: الكائنُ الوحيد يذهب نحو ***الأكثر وحدة***، نحو الواحد... إنّ من واجبي النزوع إليه: تضطرّني إلى ذلك قدرتي على الإعجاب - خوفًا من أن تظلّ بلا استخدام... أنا ذا في مواجهة مثالِي: أتعلّقُ به فأعاقب عزلتي على أنّها لم تكن شاملة، وأصوغُ لي عزلةً أخرى تتجاوزها: تلك طريقتي في أن أكون ***متواضعًا***...

نحن نستبدل الإلهَ على قدْر الاستطاعة، لأنّ كلّ إلهٍ صالح، شَرْطَ أنْ يُبْقِيَ في الأبديّة على رغبتنا في عزلةٍ جوهريّة. . .

نحن، سكّان الكهوف

---------------- القِيَمُ لا تتراكمُ بتاتًا. ليس في وسع جيلٍ أن يأتي ***بالجديد*** إلاّ إذا داس على ما كان فريدًا في الجيل السابق. يصحّ هذا أكثر في شأن تتابع العصور: لم يستطع عصر **النهضة** «إنقاذَ» عُمقِ القرون الوسطى وخرافاتها ومظهرَها المتوحّش. كذلك الأمر بالنسبة إلى قرن الأنوار الذي لم يحتفظ من النهضة إلاّ بحِسِّ الكونِيّ، مُجَرّدًا من البعد الوجدانيّ الذي كان يسم ملامحَه. الوهمُ الحديث أغرق الإنسان في إغماءات الصيرورة: حيث ضيّع مادّتَهُ الجوهريّة وأسُسَه المزروعة في الأبديّة. ما من فتْح - روحيًّا كان أم سياسيًّا - إلاّ وهو يقتضي خسارةً. ما من فَتْحٍ إلاّ وهو ***تأكيدٌ*** قاتل. في مجال الفنّ - المجال الوحيد الذي يمكننا أن نتحدّث فيه عن حياة روحيّة - لا يمكن لأيّ ***مثلٍ أعلى*** أن يتأسّس إلاّ على أنقاض سابِقِه. ما من فنّانٍ حقيقيّ إلاّ وهو خائنٌ لسابِقيه. . . ليس من ***تفوّقٍ*** في التاريخ: جمهوريّة / ملَكيّة، رومنطيقيّة/ كلاسيكيّة، ليبراليّة/ توجيهيّة، طبيعيّة/ فنّ تجريديّ، لاعقلانيّة/ فكرانيّة - المؤسّساتُ كلّها متساوية شأنها في ذلك شأن التيّارات الفكريّة والعاطفيّة. لا يمكن لنمطٍ فكريّ أن يأخذ على

عاتقِه نمطًا آخر. نحن لا نكون ***شيئًا ما*** إلاّ عن طريق ***الإقصاء***. ليس في وسع أحد أن يُصالح بين النظام والفوضى، بين التجريديّ والمُباشر، بين النزوة والحتميّة. العصورُ التوليفيّة ليست خلاّقة بالمرّة: إنّها تلخّص حماسات العصور الأخرى تلخيصًا مبهمًا، فوضويًّا - بما أنّ كلّ انتقائيّة علامة على ***النهاية***.

كلُّ خطوةٍ إلى الأمام تعقبها خطوة إلى الخلف: ذاك هو اختلاج التاريخ الذي لا طائل منه. - صيرورةٌ ثابتة... إنّ في انخداع الإنسان بسراب التقدّم ما يُبيح الاستخفاف بادّعائه حدّةَ الذهن. التقدّم؟ - قد نعثر عليه في علم الصحّة... ثمّ أين؟ في الاكتشافات العلميّة؟ إنّها ليست سوى حصيلة أمجادٍ مشؤومة... من ذا الذي يستطيع أن يختار عن حسن نيّة، بين العصر الحجريّ وعصر الأدوات الحديثة؟ نحن قريبون من القرد في كلٍّ من العصرين. نتسلّقُ السُّحب لنفس الأسباب التي كنّا بفضلها نتسلّق الأشجار. وحدَها أدواتُ فُضولِنا - النقيّ أو الإجراميّ - تغيّرت، فإذا نحن، وقد تنكّرت ردود فعلنا، جَوارِحُ أكثر تنوُّعًا. القبولُ بفَتْرَةٍ أو رفضُها هو مُجرّدُ نزوة: علينا أن نقبل بالتاريخ أو أن نرفضه ***بمُجْمَلِه***. إنّ فكرة التقدّم تصنع منّا جميعًا حمقى على قِمم الزمن. لكنّ هذه القمم لم تعد موجودةً بتاتًا. هو ذا ساكن الكهوف الذي كان يرتجف فزعًا في المغارات، يرتجف حتى الآن في ناطحات السحب. ما انفكّ رأسُ مالِنا من الشقاء سليمًا على مرّ العصور، غير أنّنا نتميّز على أسلافنا بأنّنا استثمرنا رأس مالِنا بشكل أفضل، لأنّنا نظّمنا كارثتنا بشكل أفضل.

--------------- أحلامٌ فظيعة تؤثّث البِقالات والكنائس، حيث لم أفاجئ إلاّ من عاش في الهذيان. ثمّة مصدرٌ للخبل يختفي في أدنى رغبة، لذلك يكفي أن نمتثل لغريزة البقاء كي نستحقّ الحماية. الحياة - نوبة عتاهةٍ تهزّ المادّة... أنا أتنفّس: هذا كافٍ كي يتمّ حبْسِي. عجزتُ عن بلوغ أنوار الموت فإذا أنا أزحف في ظلّ الأيّام، ولا شيء يُبقيني موجودًا سوى رغبتي في ألاّ أغيب عن الوجود.

تخيّلتُ في السابق أنّي أستطيع أن أُحطِّم الفضاء بِلَكْمة، وأن ألعب مع النجوم، وأن أوقف الديمومة أو أسيّرها على كيفي. لم أر في كِبار القادةِ سوى خجولين كبار، ولم أر في الشعراء سوى متلعثمين بائسين. لم أكن أعرف شيئًا عن مُقاومة الأشياء لنا، شأنها في ذلك شأن البشر والكلمات، وكنتُ أعتقد أنّي *أشعر* بأكثر ممّا يسمح به الكون، لذلك أدمنتُ على لامُتناهٍ مُرِيب، وعلى كوسموجونيا متحدّرة من مُراهَقةٍ عاجزة عن خَتْم نفْسِها... كم يسهلُ على المرء الاعتقاد بأنّه إلهٌ عن طريق القلب، وكم يصعب عليه ذلك عن طريق العقل! وبأيّ كميّةٍ من الأوهام وُلِدتُ كي يكون في وسعي أن أخسر واحدًا منها كلَّ يوم!

الحياةُ مُعجِزة تُدمّرها المرارة. المسافةُ التي تفصلني عن جثّتي جرحٌ بالنسبة إليّ. إلاّ أنّي أصبو عبثًا إلى مفاتن القبر: لم أستطع التخلّي عن شيء، ولا الكفّ عن الخفقان، لذلك فإنّ كلّ شيء فِيّ

يُؤكّد لي أنّ الديدان ستتوقّف عن العمَلِ على غرائزي. أبغضتُ نفسي وقد افتقرتُ للكفاءة في الحياة كما افتقرت لها في الموت، وها أنا في هذا البغض أحلم بحياةٍ أخرى وبموت آخر. ولأنّي أردت أن أكون حكيمًا لم يكن له يومًا نظير، ها أنا مجرّد مجنون بين المجانين...

موكب البشر الأدنى

-------------- تورّط الإنسانُ خارجَ دُرُوبِه وغرائزِه فإذا هو في طريق مسدود. لقد أحرق المراحل ليلتحق بنهايته. إنّه حيوان بلا مُستقبل، غاصَ في مثَلِهِ الأعلى فخسر اللعبة التي وضعَها بنفسِه. أراد أن يتجاوز نفسَه باستمرار فإذا هو جامد، ولم يبق من حلٍّ أمامه إلاّ أن يُلخّص مَواطِن جُنونه فيكفّر عنها ويرتكب منها المزيد...

غير أنّ في البشر من يُحرَم حتّى من هذا الحلّ: يقول البعض لنفسه «لقد فقدنا عادةَ أن نكون بشرًا، فهل ظللنا منتمين إلى قبيلة أو إلى عِرْقٍ أو إلى حثالةٍ مَا؟ كان لدينا حُكمٌ مُسبق بالحياة، وبفضلِهِ اعتنقْنَا خطأً سَهُلَ عليه وضْعُنا مع الآخرين... لكنّنا هربنا من النوع... حطّمت بصيرتُنا هيكلَنا العظميّ فأرغمتنا على كينونة رخْوة - حثالة من اللافقاريّات تتمدّد على المادّة لتلوّثها باللعاب. ها نحن بين الرخويّات. ها نحن نبلغ ذاك الحدّ المضحك، حيث

ندفع ثمن إساءتنا استخدام مقدراتنا وأحلامنا. . . لم تكن الحياةُ نصيبَنا بتاتًا: في لحظاتِ سُكْرِنا بها تحديدًا، كانت أفراحنا تأتي من نزوعنا إلى ما فوقَها. ها هي تنتقم وتسحبنا في اتّجاه قيعانها: موكبُ بشَرٍ أدْنَى يتقدّم في اتّجاه حياةٍ دُنْيَا. . . »

إلى متى الشيء نفسُه[١]؟

-------------- لِيُلْعَن إلى الأبد النجمُ الذي وُلِدتُ تحتَه، ولترْفُض كُلُّ سماء حمايتَه، ولْيتفَتّت في الفضاء مثل غُبارٍ بلا شرَف! أمّا اللحظةُ الخائنة التي ألقت بي بين المخلوقات، فلتُشْطَب إلى الأبد من لوائح الزمن. لم يعد في وسع رغباتي التصالُحُ مع هذا الخليط من الحياة والموت الذي تنْحَطُّ إليه الأبديّةُ يوميًّا. مللتُ المستقبَل وعبرتُ أيّامَه، غير أنّي ظللتُ مهمومًا بتقلُّب أنواعٍ غامضة من العطش. وها أنا لا ألغي أوهامي إلاّ لتهييجها بشكلٍ أفضل، مثل حكيمٍ مسعورٍ عديمِ التأثُّر بالعالم وثائرٍ عليه. أما من نهايةٍ أبدًا لهذا السخْطِ في كونٍ غير متوقّع، على الرغم من أنّ كلّ شيء فيه يتكرّر؟ إلى متى أقول لنفسي: «أنا أمقت هذه الحياة التي أعبُد»؟ إنّ بُطلانَ هذياناتنا يصنع منّا جميعًا نفسَ الآلهة الخاضعةً لقَدَرٍ بلا طَعم. لماذا نستمرّ في التمرّد على تناظُرِ هذا

(١) أورد سيوران العبارة باللاتينيّة: Quousque Eadem.

العالَم إذا لم يكن الشّواشُ نفسُهُ سوى نظامٍ من الفوضى؟ لقد قُدِّرَ علينا أن نتعفّن مع القارّات والنجوم، لذلك سنظلّ مثل مرضى مستسلمين، نتجوّلُ حتّى نهاية العصور بتطَلُّعِنا إلى خاتمةٍ مُتوَقَّعةٍ، مفزعةٍ وعبثيّة.



الفهرس

هذا الكتاب

عشتُ الحياةَ واختبرتُ كلّ الحجج المضادّة لها. جرّدتُها من كلّ طعومها لأُدْرِكَ عرْيَها متمرِّغًا في وَحْلِها. عرفتُ الميتافيزيقا ما بَعْدَ الجنسيّة. خواءَ الكون المولودِ بلا طائل. وذلك العرَقَ الذي يتبدّد في بَرْدٍ سحيقٍ أسبَق من سَوْرات المادّة. وأردتُ أن أكون وفيًّا لمعرفتي. أن أُرْغِمَ الغرائز على الإغفاء. ولاحظتُ ألّا فائدة من استخدام أسلحة العدَم إذا لم يكن في الوسع توجيهها نحو الذات. لأنّ انفجار الرغبات في غمرة المعارف التي تُنْكِرُها، يُنتِج نزاعًا مُريعًا بين عقْلِنا المُعادي للخلْق والباطنِ اللاعقلانيّ الذي يربطنا به.





الغلاف : سكينة صلوّن